حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

مكتبة حراء

رجال
ولا كأيّ رجال



فريد الأنصاري

دار النيل

رجال ولا كأي رجال

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى : ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

تصميم وغلاف: مراد عرباجي

رقم الإيداع : ISBN 978-975-315-613-4

DAR AL-NILE

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1
34696 Üsküdar - **İstanbul / Türkiye**
Tel: +90 216 5221144
Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة، الحي السابع،

مدينة نصر-القاهرة/جمهورية مصر العربية

هاتف : ٠٠٢٠٢٢٦١٣٤٤٠٢-٥

المحمول : ٠٠٢٠١٠٠٠٧٨٠٨٤١

www.daralnile.com

رجال ولا كأيّ رجال

فريد الأنصاري

دار النيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فهرس

الفصل الثاني:
بين الجمالية والإنسان

المقدمة

هذا الأنصاري المغربي، ذو العقل الحصيف، والفكر المنير، والثقافة الواسعة، والشعور المشتعل، والحِسّ الرهيف، والذي يبيت مؤرقًا بهموم الأمة وأوجاعها، وما تعانيه من تخلف، وتعيش عليه من انحسارات فكرية وإيمانية، وقصور في مَدَيات الإدراك، وهبوط وانهيار في صحتها الروحية، وتعطل لقدراتها الحياتية... هذه الأمور جعلته -لا أقول يصاب بالإحباط- بل بالرُّعب الْمُشِلِّ، والخوف من مصير هذه الأمة، ومن انحدارها نحو مجاهيل غامضة لا يُعرَفُ أولها من آخرها..

فراح ينكب على القرآن الكريم يقرأه تعبُّدًا وتفكرًا، مفتّشًا بين كلماته وآياته وسوره عن إرهاصات استئناف الأمة لدورة زمانية جديدة تستعيد فيها صحتها الإيمانية، وقدراتها الإدراكية، وأمجادها الحضارية، وتستدعي إرادتها في السعي إلى فهم نفسها، وإدراك أبعاد ذاتها، فكلّما وَجد معلمًا من معالم الطريق إلى هذه "الاستئنافية"، وإشارة دالَّة عليها، سجَّلها على صفحة ذهنه، واختزنها في ذاكرته... ثمّ مضى بعد ذلك يقرأ "السنة النبوية الشريفة" تعبُّدًا وتفكرًا كذلك، فتوقف طويلاً إزاء جملة من الأحاديث النبوية الشريفة المبشرة بهذه "الاستئنافية" بشروطها وأشراطها.. ثم ساح في الأرض زائرًا لأقطار متعددة من العالمين العربي والإسلامي وهو يفتش عن هذه المعالم والدلالات والإشارات في الأشخاص

والجماعات، وبعد المزيد من البحث والاستقراء والاستقصاء، وجَدَ أنه لم يحْظَ بضالته التي جاء ينشدها في هذه الأقطار، ولم يعثر على ذلك التطابق بين خزينه الدلالي والإشاري وبين ما هو قائم بالفعل على أرض الواقع، وبصدد ذلك يقول رحمه الله: "إن العلامات التي جئتُ بها، وأبحث عَمَّنْ تنطبق عليه ولم أجدها في بلدي ولا في أي بلد آخر من كثير من بلدان العرب التي زرتُها، وفيها دعاة ومصلحون وحركات إسلامية قوية جدًّا، ولكن هذه العلامات كانت ناقصة دائمًا، أجد بعضها ولا أجد البعض الآخر... ولذلك قلت آنفًا هذا قد يكون يشبه الحق لأن بعض العلامات موجودة فيه، وبعض العلامات الأخرى غير موجودة، إذن هذا ليس هو المطلوب"[١].

ولولا أنه كان يمتلك من تماسك النفس ما يجعله قادرًا على تحمل محن الإحباطات التي تتابعت عليه الواحدة تلو الآخرى وهو يفتّش عن بارقة أمل في شخص أو جماعة، لما استطاع أن يواصل حياته الفكرية والبحثية... لقد تأوّه، وزفر الكثير من الزفرات والكثير من الحسرات لكنه لم يفقد الأمل أبدًا...

وهو يرى أنّ شأنه في هذا البحث المضني شأن الرعيل الأوائل من الصحابة الذين حدثهم الرسول ﷺ عن التابعي الصالح "أويس القرني ﵁" وذكر لهم علاماته ودعاهم إذا ما التقوه أن يطلبوا منه الدعاء لهم، لأنه مستجاب الدعاء، فلم يلتقوه إلا في زمن عمر بن الخطّاب ﵁ الذي عرفه وتيقّن من شخصه من خلال العلامات التي ذكرها الرسول ﷺ، وطلب منه الدعاء..

---

[١] رجال ولا كأي رجال، ص:٥٤.

فأما "أويس القرني ﷺ" صاحب هذا العصر، الذي ظلَّ "الأنصاري" يفتّش عنه حاملاً علاماته في خزينة فكره، فليس بالضرورة أنْ يكون شخصًا بعينه، فربما تمثل في جماعة تحمل معناه وتتصف بصفاته وتدل عليه بعلاماته، وربما يكون فردًا يعيش في جماعة، أو جماعة تعيش في فرد، أو فرد وجماعة ينفذ أحدهما في الآخر، ويسري روح أحدهما في روح الآخر، وهذا ما التقاه "الأنصاري" رحمه الله في "النورسي" وفي رسائله "رسائل النور" وفي طلبته.

ففي "إسطنبول" يستطيع أن يرى المنهج الإبداعي الذي يلتزم به أبناء "الفتح"، ويرى كذلك روح "أويس القرني" وهي تظلهم أفرادًا وجماعات، وها هو يرى ويعجب ويذهل من تهافت الذين يلتقونهم من الناس عليهم وطلب الدعاء منهم، لقد أحيوا سنّة الدعاء التي كادت تندثر وتختفي في فوضى الخلط بين المفاهيم، حتى كادت ثقافة الدعاء تبهت عند الكثير من الجماعات على الرغم من الحديث الشريف الذي يقول: «الدعاء مخ العبادة»... فالدعاء بشقَّيه اللساني والفعلي والعملي هو إكسير الدعوات الربّانية؛ فالأعمال والأقوال ما دامت تنطلق من معين الإيمان في الإنسان فهي دعوات وتضرعات ترفعها الملائكة إلى أعلى علّيين.

وأما مصطلح "الخدمة" الذي عرفت به دعوة "فتح الله كولن"، فهو مصطلح مبتكر لم تعرفه الدعوات من قبل، ينبئ عن فهم عميق ودقيق لأصل الدعوة الربّانية وفلسفتها وذلك في تكريس الدعاة لأنفسهم في خدمة الإنسان، الفرد والجماعات في أخص خصائص وجودهم وهي خاصية الإيمان بالله والإيقان بوجوده تعالى، وهذا المصطلح هو الذي جعل "الأنصاري" رحمه الله يصاب الذهول والإعجاب للمعاني العظيمة

الذي ينطوي عليها، وهذا المصطلح هو مفخرة هذه الجماعة لأنها من عظيم تواضعها تكتسب شرف خدمة الإنسان لا بل خدمة البشرية بأسرها وإنقاذها من انحرافاتها الخطيرة عن جادة المنهج الإلهي.. ومخطئ شديد الخطأ مَنْ يظنّ أنّ هذه الخدمة دائرة مغلقة على نفسها، بل على العكس من ذلك، فحقيقة وجودها ترتبط بحقيقة كل موجود من مخلوقات الله تعالى.

وهذه الخدمة المفتَّحة الأبواب، يَؤُمُّها كُلَّ يوم الجَمُّ العديد من أخيار الناس، يريدون الانضواء تحت رايتها، أو الاقتباس من بعض أنوارها، أو التَّعرف على بعضٍ من معارفها.. لقد كتب "الأنصاري" رحمه الله العديد من المقالات في مجلة "حراء" التركية الإسطنبولية مبديًا إعجابه ومشيدًا بأعمال رجال هذه الخدمة التي لمسها لمسَ اليد واطّلع عليها عن كثب والتي تكاد تبلغ مرتبة الإعجاز الخارق لكل العاديات والمتعارفات، حتى أنه رحمه الله وصف رجال الخدمة وشبابها بأنهم "رجال ولا كأيّ رجال" لما ينجزونه من خدمات ويقومون به من أعباء تنوء بها وتعجز عنها دول وحكومات في شتّى مجالات الخدمات الاجتماعية والإنسانية والتربوية والتعليمية.. إنها سطور بينات واضحات لمن يريد أن يقرأ، كأنّ القلم العلوي هو الذي يكتبها ويسطّرها، أو يعين عليها، أو يسهم في خلقها، إنها أعمال تَمَسُّ الأكباد المؤمنة بنفحات محرابية، ورعاية إلهية، وسر من أسرار عنايته تعالى للمخلصين من عباده المؤمنين... إنهما أعمال بينة الإشارة، جهيرة الصوت، مجلوة بصبح من أصباح اليقين الحق، مع حصافة العقيدة، والتجرد الكامل للحق حيثما وجد، وفي أي مكان لمع نوره وسطعت شمسه..

إنّ هؤلاء الرجال "وأيُّ رجال" كما يصفهم "الأنصاري" رحمه الله من

خلال أحدى مقالاته على صفحات "حراء" أصحاب معانٍ لا أصحاب ألفاظ، أبدانهم في خدمة أرواحهم، تُسْتَهلَك وتَشْحُبُ وتمرض وربما تموت.. يعملون كخليّة نحل، لا تعجبهم المظاهر الجوفاء، ولا استعراض العضلات، ولا الأقاويل والثرثرات، أَيِّدو الركن، باسلو الإقدام، عزاء لليائسين، سلوان للحزانى البائسين، جياشو الصدور، مفعمو الأفئدة بينابيع الإيمان، إنهم -ولا فخر- أهم ما تحتاجه "الدنيا" وتتوق إليه في هذا العصر الأجوف والأجرد، وأكاد أقسم غير حانث أنْ لو بُعِثَ اليوم "أويس القرني" من قبره ونظر إليهم لحار وقال في انشداه واندهاش: "لستُ أدري أأنتم أنا..؟! أم أنا أنتم..؟!".

لقد سكب "الأنصاري" رحمه الله فوق صفحات "حراء" حرارة وجدان شريف المحتد، وأشعل فيها وقدة شعور طاهر كبير... إنّ مقالاته وكتبه شكَّلتْ صرحًا فكريًّا يضرب عميقًا في أجواء الفضاء الفكري في العالَمين العربي والإسلامي، مستخدمًا لبناته من معاني أفكار الخدمة، ومن مفردات معاني راعي الخدمة "فتح الله كولن"... وهذه المقالات والكتب أصبحت اليوم صفحة مهمة من صفحات تاريخه الفكري والثقافي مِمَّا دفعنا لكي نجعل من هذه المقالات إضمامة عالية وثرية نودعها هذا الكتاب ونهديها لمحبّي "الأنصاري"، من رجالات المغرب ومن أصدقائه وتلامذته ومعارفه واعترافًا منا بفضله العميم وجهده الكبير في تعريف المغاربة إخواننا في الدين بالخدمة وأفكارها ورجالها، رحم الله "الأنصاري" وجمعنا وإياه في جنته ومستقر رحمته..

أديب إبراهيم الدباغ

الفصل الأول:

البحث عن فرس إسطنبول

رجال ولا كأي رجال [٢]

لولا أني رأيتُهم لقلت إنه مجرد وهمٍ أو هُراء أو خيال.. ظلال نورية لجيل الصحابة الكرام، جمعوا بين خصلتين عظيمتين من خصالهم الكبيرة: الهجرة والنصرة. فلم يكن منهم مهاجرون وأنصار، بل كانوا مهاجرين أنصارا. وللصحابة فضلهم الذي لا يُبارى..

والهجرة إلى **الله** ﷻ ورسوله ﷺ كلمات تتلفظ بها الأفواه ولكن قلّما تعيها القلوب. فأن يترك الفتى حياة الراحة والدعة وبريق المدينة الجذاب، ثم يضرب في الأرض ليغوص في غربة بعيدة، يحمل في يده قنديلا من نور؛ بحثًا عن المستضعفين في بقاع الأرض، من أجل إطعامهم جرعة من رحيق الحياة، فيتحمّل في سبيل ذلك فناءَ نفسه وذوبان ذاته ونسيان دنياه... فتلك تجربة روحية لا يعرفها حقًّا إلا من عاناها، وإنها لعقبة دونها عقبات، تنتصب في مدارج المجاهدات.

من بلاد الأناضول تشرق شمسهم، ثم تتدفق أشعّتها نحو كل العالم خيوطا بلورية وهّاجة، تصل الأرحام القديمة وتذكي الحنين الجريح..

مهاجرون.. تركوا خلفهم كل شيء وانطلقوا كالخيول العارية، يفتحون الأبواب والنوافذ للمحاصَرين في كل بقاع الأرض، ويعلّمونهم

---

[٢] مجلة حراء، العدد: ١٣ (أكتوبر–ديسمبر ٢٠٠٨).

كيف يستنشقون من جديد هواء الفضاء الفسيح، بعدما فقدوا إحساسهم بالحياة منذ قرون.

مهاجرون.. هجروا هذا الذي تذل له القلوب الميتة "متاع الحياة الدنيا وزينتها"، رغم تدفقه عليهم من كل الجهات.. وانطلقوا سائرين إلى الله، يوزّعون كلمات النور، ويبشرون العالم بالأمن والسلام، ويبعثون في قلوب الفقراء الأمل العظيم. كانت جحافلهم تتفرق بين الصحارى والجبال والأدغال والمحيطات... وقد تَكْبُو فرَسٌ هنا أو هناك، ولكن الطليعة أبدا تصِل إلى غايتها، وترفع راية النور فوق أعالي القمم الشامخة، فيشمخ الدين بهم ويعتزّ..

ظلال من جيل الصحابة أو نُسخ أخرى لستُ أدري.. ولقد رأيتهم وما كذبت عيني. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلا.. فلله درّهم.. أيّ رجال هم!؟

أنصار.. فلقد نَصروا الخير، فكانوا أنصار العصر الجديد.. كلما رأوْا شمعةَ نور تضطرب في عاصفة الريح في أي بقعة من العالم، أسرعوا إليها غير مبالين بالصعاب واحتضنوها بمشكاة من زجاج بلوريّ، فتصير كأنها كوكب درّي، ينبُض بالجمال والبهاء..

جاعوا ليأكل غيرهم، وعَرُوا ليلبس فقراؤهم، وعَدِمُوا ليملك مستضعفوهم، وبكوا ليضحك إخوانهم... فكانوا حقّا يوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

أنصار.. اقتبسوا نصرتَهم استمدادا من نور المدينة المنورة، بُعَيد هجرة الرسول ﷺ إليها مباشرة، ولمّا يزل فرحُ أهل يثرب جديدا يتفجّر طربا.. من هناك أخذوا حقيقة نصرتهم، نديّة طريّة كغُصنٍ رطيب، يَنثر النّدى

والثمارَ اللذيذة.

هاجروا ونصروا، فأعطوا من ذاتهم لسِفار الهجرة، وأعطوا من ذاتهم لدافة النصرة، فما بقي لهم في هذه الأرض من شيء! ولكنهم في عالم الروح يملكون كل شيء، استنادا إلى لله الغنيّ الحميد.

مجانين.. يعشقون الخدمة اغترابا، من قَرِّ "سبريا" إلى حَرِّ جنوب إفريقيا.. ولا تركوا جزيرة أو مغارة أو سهلا أو جبلا من كل قارّات العالم إلا دخلوه، ووزّعوا فيه شُعاعات الصبح القريب.. يبتسمون للَسع الآلام، ويسعدون بعبور حقول الشوك الجارح فتسيل الدماء من أقدامهم، وتسيل الدموع من عيونهم، والقلب مسرور بالله!..

رجال.. لو تحدث عنهم كتاب قديم، لقلنا إنها مبالغة من مبالغات كتب القصص والطبقات والمناقب.. لكنهم يعيشون "الآن" في الحاضر والمستقبل، فها هم أولاء أمامك نماذج حية من الشوق الملتهِب والفاعلية العظيمة.. فأكرِمْ بهم وأنعِمْ من شباب وكهول.. أحيَوْا فينا أمل الحياة، ومدّونا بيقين الشروق الجديد.. فكانوا مِصداقا لكلمات النبوة، في أنّ الله سينصر هذا الدين نصرا عالَميًّا، حتى لا يبقى بيتُ وَبَرٍ ولا مدَر إلا دخله..

ولقد رأيتُ أنوار الأسماء الحسنى تنعكس على عيونهم، وتتدفق من بين أيديهم.. فيتبعون هُداها منجذبين بقوتها إلى تحقيق قدر الله العظيم، في إحياء الأرض بعد موتها بالغنى والكرم والجود. ترى الواحد منهم أمّة في رجل أو رجلا في أمة.. قد تنبهر إذ تقع عيناك على أي طيف منهم فتقول: "وَيْ كأن ليس له مثيل"، فإذا رأيتَ الآخر أنساك جمالُه بهاءَ الأول. جمعوا أخلاق الخير والفضيلة كلها. نظرة واحدة فيهم تغنيك عن قراءة كتب الفلسفة والأخلاق وخيالات المدينة الفاضلة. فهؤلاء لا يتكلمون

عن الأخلاق، بل هم الأخلاق نفسها تمشي على الأرض، في زمن صار الخلق الكريم فيه قطعة مهملة في متحف التاريخ.

هل تريد أن تكون منهم؟.. فكّرْ، فكّر قبل أن تقول "نعم".. فإنما هي كلمة تقولها، وإنها لدعوى عريضة، دونها اقتحام العقبة.. وما أدراك ما العقبة؟! أن تبيع نفسك لله كاملة، فلا يبقى منك لك شيء، أيّ شيء.. تستسلم لمراد الله حيث ما سارت بك مقاديره، حتى تُدفن بذرتك في أيّ نقطة من العالم، بعيدا بعيدا عن وطن الأُنس والأهل والأحباب.. زادك الوحيد، وغذاؤك الفريد "ذكر الله" و"الاستمداد من نوره العظيم".

أن تكون منهم معناه أن ينساك الناس كلهم، ويذكرك الله وحده، وأن تخرج من الدنيا وأنت ما تزال حيًّا تعيش فيها، تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، فلا ترى في نفسك ولا لنفسك شيئًا.. وترى أقرانك من معارفك القريبين، ممن تضخّمت عندهم ذواتهم، ولم يستطيعوا أن يتخلصوا من أغلال التراب، ولا أن يُفْلِتوا من شباك الأسباب، يرتقون في درجات الوهم الدنيوي، فيُطلّون عليك من أبراجهم العالية، بما يملكون من مناصب وألقاب! وأنت تمشي على التراب حافي القدمين، فقيرا من كل شيء، إلا من مدد الله العظيم.. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾(الفرقان:٢٠).

أتريد أن تكون منهم؟.. "نعم"، تلك كلمة سهلة النطق، لكنها تجربة مريرة.. ومَن قال: "إن النار ليست لها خاصية الإحراق"، فليَمُدَّ إليها يدَه.. فهل أنت مستعد لأن تحترق حتى يصير جسمك رمادا، فتذروه الرياح في كل قارات العالم، ذرّاتٍ متناثرة هنا وهناك، ما سقطت منها واحدة على تربة قاحلة إلا جعلَتها تخضرّ، وتُنْبِت من كل زوج بهيج.!

هؤلاء هم عماليق العصر، ونماذج الإنسان الحق الذي ينتظره العالم

منذ زمان بعيد.. فهل آن الأوان لتستعيد الأرضُ أمانها الذي أودعه فيها سيد الخلق محمد ﷺ؟!.

حاصَروا ظُلْمَ البنادق المتارس بالمعاهد والمدارس، وأطفؤوا نيران الفتن والحروب بالكلمات والحروف.. فكل مدرسةٍ يَبنونها هنا أو هناك تغدوا شجرةً خضراء، ما تزال تفرّخ حولها فسائل منها تَنمو ثم تنمو، حتى تصير البلاد أشجارا وأشجارا، فإذا بغابة الخير تَخنُق صوتَ الرصاص البغيض، وتقضي على رائحة البارود النتة..

معلّمون.. انتشروا في كل مكان، يعلّمون أطفال العالم منطق الطير وتراتيل العصافير، ويرسمون على السبّورات الخضراء أمامهم أحلامَ الغد الجميل ومعالم الطريق إلى الجنة. فللطفولة المتخرِّجة من بين أحضانهم -عَبر كل قارّات الأرض- نشيد واحد، يبشر الأمة بالخير والسلام..

ملائكةُ الذكر تحبُّهم، فلطالما استمعت إلى أهازيجهم الشجيّة.. وملائكة العلم تعرفهم، فلطالما حملت بأجنحتها طلائعهم، وهي تضرب في الأرض نحو غابات أسطرالْيا أو صحارى آسيا أو أدغال إفريقيا أو نحو ضباب الغرب البعيد.. ليطلقوا شعاع النور من فوق ناطحات السحاب.. معلّمون عُزَّل، إلا من سلاح التربية والتعليم! يغامرون باقتحام المخاطر في كل مكان، فيرحلون بصدورٍ عارية، ووجوه تبتسم أمام فُوّهات الموت! ولربّما خرقت بعضَها رصاصةُ غدرٍ أو نائبةُ دهرٍ، فلا يرجعون القهقرى أبدا!..

سادتي!.. أنتم المجاهدون حقّا، فعليكم من الله السلام.

مستشفى موصول بالسماء [٣]

هو مستشفى.. لكنه ليس كسائر المستشفيات! إنه مستشفى مختلف تمامًا. فبمجرد ما تدخل بوّابته الأولى تشعر بدفء روحيّ جميل تمامًا، كما يشعر المؤمن بدفء الإيمان حينما يدخل صفّ الصلاة.. كل شيء فيه يشير إليك بتحية "السلام"؛ فتغمرك الطمأنينة العميقة والأمان..

ليس لأنه فقط متربّعًا على شاطئ من أجمل شواطئ إسطنبول، مُطلاًّ بنوافذه الفسيحة على بحر مرمره وجزوره الجميلة، ولا لأنه مجهَّز بأحدث الآلات الطبّية، ولا لأنه جمع من كل أقسام التخصّصات الطبية وسائر أنواع التداوي والعلاج، ولكنه علاوة على ذلك كلِّه لأنّه يضمّ بين جوانحه الدافئة أعظم شيء وأهمّه في مجال الطب والتداوي، بل في مجال الحياة بأكملها: "الإنسان".. الإنسان بكل مراتبه واختصاصاته: الأطبّاء، والممرّضات، والمساعدون، والعاملون، والأعوان. كلهم جميعًا يمثّلون وجهًا مشرقًا بالنور لهذا المستشفى العظيم. نظَراتهم تحدّثك عن مدى الحب العميق الذي ينبض في قلوبهم تجاه مرضاهم، وتُجاه كلِّ من

---

(٣) مستشفى سماء هو المستشفى الذي عولج فيه الدكتور فريد الأنصاري وصعدت منه روحه الطاهرة إلى جوار ربها رحمه الله رحمة واسعة. ونشر المقال في ملحق خاص أعدّته مجلة حراء تحت عنوان "فريد الأنصاري.. رجل الفكر والقلم" بمناسبة ندوة وفاء للدكتور رحمه الله في فبراير ٢٠١٠م في الدار البيضاء بالمغرب. (المحرر)

يطرق بابهم لاستشارة طبّية.

إن هذا الروح العظيم الذي يفيض من هذه القلوب المتيَّمة بحب الخير، الفانية في خدمة الإنسان، جعل هذا المستشفى يمتلئ رَوْحًا ورَيحَانًا يملأ قلوب المرضى والزائرين بالأمل العظيم، ويطرد عنهم اليأس والقنوط إلى الأبد.. بل إنني قد رأيتُ -وأنا أحد نُزلائه لفتَرات عديدة- النورَ يفيض بقوّة من شرُفاته ونوافذه، فيمتدّ كغُدران الكوثر؛ ليَرويَ الأحياء المجاورة له، بل ليروي مدينة إسطنبول بأكملها، بل -ولِمَ لا- بلاد الأناضول جميعًا. والسر في ذلك أن الحب الذي تتدفق جداولُه من قلوب طاقَمه الإداريّ والطبّيّ والتمريضيّ لا يقف عند حدود بناية المستشفى، ومَن ذا قدير على جعل السدود للحبّ والجمال إذا تدفّقت أنهارُهما؟!

نعم، هو مستشفى، لكنه ليس كسائر المستشفيات!.. إن المريض إذْ يلقّى العلاج يشعر بلمسات يد الطبيب تبثّ في جسمه شعورًا بالسعادة الغامرة والراحة الشاملة، فتتواصل القلوب بين الطبيب والمريض بلغة غير قابلة للكتابة والتوصيف: إنها لغة الإخلاص.. هذه اللغة التي لا يُتقنها إلا من تعلم بمدارس الروح، وأدلج بناشئة الليل الساجي، ورتّل بوجدانه الجريح أحزان المستضعَفين ترتِيلاً..

أطبّاء وممرّضون وعاملون من طراز آخر، فنَوا عن ذواتهم ومصالحهم الشخصية وحظوظهم الدنيوية، وقطعوا الصِّلات مع دُنيَا الشّهوات؛ فكانوا خيرَ خدّام للخير والمحبة والسلام، يوزّعون أقراص الأمان والأمل قبل أقراص العلاج والتداوي الحسّيّ. فما من مريض تلمسه أيديهم المباركة إلا وشرِب بروحه من هذا الوِرد الكوثريّ الصافي، فأنّى للمرض بعد ذلك أن يسكن بجسمه أو بقلبه؟! فلله درّهم أيّ رجالٍ هُمْ؟!

كل المستشفيات عندما تدخلها تزكمك رائحةُ الأدوية وأنواع الكحول ومواد التطهير، فربما انقبضت النفس من هذا أو ذاك.. بينما الداخل إلى مستشفى "سماء" بمجرد ما يضع خطوته الأولى بين جوانحه تغمره رائحة الجنّة، ويَبهَرُه ربيعٌ ملائكيٌّ امتزج أرِيجُه بأنداء الروح..

كل شيء ههنا مبتسم، يفتح أحضانه منشرح القلب لاحتضان الجِراح الحزينة والأضلاع المنكسرة. بسماتٌ هي ولكن ليست ككلّ البسَمات، فكثير من الأطباء والممرضات في مستشفيات الدنيا، يرسمون على وجوههم بسَماتٍ تُرهب المريضَ وتُخيفه أكثر مما تؤمِّنُه وتطمْئنُه. لأنه يرى أنّها ليست سوى بسماتٍ صفراء، تفرضُها المهنة وصناعة التطبيب والتمريض.. بسَماتٌ ميّتة لا رُوحَ فيها ولا رُواء. ذلك أنهم مجرّد موظَّفين أشبهُ ما يكونون بمُذيع الأخبار بالتلفزيون، إذ يصف الحوادث الرهيبة وأخبارَ الحروب والموتِ والدمار، فيرسُم على وجهه بعدها بسمةً باردة.. لكنّه ههنا في "سماء" يرى البسَمات تنتشر هنا وهناك كالشجَيرات الخضراء، وتتفتّح أزاهيرها زكيّةَ الأريجِ، كرائحة الورد البرّيّ تَجذب القلوب من بعيد.

لقيتُ شيخًا مريضًا مرةً بأحد مصاعد المستشفى، رآني فاستغرب لباسي فعرف أنني من بلد بعيد؛ فسأل صاحبي، فأخبره بقصة السفر في كلمات، فقال لي الشيخ: "ستُشفى بإذن الله، لقد أصبتَ المكان المناسب!".

إنّ سرّ النجاح الباهر هو في إخلاص هؤلاء الفتية الذين آمنوا بمُهمّتهم النبيلة مُخلصين على أتمّ ما يكون الإخلاص؛ فنظروا بعُمق بصيرتهم إلى المريض وشاهدوا فيه "الإنسان" بما يَحمل من خَوالِجَ نفسيّة وآلامٍ روحية، فأدركوا مواطنَ العلّة ببصائرهم قبل أي جَسٍّ أو أيّ فحص أو

تحليل لـمُكوِّنات الطين والحمإ المسنون.

إن الطبيب الحقّ إنما هو الذي يعالج المريض إنسانًا كلاًّ لا يتجزَّء، روحًا ومادّة؛ لاَ الذي يراه أنه جهاز من الميكانيك تعطّلتْ بعضُ قطعه، فجعل يُصلّحُها أو يبحث لها عن قطعة غيار!.. إن مثل هذا الطبيب -حتى ولو نجح في إصلاح هذا العطب المادّيّ المحسوس- فلن ينجح أبدًا في تذويق مريضه طعمَ الشفاء الكامل ولا لذّةَ السعادة والانشراح.. وأنّى لميّت الروح أن يُعالِج جريح الروح؟!

وإن كنتُ أَعجَبُ فإنما أَعجَب لطبيبٍ يُشرق شُعاعُ الشمس البلَّوريّ على مكتبه فيُوصد دونه الأبوابَ والنوافذَ، ولا يَغرِف من جَداوله بَهجةَ المكان وإشراقَ الروح! ذلك أن المريض إذ يُقبل على المستشفى، يُقبل منكسرَ الكبرياء، مُحطَّمَ الأنانية، مُستسلمًا روحًا وبدَنًا بين يدَي الأطبّاء والممرِّضين، تَمامًا كما يَدخل العبدُ المُذنبُ إلى المسجد فيَجلس بين يدَي الواعظ مُستسلمَ الروح، يَملأُه الحزنُ والأسَى على ما فرّط في حقّ ربّه، راجيًا أن تَصدُر من الواعظ كلمةٌ واحدةٌ تُرجِعُ له الأملَ، وتَدلّه على مسلكٍ من مسالك التوبة.

فإضاعةُ الطبيب لفُرصة علاج وجدان المريض المُستسلِم بين يدَيه قبل علاج بدنه، هي تمامًا كإضاعةِ الواعظ لفُرصة الهداية لمِثل هذا العبد المُنكسر المُستسلِم بين يدَيه. ورُبّ طبيبٍ كان في الدلالة على الله أبلـغَ من عشَرات الوُعّاظ المُحترِفين، ولَو لم ينطِق بكلمةٍ واحدةٍ من قاموس الإصطلاحات الدينية.. كلّما نطَقَتْ لُغةُ الروح الخفيّة بقلبِه، فتكلّمَت عيناهُ ولمَساتُ أنامله إذ يُباشرُ مريضَه بالفحص والعلاج. إن الخُلق الصامتَ في المؤمن لَيُشبه النهر المتدفّق بصَمطٍ بين الروابي لِعُمقِ غَوره وبُعد قراره،

فهو أبلغُ في الوصول إلى أبعد السهول وأقوى في إرواء المِساحات وأسرع في قطع المسافات..

إن الطبيب الحقّ يُعطي أكثر مما يأخذ، بل يعطي وفي الحقيقة لا يأخذ شيئًا؛ لأن المال الذي يستفيده لضرورة عيشه، لا يُساوي ولا نَزْفَةً واحدةً من روحه، إذْ يقتطع منها ضِماضاتٍ لمريضه الجريح..

كلُّ المرضى إذا دخلوا المستشفيات دخلوا ظلومات الحزن والاكتئاب، ومن ثَمَّ تَتعلّق قلوبُهم الليلَ والنهارَ بلحظة الخروج والانفراج.. إلا في "سماء".. فالقلوب ههنا بمجرد ما تتمدّد على أسرّتها تُوصَل مباشرةً بحبالِ النور، فتُربَطُ مباشرة بالسماء؛ فتتلقّى لطائفُهم دواءَ الملَكوت العُلويّ، قطَراتٍ مُتواترة، تَمنحُهم الأمل وتجدد لهم الحياة، تمامًا كما تُقطّر قارورة السيروم في دمِ المريض الحيويةَ والنشاطَ. حتى إذا ذاقوا ما ذاقوا؛ تعلّقوا بهذا المستشفى وخُدَّامِه؛ فنسُوا ليس لحظة الخروج فحسب، بل دُنياهم وأعمالهم وأموالَهم، وفي كثير من الأحيان حتى أبناءهم! فدفءُ الأسرة ههنا يُحيطهم، ومحبّة الأهل ههنا تَغمرهم، متدفّقة عليهم بصدق الشعور من كلّ طبيب أو ممرضة تطرق بابَهم. خُلُقٌ رفيع متساوي البصَمات، يَرعى المريضَ من الطبيب إلى عاملةِ النظافة.

طبعًا، لم يَنشأْ هذا المستشفى من فَراغ، ولم تَنبُتْ شجرتُه الطيبة عبثًا، بل كان وليدَ خدمة ربّانية، فَنِيَ رجالُها في خدمة الخير، واحترقوا بقدح زناد النور في كلّ مكان! لم تَكن بنايتُه من أحجار وإسمنت وحديد، بل كانت من أضلاع العاشقين، وسواعد الفاتحين، ودماء الشهداء والصدّيقين..الذين وهَبوا أرواحهم لله، فبذلوا النفْسَ والنفيس، وتبرّؤوا من حظوظهم الدنيوية، واغتربوا في الفَيافي والمَنافي، ما بين بلاد القرّ

إلى بِلاد الحرّ؛ لتَرتفع راياتُ السلام هنا وهناك، مدارسَ ومستشفياتٍ تُبشّر العالَم المُظلم بأن في الدنيا بقيّةَ خيرٍ، ستُشرق على كل الأرض بعد صُبحٍ قريب!

رَجلُ الأَسرار [٤]

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ!..

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحدًا!..

فَتْحُ اللهِ يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمعُ لِمَأْتَمِهِ!

فَتْحُ اللهِ وارثُ سِرٍّ، لو وَرِثَهُ الجبل العالي؛ لانهدَّ الصخر من أعلى قمته، ولَخَرَّتْ أركانُ قواعدِه رَهَبًا!

فَتْحُ اللهِ فَارِسٌ ليس تلين عَرِيكَتُهُ، ولا تضعف شَكِيمَتُهُ! ولَصَوْتُهُ في الكَرِّ أشدُّ من فرقعة الرعد! يقاتل في النهار حتى تذوب الشمس في دماء البحر، فإذا خَلاَ لِأَشْجَانِ الليل بكَى..!

مَكِينُ الوثبة كالأسد، حادُّ الرؤية كالصقر، رهيب الصمت كالبحر، إذا سكتَ خَطَب، وإذا نطقَ الْتَهَب! وإنه لَيَشِفُّ كالزجاجِ إذا هو كَتَب!

كل الناس يعرف فتحَ الله، وكل الناس يسمع فتحَ الله، ولكن لا أحد يعرف ما يريد فتحُ الله! فلم يزل سِرُّهُ في صدره، يَقْبَعُ في الأعماق مثل اللؤلؤ المكنون!.. ومن يدري؟ فلعله فارسٌ لم يشرق بَعْدُ زمانُه! ولاَ حَانَ وقتُه وإبَّانُه! وأي بلاء أشد على المرء من أن يعيش قَبْلَ أَوَانِهِ؟ ويعاشرَ

---

[٤] من رواية "عودة الفرسان" للأستاذ فريد الأنصاري، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠م.

غيرَ أهلِ زمانه؟

ولم يزل فتح الله يرسم ملامح الماضي في لوحة المستقبل، فينفخ فيه؛ فيكون واقعًا بإذن الله! كلما كَتَبَ مقالاً أو خَطَبَ خُطبةً؛ تشكلت كلماته صورًا لقوافل الصحابة الكرام، ولجيش محمد الفاتح، يزحفون صَفًّا من خلف غبار الغيم، مَطَرًا يهطل من أُفُقِ بلاد الأناضول على كل العالَم!

فَتْحُ اللهِ لاَ يملك من هذه الدنيا سوى ملابسه القديمة، ومحفظة أحزان صغيرة تصحبه أنَّى حَلَّ وارتحل، لم يزل يحتفظ فيها بثلاثة مفاتيح عتيقة! الأول: مفتاح "الباب العالي" في إسطنبول، والثاني: مفتاح "باب الحِطَّةِ" في المسجد الأقصى، والثالث: مفتاح جامع قرطبة في أندلس الأشجان!

رجلٌ وحده يسمع أنينَ الأسوار القديمة، ونشيجَ الريح الراحل ما بين طنجة وجكارتا! وبكاءَ النورس عند شواطئَ غادرتها سفنُ الأحبة منذ زمان غابر، ولكن لم يشرق لعودتهم بَعْدُ شِرَاعٌ!.. فيبكي!

رجلٌ وحده يسمع صهيلَ الخيل القادمة من خلف السُّحُبِ، ونداءَ الغيبِ المحتجِبِ، إذ يتدفق هاتفه على شاطئ صدره، فينادي مِنْ عَلَى منبره: "ألاَ يا خيلَ الله اركبي!.. ويا سيوف البرق الْتَهِبِي!"..

ويَرَى ما ليس يُرَى.. فيبكي!

فتح الله سيرةُ بكاء! لقبه الأسري: "كُولَنْ"، ومعناه "الضحاك" باللسان التركي، وهذا من عجائب الأضداد، ومن غرائب الموافقات أيضا! فهو بَكَّاءُ الصالحين في هذا العصر، لكنه ما بكى إلا ليضحك الزمان الجديد، وليزهر الربيع في حدائق الأطفال. ما رأيت أحدا أجرى دمعا منه، ولا أكثر وَلَهًا.. وكأنما دموع التاريخ جميعا تفجرت أنهارها من بين جفنيه!..

ولقد أخطأ من ظنه يبكي ضعفًا أو خَوَرًا، وإنما هو جَبَلٌ تشققت أحجاره عن كوثر الحياة الفياض، فبكى!..

الوعظ سر من أسرار فتح الله! فلم يزل منذ طفولته يبكي بمجالسه؛ فتبكي لبكائه كل عصافير الدنيا! ولقد رأيته يبكي طفلاً وشابًا، ثم كهلاً وشيخًا! ولم يزل يبكي ويبكي.. وما جف لتدفق شلالاته نَبْعٌ! بدموع مواعظه الْحَرَّى سقى فتحُ الله كل غابات بلاد الأناضول! وبها أروى عطش الخيل، وأطعم فقراء الليل! وبوابلِ بوارقها سقى كل صحاري العالم! ولقد عجبتُ من أي جبال الدنيا تخرج منابعه؟

ورحلتُ إلى طفولته؛ فلعلي أعثر على بدء تلقيه كرامات الأسرار وكيف؟

ولقد رأيتُ يا سادتي عَجَبًا!.. كانت أسراب النحل تقتات من مَجْرَى مدامعه، فتنشئ آلاف الخلايا في كل مكان!..

فتح إسطنبول

إسطنبول هي أم المدائن، مَنْ مَلَكَهَا مَلَكَ الأرض كلها، ومن خسرها خسر الأرض كلها..!

عندما حاصرها محمد الفاتح، كان لحصاره مراحل ومكابدات، ثم جاء نصر الله والفتح.. ومن قبله جاهد الصحابة والتابعون، وقرونٌ من المسلمين لفتحها، ولكن قدَر الله له إبَّان.

عندما حل عصر الظلمات، كانت إسطنبول في حاجة إلى شهقة من نور...

البَكَّاءُ الوحيد في هذا الزمان هو محمد فتح الله كولن... لم يكن بكاؤه

عويل عجز، ولا ندب يأس، ولكنه كان لغة أخرى... لغة تقدح النور في الصخر المطل على العالم من على مشارف الجبال الشاهقة... فإذا الطيور تقذف من حناجرها بروق البشائر الكاشفة لزمن الظلام!

كان يوم السادس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٧٧... أول موعد لومضة البرق الأولى في إسطنبول.. وكان الحَمَام على موعد مع بكاء فتح الله في مسجد "يَنِي جامع"، أو "الجامع الجديد". هناك على شاطئ البوسفور، ومن خَلْفِ عشرات المآذن القديمة، والقباب المحتضنة للألم العتيق؛ هناك قذف فتح الله شهقة النور الأولى في عصر الظلمات الأخير.. فإذا بالنوارس تتلقف وميضَها لهبًا يهيج أحزان التاريخ... ويضرب البرقُ كل آفاق إسطنبول، فتفزع خفافيش الظلام في كل مكان!

تلك كانت جرعة أولى، ثم عاد فتح الله إلى حصنه الأول في إِزْمِير... لكن إسطنبول ذاقت جمال النور، فجعلت المآذن والقباب تهتز أجنحتها شوقًا إلى البُكاء الشهي، وفتح الله أب رحيم، تهزه أنات المستضعفين، فلا يملك إلا أن يستجيب لكل أذان خَرَقَ جدران القلوب: أن "يا خيل الله اركبي"!

ويركب فتح الله أهوال الليل، فيرحل إلى إسطنبول مرة أخرى... وينزل ضيفًا على باحات المساجد السلطانية، الواحد تلو الآخر، "مسجد السُّلطان أَحْمَد" العظيم، و"مسجد السَّلَيْمَانِيَّة"، ومسجد "والدة السُّلْطَان".. إلخ. ثم يجد الجماهير المؤمنة العطشى تمد أكفها مزدحمة على منبر الوعظ، وهي تنتظر تدفق صنبور النور، فتغرف من شهيق فتح الله في كل مساجد إسطنبول، حتى ما بقي نورس أو حمام لا يعرف نغمة نوحه الجميل. وأنبتت دعوة فتح الله أشجارها في كل أرجاء إسطنبول،

وتشابكت الأغصان تحتضن مدارس الخير بين عمران المدينة الأميرة، ومن ثم بدأ النور يمتد إلى كل بلاد الأناضول، حتى لم يبق مكان إلا سكنه وجْد الشوق إلى ميلاد الصباح.. وصارت المدائن والقرى تتجاوب مواجيدها، أصداءً تتبادلها الجبال والشطآن، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب.

ثم صارت إسطنبول عاصمة حقا، وفتح الأمير الجديد الباب العالي من جديد... وأبت عاصمة الروح إلا أن تحتضن كرسي القيادة للإشراف على خدمة الدين في كل البلاد. ومن ثم فمنذ سنة ١٩٩٦، رحل الأستاذ فتح الله من إزمير إلى مدينة إسطنبول بصفة نهائية، وتربع على كرسي الدرس بمقر إقامته الأثير، في الدور الخامس. ومن هنا صارت الكتائب والسرايا كلها، تنطلق نحو مغازيها من مدينة إسطنبول. وماذا غير إسطنبول من المدائن قدير على إيصال صوت الفجر إلى كل العالم؟

الفتح الأكبر.. وانكشاف السر المكنون

وأصبح فؤاد أم موسى فارغا!

فلم يكن من السهل على طلاب فتح الله في إسطنبول، ولا في كل بلاد الأناضول أن يبتلعوا خروج أستاذهم محمد فتح الله من البلاد. لقد كان الرحيل قاسيا، وكان أثره في البداية مزلزلا، لكن صرح الدعوة كان رغم ذلك أقوى من يتعرض للتصدع بله الانهيار بمثل هذا الحدث وإن كان جسيما! نعم لقد اهتزت صوامع إسطنبول وقبابها، ولكنها لم تسقط! فلقد بنى فتح الله خدمته الإيمانية على نظام المؤسسات، وجعلها قلوبا تنبض بحب الله ومعرفته، ثم ربطها بحبل السماء ورحل. صحيح أن شخصيته

كانت محورًا فكريا رئيسا للدعوة، وموردا روحيا متفجرا بالأشواق، ترتوي منه ملايين القلوب العطشى، لكنه مع ذلك كان واعيا تمام الوعي بأن الأشخاص لا بقاء لهم إلا بالله، ومن ثم ربط دعوته كلها بالله، فعاش لذة الحضور في ألم الغياب.

فمن إسطنبول إلى كل بلاد الأناضول، انطلقت أشرطة "هُوجَا أَفَنْدِي"، اللقب المفضل عند الأتراك للأستاذ محمد فتح الله كولن، وهو لقب بمعنى: "السيّد الأستاذ"، أو نحوها من العبارات. انطلقت الأشرطة تجوب الأزقة والدروب، وتومض بأسطواناتها من على رفوف المكتبات، حتى لم تكد تترك بيتا ولا متجرا إلا دخلته، وأشعلت بين أضلاعه لوعة الأشواق!

وتفجرت أصداء كل المواعظ والدروس التي ألقاها فتح الله تحت قباب المساجد السلطانية وغيرها، منذ أن بدأ خدمته الإيمانية، إلى ساعة هجرته البعيدة.. فصارت تعمر كل فضاء البلاد.

ولقد عجبتُ يا سادتي كيف أن الأصداء القديمة لكلماته الفوارة، انبعثت مواعظ حية، كأنما هي الآن تُلقى من على منبر هذا المسجد أو ذاك! ولقد رأيتُ الناس يتوافدون على بوابات الجوامع الكبرى أفواجا، وللطيور اصطفاف عجيب على شرفات المآذن والقباب.

وصار لفتح الله ألف طيف وطيف، وغدت مواعظه أرغفةً تغذي ملايين الفقراء والمستضعفين من الأتراك في العالم! وسُقِطَ في أيدي الجبناء، وارتدت خفافيش الظلام إلى جحورها مذعورة من تدفق النور.

لم تكن مجردَ مواعظ، بل كانت بما بث فيها صاحبُها من أشجان، مرايا يتجلى عليها الزمان القديم، وهو يتدفق بكل عنفوانه في الحاضر اليقظان!.. كان التاريخ يزهر حدائق خضراء في قلوب الآلاف من

المستمعين المزدحمين على مصادر الأصداء كطير داود اللاهجة بالأذكار.. كان بكاء الواعظ فتح الله يهيج شهيق الخيول الأصيلة، فيرتفع الصهيل مكبِّرًا في كل مكان!

ويَصُفُّ الأميرُ كتائبَها الواحدةَ تلو الأخرى..

ها هي ذي واقفة بين يديه، تلقي تحية السلام والإذعان، وتنتظر إشارة الانطلاق إلى أرض الله الواسعة، فهذا زمان فتوح البلدان بفتوح القلوب.. فالتاريخ الآن يصب في المستقبل المشرق بآلاف البشائر..!

ثم كبَّر فتح الله:

- الله أكبر..!

وانطلقت الجياد الأصيلة، وماء الوضوء ينتفض من أعرافها المشوقة بريح الجنة.. كانت الكتائب تنطلق مأذونة، الواحدة تلو الأخرى..

ولقد رأيتُ يا سادتي، لقد رأيت..

رأيتُ الكتائبَ من كل فارس عالي الهمة، مشرق الجبين، رأيتها تنطلق نحو كل قارات الأرض!

كتيبة خالد بن الوليد، وكتيبة علي بن أبي طالب، وكتيبة القعقاع بن عمرو التميمي، وكتيبة عمرو بن العاص، وكتيبة أبي عبيدة بن الجراح، وكتيبة سعد بن أبي وقاص.. وكتائب أخرى من جيل النور الأول، لم يكن يحجبها عني سوى كثافة الشعاع!

ثم رأيت كتيبة عقبة بن نافع، وسمعت صهيل حصانه الكريم يقصف موج المحيط! وشاهدت خيول طارق بن زياد، ورأيت سفنه ترسو على صخور الأندلس، ثم تحرق أشرعة الهزيمة والفرار.. ورأيت النصر يتقدم في الزمان الجديد، أَمْنا وسلاما على كل العالم.

ورأيت كتيبة صلاح الدين، وشاهدت فتيان فلسطين بين يديه، ينسفون رماد العجل في اليم نسفا، وينهون غطة الكابوس الذي كان.

ورأيت كتيبة محمد الفاتح، تعلن تحقق الوعد المحمّدي، وشاهدت النور يتدفق نحو جميع جهات الأرض، فلم يَبْق بَيْتُ وَبَرٍ ولا مَدَرٍ إلا دخله شعاع جميل!

ثم رأيت..

رأيت فتح الله وسط الجموع، كان يشير بإصبعه عاليا نحو منبع الأسرار..

كانت دموعه تشرق مسرورة بمطالع الزمان الجديد، وكان يحمل مفاتحه القديمة، ومحفظته الصغيرة.. ثم تَرَجَّلَ عن فرسه، وجعل يمشي الهوينى بين الصفوف، حتى اعتلى منبره، وأعلن للناس وحدة المطالع في كل الجهات..

وهنا أعلن فتح الله للعالم سره!

في مجلس من مجالس الدور الخامس المطل على كل الدنيا، سئل فتح الله:

- يا سيدي! وكيف رأيت ما رأيت؟

قال:

- عندما تصفو الدمعة من الأكدار، وتخلص الأشواق لبارئها، تنكشف الأستار عن الأنوار..

فتنجلي معالم الطريق للسائرين!

البحث عن فرس إسطنبول [٥]

إلى وارث السر الأستاذ "فتح الله كولن"

هل غادر الغديرُ نبضَ صخرهِ؟
أم هل جفاه غاضبا سناءُ برقهِ؟
فأيْنَها.. تلك التي كانت هنا،
ما بَين مائه وعطره؟
تشرب من أشعّة الندى...
وتلثم الثَّمر..!
أليس ههنا رأيتُها تسكن في معابر الشَّجر؟
وذات غفوةٍ.. تبددتْ أطيافُها خلف الرّبى..
كأنما امتطت شعاعَ الشمس ثم غربت،
فأصبحت أفئدة الأشجار فارغة!
وأرسل الغديرُ بينها أغرودةَ الحَزَنْ!
قيل لي: مرّت بها الخُيول عند بابة السُّرى
وركضت يسكنها الصهيلْ!

---

[٥] مجلة حراء، العدد: ٤ (يوليو-سبتمبر ٢٠٠٦).

وقيل لي: قد رُئِيَتْ عند المساء عاريةْ
تدخل بحر "مَرمَرَة"،
وتركتْ على الرمال حافرًا مُرَقَّمًا،
وأثرا يشبه غصن شَجَرة..

يا سيدي البوسفور!
بِرَبّكَ الذي بَرَاكَ بَين خافقَين!
تَنْقُلُ من رسائل المحبة السلامْ،
أقسمتُ أن تضمّني إليكْ!
مرجانةً من نورْ،
أو صَدْفَةً تُخرِج من لُؤلُئها
هديةً لها؛ لعلها تعرفني،
فتشرق "إستطنبول" من جديد!.
وقيل لي: قد خرجتْ من متحف قديمْ،
واخترقت -يا عجبا- كلَّ العيون،
وأنشدت على "أبي أيّوب" حزنَها،
حتى بكى الحمامُ حولَها،
واصَّدَّع السورُ القديم!
فلم يُعِزْهَا أحدٌ بعضَ الأسى..! ثم اختفتْ!
وقيل لي: قد رحلتْ.
وزعموا أن فتًى شاهدها تركض في "إِزمِيرْ"،
ثم اختفت بين الكرومْ!

وَيْحي، أنا المعذّب المجنونْ!
أكُلَّمَا التقطتُ من أخبارها خيطَ السّنَا،
خطفه الظلامْ..؟
"وَلِي كَبِدٌ مَقْرُوحَةٌ من يبيعني
بها كَبِدًا لَيْسَتْ بِذَاتِ قُروحِ؟!"
"أبَاهَا عَلَيَّ النَّاسُ لا يشترونها
ومَنْ يشتري ذا عِلَّةٍ بِصَحِيحِ؟"

يا سيدي البوسفورْ!
تلك الرياح مزّقتني بين شاطئَيك موجةً
أو حيرةً من رجفة الخريفْ...
فأخْبِرَنِّي عن سفينةٍ
قد قيلَ لي: مرت هنا تحمل غابةً صنوبريةً
فلم تزل تمخر حُزْنَ البحرْ
حتى رست على مساء "التلّة العليا"
ثم ارتقت معراجَ ريحٍ عابرٍ..
واندثرتْ!
وقيل لي: بل غادرت إلى غروب "الدَّرْدَنيلْ!"
حيث الشموسُ لا تنام أبدًا..!
وإنني أَذْكُرُ من غرامها حبَّ الشعاعْ
فلم تزل تقطف من سنائه وَرْدَ الصباحْ
حتى أضعتُ طيفَها وَاحَسرتي..!

بغفوتي!
يا سيدي البوسفور!

وذات ليلة رأيتها تصلّي فَجْرَهَا..
فقمتُ كالحصان راكضًا
حَتى أتيتُ حيَّ "فاتحٍ"
وقلت للإمام: سيّدي أنا المريدُ دُلَّني!
فقال لي: أفي الصلاة؟
يا سيدي! قلبي الذي قد كان وحدةً
مزَّقه حُبُّ البحار خفقةً فخَفقةً!
يا سيدي أنا المريضُ دلّني!
فقال لي: وَيْحك يا وجه الردى!
أأنت من يجيء من "فاسٍ" مهاجرا؟
يحمل في عينيه مَهْرَها؟
قلت: نعم؛ فأينَها؟
فقال لي: قدَرُكَ الأسفارُ تَتْرَى دونها يا ولدي..!
مآذنُ "إسطنبولَ" أيقظتْ دموعهَا...
فرحلتْ..!
وما لنا من أثَرٍ سوى الذي ترى!
وقال لي: ما من دواءٍ غيرُ دائها!

فاركبْ خيولَ الحزن إنها هناكْ
تعيش في "بَارْلاَ" وتشدو وَجْدَها
على غصون القَطرَانْ
فلم تزل بخلوة الأشجارْ
تَشْهَدُ ذَوْبَ الشمسِ في بحيرة الأسرارْ!

وقيل لي لربما تكون غادرتْ سرًّا إلى "إزميرْ"
لتقرأ الحروفَ خُفْيَةً
على سنَا الأقمارْ
في أسطر الكُرومْ
والتين والزيتون
يا سيدي الإمام دُلَّنِي!
فإنني أنا الحيرانُ بين أنجم السَّفَرْ!

وقيل لي -يا سيدي البوسفور- ربما تجيء من طريق "وَانْ"
تحمل من عبيرها ذكرى انجذاب الرُّوحْ
وتنثر الأزهار في الطريق للرياحْ
وقيل: بَلْ لِغَابَةِ "إسْبَارطا" جمالٌ يجذب الأطيارَ والأمطارْ..
فاركبْ لهاثَ القلب نحوها
فربما لَيْلاَكَ في سفوحها تحوطها الغزلانْ
مخطوفةَ الأبصارِ من جمالها..
وقيل لي: بل هي في "بُورْصَه"

تلتقط النجومَ والحجارةَ الكريمةْ
تَخُطُّ فوقَ قِمَّةِ الثلوجِ "نُون،
وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ...

يا سيدي البوسفور!
ها غيمُك الجليلُ يزدهي بِدُرِّه الجميل
فاقْرَأْ سلاَمَ البرق للشطآنِ في مدائن الأحزانْ،
وقل لهم: سنلتقي بموعد الأذانْ!
إذا تحرك الحجيجُ في مسيرة النخيلْ
يُكَبِّرُ الإمامُ أولاً،
....
ويَشْرَعُ الصهيلْ...!

بدا حاجب الأفق [٦]

فتح الله كولن

تعريب: فريد الأنصاري

أَوشك السفرُ على الانتهاء،

وبدا حاجب الأفُق،

ذاك الربيع الذي كان مخضرًّا بكل أشكاله،

أصبح اليومَ مصفرًّا..

الروح كالورقة، مهيَّأة للرحيل،

والقرار مَوكول إلى "القلم"،

لِيخُطّ النقطة الأخيرة..

فجأة.. كلُّ شيء بشتَّى ألوانه،

ارتدى بُعدًا أخرويًّا؛

ثم بدت نسائم العالَم الآخَر،

(٦) مجلة حراء، العدد:١٨ (يناير-مارس ٢٠١٠م)؛ لقد قام بتعريب هذه القصيدة الموزونة بأسلوب الشعر المرسل، الفقيد المرحوم فريد الأنصاري بعد أن قُدِّمت له مترجمةً ترجمة حرفية، وكان ذلك من آخر أعماله رحمه الله.

وانكشفت غايات الأحلام الكاذبة واحدةً واحدة..
على كاهلي الآن جبَلٌ عظيم يوشك أن يتزلزل،
وفي أملي يتلألأ الربيع...

وها كل عضوٍ مني يرتجف مثل أوراق الشجر،
كأنني الآن ميزان الألم:
في إحدى كفّتيه الخوف، وفي الأخرى مطلق الرجاء..
وموج الأكدار يضرب شاطئ السرور والأفراح،
أحيانًا في غاية السرور أنا، وأحيانًا أجهش بالبكاء،
ألطاف تنزل وابتلاءات تهطل...
وكالغيث يشوبه الثلج ينهلُّ عليَّ،
والمشاهد تترى، والستار ينفرج وينسدل...

كأن الميعاد قد حان،
وفي الأفق شفَق جديد،
ظِلُّ العالَم الآخر يلامس وِسادتي كل حين،
في ربوع قلبي شاهدتُ سابقًا ذاك الطلوع،
فصلا بعد فصل،
فوجدتُه أشدّ طرَبا من أشعّة ربيعيَ الأول...

ولكن، إذا بقيت فرصة لخدمة ديني بعد اليوم،
فصبرا على الحياة هُنَيهات،
وحُقّ لها أن تعاش فترة أخرى،
أما الآن فهمِّي الوحيد هو أن يُعرَف المولى العظيم،
ليت شعري، ربما بعد بضع خطوات،
يُعرَف أكثرَ مما كنت أحلم وأتوق...

ربي أنا [٧]

فتح الله كولن

تعريب: فريد الأنصاري

ربِّي أنا، ربِّي أنا،
ما لي مولَى سواك،
إني عشتُ وفاءَك لي في ظل ولايتكَ إلهي،
ألاَ ما أعظم فيض وفائك يا الله!..

كل الخلق عبيدٌ جاثون ببابك،
وأنت مرادهم المطلوب،
فارفع ستار البَين
حتى يرى الكلُّ جمالك!

معروف أنت، ولكن لا تُدرَك ذاتُك،

(٧) لقد قام بتعريب هذه القصيدة الموزونة بأسلوب الشعر المرسل، الفقيد المرحوم فريد الأنصاري بعد أن قُدِّمت له مترجمة ترجمة حرفية، وكان ذلك من آخر أعماله رحمه الله.

كرسيُّك قد وَسِـعَ كلَّ الأشياء..
مَن شاهدك ربي قد شاهد،
وأما من عَمِيَ فإنك تُخفي عنه جمالك!

ما أوهم من يزعم جهلا
أنْ قد عرف الله كمالَ العرفان!
وأما مَن جهلوك جحودًا
فهم حصب النيران..
معرفتك ربي في قلبي منجم،
سُبُّوحٌ أنت للعاشقين إلهي..

اسمك الجليل نور للأرواح،
وذكرك طمأنينة المجالس..
فحضرتك منتهى سير العارفين،
وأنت دواء المهمومين إلهي..

جُرمي كثير لا أحصيه،
لا حظّ لي من الطاعات، ولا زادُ عبادة،
ولربَّما اقْتَرَب موعد رحيلي،
فلولا أن تمدَّ يد العون نحوي،
....
ومن يغفر لي غيرك ربِّي..؟!

البحث عن صاحب العلامات [٨]

هناك علامات قويّةٌ جدًّا؛ إذا قرأَها إنسان له أدنى معرفة بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية، تَبيَّن له أن هذه العلامات تُخبره برسالةٍ معيَّنة.. هذه الرسالة، كنتُ أبحث عنها منذ ما يقربُ من عشرين سنة في بلدي..

هذه الظلمات التي تعمُّ العالَم الإسلامي اليوم، لا بدّ وأن يكون هنالك نورٌ يَخرقها ويُجلّيها ويبيّنها، لا بدّ.. هكذا تقول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.. لكن الحيرة التي كانت تَنْتابني هي أنّه كلما عثرتُ على بصيص نور في المغرب أو في بِلاد عربية أخرى من البلاد التي كنتُ أزورها، ومن التجارب الإسلامية التي أعرفها في مناطق أخرى من العالَم العربي، كلما وجدتُ بصيص نور وتتبَّعْتُه لا تمضي مدة قليلة حتى ينطفئ هذا النور، وتُصبح مشكلة، أي تعود الأمورُ إلى ظلماتها كما كانت من قبل.. فأتعجَّب أين هو النور الذي وعَد به اللهُ جلّ وعَلا، ووعَد به الرسول عليه الصلاة والسلام، الذي إذا أخذ بيد الإنسان في آخر الزمان، نجا من فِتَن آخر الزمان..

كلَّ مرّة حينما أصل إلى نتيجة فاشلة أرجع إلى دراسة تلك العلامات

[٨] محاضرة ألقاها الأستاذ المرحوم فريد الأنصاري في إسطنبول، أغسطس ٢٠٠٦م، وقد تم تفريغها من التسجيلات حيث حررت وأعدت للنشر. (المحرر)

التي هي في ذلك النور، فأكتشف أن ذلك النور ليس بنورٍ حقيقي، وإنما هو يُشبه النور، أي أنه منعكس عن النور الحقّ الذي أبحثُ عنه ولكن ليس هو إيّاه.. فأجد أنني كنتُ قد ضللتُ الطريق مرّة أخرى، وأن هذا من الحقّ الذي يشبه الحق، وليس بحقّ.. إذن أين هو الحق؟..

إلى أن منّ اللهُ عليّ بلقاء الأستاذ إحسان قاسم الصالحي في الدار البيضاء بالمغرب، والقصّة طويلة جدًّا، هاهنا سأختصرها في جملة، وهي أنه حدَث اتّفاق بيني وبينه على أنّني سأدرس كلّيات رسائل النور.. وكان الاتّفاق على أن أدرسها دراسة أكاديمية، من أجل أن أُبيّن المصطلحات، واللغة الخاصة التي تكلّم بها بديع الزمان النورسي، ولم تكن لي نيّة في البداية أنّني سأَخلُص إلى شيء يعالج ذلك المرض الذي في قلبي أو يَرْوي ذلك العطش الذي في روحي.. لم تَكن لي هذه النية في البداية.. أنا في البداية أدرس دراسة أكاديمية بعد اتّفاقٍ حصل بيني وبين إحسان قاسم الصالحي.. لكن الذي حدَث أنّني بمجرّد العمل وبدأتُ أتطوّر في قراءة رسائل النور، وجدتُ أنّ الذي أبحثُ عنه هو هنا في هذه الرسائل، وأن الذي وصلتُ إليه في النتيجة بدلَ أن أكون أنا أدْرُس رسائلَ النور، صارتْ رسائلُ النور هي تَدرسني..

فقد شعرتُ بعد ذلك مباشرةً أنّ بديع الزمان صار يَسكُنُني..

فبقي بعد ذلك شيء، وأنه لا بد أن أعْثُر على العلامات التي تُبيّن أن هذا النور هو الحق، فوجَب إذن الرحيل إلى إسطنبول، مَنْبع النور.. ما دام أن هذه الرسائل جاءتْ إلى المغرب من إسطنبول، تَعيَّن عليّ وفهمتُ الإشارة أنه لأصل إلى الحقيقة يجب أن أذهب إلى إسطنبول لأبْحثَ عن العلامات في الواقع وليس فقط في رسائل النور..

حملتُ إذن في يدي العلامات من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، أريد أن أطبّقها على ذلك الواقع.. لقد كان وضعي أشبه ما يكون بوضع سيّدنا عمر بن الخطاب ﷺ، وبعضِ الصحابة الذين أخذوا من رسول الله عليه الصلاة والسلام العلامات التي كانت تتعلّق بأُويس القرني الذي حدّث عنه النبي ﷺ فقال: «خير التابعين أوَيس».. فأويس هذا لم يكن قدْ رأى النبيَّ ﷺ ولا النبيُّ ﷺ رآه.. ولكن الله جلّ وعلا نبّأ رسولَ الله ﷺ أنه سيكون في التابعين شخصٌ اسمُه "أُوَيس" وله علامات، فأخبر النبيُّ الصحابةَ بعلامات أويس، وقال إنه كان بَرًّا بوالدته، وإنّه كان مريضًا بالبرَص في جسمه كلّه، فدعى الله جلّ وعَلا فبَرِئَ من البرص، وشفاه الله، إلا موضع دينار، أو موضع درهم من جسمه، بقي فيه ذلك البرَص ليُذَكِّره -أي ليُذكِّر أويسًا كلّما رآه- بنعْمة الله عزّ وجل عليه.. فقال لهم النبي ﷺ: «إذا وجدْتُم هذا الفتى فاسألوه أن يدعو اللهَ لكم، فإنّه مُجاب الدعوة»..

توفي رسول الله ﷺ سيّدنا وحبيبنا، بأبي وأمّي هو، وجاء عصرُ الخلفاء الراشدين، ولم يزل عمر بن الخطّاب أمير المؤمنين ﷺ يَبحث عن أويس. كلّما كان موسم الحج يأتي وفدُ اليمن إلى الحج، فيسأل وفدَ اليمن، "هلْ فيكم شخصٌ اسمه أُويس؟"، يقولون "لا، ليس فينا هذا الشخص".. فمرّ زمان أبي بكر الصدّيق ﷺ كله لم يجدْ عمر بن الخطّاب ﷺ أويسًا.. حتّى كانت خلافة سيّدنا عمر بن الخطّاب ﷺ، في زمانه، أي بعد وفاة أبي بكر الصدّيق ﷺ، وفي عام من السنوات التي كان فيها هو الخليفة، خرَج إلى موسم الحج في عرفات، حيث يتجمّع الناس جميعًا، فسأل عن وفد اليمن، فأخبروه بموقع وفْد اليمن، فذهَب إليهم، وقال لهم "أنتم

أهل اليمن؟"، قالوا "نعم".. قال "هل فيكم شخصٌ اسمه أُويس؟"، قالوا "نعم، هو فتى، تَركْناه مع رحالنا".. أي كان فتًى مُهْمَلاً لا يَأبَه به أحَد، "هو مع الرحال" أي مع الجمال يحرص المتاع.. ليس من أشراف القوم وليس من الشخصيات العظيمة.. فقال "اؤتوني به".. فجاؤوا بهذا الفتى.. فقال له "أنت اسْمُكَ أُويس؟"، قال "نعم".. قال "هل لك أمٌّ أنتَ بَرٌّ بها".. قال "نعم".. قال "هل كان بك برَص وشافاك الله منه إلا موضع دينار من جسمك"، قال "نعم".. قال له "لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول فيك كذا وكذا وكذا.. فأنتَ هو صاحب العلامات، إنِّي أَطْلب منك أن تدعو الله لي.. فجعل يدعو ويسأل الله جلّ وعلا لعمر بن الخطاب وللصحابة أجمعين.. فلمّا اكتشف أهل اليمن والناس أجمعون سرَّ الذي كان عند أويس القرني، الْتفُّوا حوله، فحينما التفّوا حوله، وشعَر بنفسه أنه صار مَطْلوبًا، هرَب.. وبعد ذلك كتبُ التاريخ تذكر أن خبره انقطع، ولم يَعلم أحدٌ أين ذهب، ولا أين تُوفّي.. انقطع، ذهب على وجهه في الصحراء هاربًا، خاف على نفسه على أن يفتنه الناس بهذا المعنى...

الشاهد عندي من القصة، أنّ صاحب السرّ -أيّ سر- تكون له علامات واضحة لا يجوز أن يُخطئ الرسول ﷺ هذه العلامات، وإذا كانت لدينا علامات فيجب أن نجدها مطبَّقةً على الشخص الْمَوعُود بالتجديد في الدين..

إن العلامات التي جئتُ بها وأبحث عمّن تنطبق عليه، ولم أجدها في بلدي ولا في أي بلد آخر من كثير من بلدان العرب التي زرتُها، وفيها دُعاة ومصلِحون وحركات إسلامية قوية جدًّا، لكن هذه العلامات دائمًا كانت ناقصة، فأجد بعضها ولا أجد البعض الآخر.. ولذلك قلتُ آنفًا "هذا الذي

يُشبهُ الحق"، لأن بعض العلامات موجودة وبعض العلامات الأخرى غير موجودة، إذن هذا هو ليس المطلوب.. إنما العلامات التي هي لـ"مجدِّد العصر وللفاتح الذي يفتح ظلمات هذا العصر" لا تكون علامات مادّية، بل هي علامات معنوية.. لأن الله جل وعلا ذكرها في القرآن الكريم، وذكرها النبي عليه الصلاة والسلام أيضًا وهي موجودة في السيرة النبوية..

فجانب منها يتعلّق بـ"منهج العمل" وجانب منها يتعلّق بـ"طبيعة الإنسان الذي يقوم بهذا العمل"..

العلامات المتعلّقة بـ"منهج العمَل"

النبي ﷺ وصف العلماءَ المجدّدين بأنّهم ورثة النبوّة، في حديث صحيح يقول فيه ﷺ: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء».. العلماء الذين يرثون النبوّةَ ويرِثون السرّ الذي كان عند رسول الله ﷺ ليسوا هم أي عالم. إذ قد يكون العالم بالشريعة فاجرًا أو فاسقًا، إذن فلا بد أن يكون هذا العالم قد ورِث السرّ الحقيقي.. والعلمُ الموروث هنا ليس علم الظاهر فقط، بل هو علم الظاهر وعلم الباطن.. وهذا الذي لا يَجتمع لدى أغلب الناس؛ إذا كان عنده علم الظاهر فقليلاً ما يكون عنده علم الباطن.. وإذا اهتمّ بعلْم الباطن، -هكذا نجد الناس عندنا من العلماء، يهتمّ بعلم الباطن لكن- يكون فارغًا من علم الظاهر.. فلا بد إذن أن يَجمع السرّ من وَجهين..

فحديث «العلماء ورثة الأنبياء» لبيانه ولتبيُّن العلامات الحقيقية منه نَرجع إلى القرآن الكريم.. القرآنُ وضّح هذه العلامات بقوّة وفي أكثر من موطن من السور القرآنية، من سورة البقر إلى غيرها.. في قول الله جل وعلا ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(الْجُمُعَة:٢).. أربع وظائف أساسية للنبوّة.. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾.. وهذا ذُكر في سورة البقرة -كما ذكرتُ- في دُعاء إبراهيم عليه السلام لهذه الأمّة ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(البَقَرَة:١٢٩)، هكذا في سورة البقرة..

فإذن وظائف النبوة أربع بنصّ القرآن الكريم، وفي سياقات كثيرة..

١-النبي ﷺ رجلٌ مُوحى إليه، خصائصه وظائفه أنه يتْلوا الآيات.. وهذه علامات عجيبة جدًّا سأرجع إليها بعد قليل.

٢-"يزكّي" أي يربّي تربيةً روحية، وله تأثير روحي عظيم جدًّا على كلّ مَن يقابله.. وكذلك طبعًا كان رسول الله ﷺ.

٣-ثم هو "معلِّم".. لكن كيف يعلّم؟

٤-يعلِّم الحقائق العلمية ممزوجةً بالحقائق الروحية، أي ما يُسمّى بـ"الحكمة"، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾..

فهذه إذن أمور أربعة..

١-﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾

حينما كان النبي ﷺ يتلو عليهم القرآن ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾، فقد كان يتْلوه بروحه، لم يكن يتْلوه بفَمِه فقط، بل إذا قرأ القرآن تشقَّقت الأشياءُ حوله، كان المنبر -كما هو معروف- حينما كان يخطب عليه، المنبر القديم الذي كان عبارةً عن جذع النخلة، حينما ودّعه -كما في الصحيح البخاري وغيره- واعتلى المنبر الخشب الجديد، جعل هذا المنبر يَنُوح كما ينوح الطفل الصغير، وصار له رُغاء كرُغاء الجمل الصغير، يبكي

على فِراق رسول الله ﷺ، حتّى أخذه النبي ﷺ وضمّه إليه، وجعل -كما في الحديث - يُهَدْهدُه كأنما هو طفل صغير يُسْكِتُه.. لماذا؟ يقول العلماءُ وشُرَّاح هذا الحديث: "كان هذا المنبر يُصْغي إلى الذكر، يصغي إلى القرآن حينما يَتْلُوه النبي ﷺ"..

فتلاوة الرسول للقرآن الكريم كانت بعزيمةٍ روحيةٍ عالية جدًّا، إذا تلاه على الناس كان له تأثير كتأثير المادّة وكتأثير النور على الظلام.. كذلك أخذه الصحابة الكرام ﷺ عنه؛ إن الصحابي الذي عالج لديغًا عضَّتْه أفعى، لسعته أفعى.. معروفة هذه القصة، صحابي عالج لديغًا لسعتْه أفعى برجْله، فعالجه بسورة الفاتحة.. طيب، هذه سورة الفاتحة موجودة نقرأها على أنفسنا وعلى أبنائنا، ليس يكون لها تأثير.. السرُّ إذن هو أن هذا الشخص الذي كان يقرأ سورة الفاتحة كان يقرأها بعزيمةٍ روحيةٍ تختلف عن العزيمة الروحية التي عندنا..

إن القرآن الكريم هو أشبه ما يكون بعود الثقاب، عود الثقاب قابلٌ للاشتعال.. فالصحابة كانوا يشعلون عود الثقاب، فيكون نور، ويكون تأثير.. لكن نحن نحمل عود الثقاب، نقول "نعم هذا هو القرآن، هو عود الثقاب"، لكن لا نُشْعله، والزيت الذي يُشْعله هو زيت القلوب.. فإذا خالطت القلوب والأحاسيس القرآن الكريم، وتلا الإنسانُ القرآن الكريم بالروح التي تلا بها رسول الله ﷺ والصحابةُ بعده، والتابعون، وعلماء الأمة المجدِّدون عبر التاريخ، إذا حدث هذا فسيكون للقرآن عند الذي يتْلوه تأثير خارق جدًّا..

أنا كنتُ أبحثُ إذن عن هذا الذي "يتْلو القرآن" فيكون لتلاوته تأثير على الواقع، على المادّة، على المحيط، على الإنسان.. هذا النوع فعلاً

هو الذي يُعْتَبَر "صاحب العلامة"..

حينما بدأتُ أتجوّل في إسطنبول، صادف أن دخلْتُ دُكَّانًا يبيـع أشرطة، ويبيـع سِيدِيهات.. فبدأتُ أشتري لأطفالي أناشيد، مثل هذه الأسماء التي عندكم، جميلة جدًّا.. فوقعتْ يدي على سي دي من بين هذه الأشياء، قراءات في رسائل النور لبعض الشباب.. ثم وقعت يدي على سِي دِي للأستاذ فتح الله كولن يقرأ الجوشن.. أخذتُ معي هذه الأشياء إلى بيتي في المغرب، وبدأتُ أُنْصتُ لها جميعًا.. الأناشيد وجدتُها جميلة جدًّا، أعطيتُها لأبنائي، تعلّقوا بها كثيرًا.. وطبعًا رسائل النور التي تُقْرأ، أبنائي لا يفهمون التركية، وهذه ليست بمُوسيقا ولا أناشيد، ما تعلّقوا بها.. أنا لا أفهم اللغة التركية، ولكن أستريح روحيًّا لهذه القراءة من رسائل النور.. لكن الذي حصل هو أنه بمجرّد سماعي لتلاوة الأستاذ فتح الله كولن لدعاء الجوشن في هذا السي دي، شعرتُ فعلاً بأنّ هذا الرجل "يتْلوا بقلبه، بروحه".. ووجدتُ أن هذه التلاوة تُغيّر منّي كلَّ شيء.. كانت تلاوتُه للجوشن وأذكاره تَخترقني بقوّة، شعرتُ إذن بأن هذه التلاوة تتنزّل عليّ من فَوق كما ينزل الشيء الثقيل على الجسم الضعيف الذي لا يَحْتملها ولا يَقْوى عليها، كأنّما جسْمي يتصدَّع، وكأنّما روحي تتمزّق بسبب قوّة هذه الكلمات التي يَنطِق بها هذا الرجلُ.. والسرّ عندي إنما كان في الروح التي كان يقرأ بها الأستاذ فتح الله كولن هذا الجوشن.. فأيقنتُ آنئذ بأنّ هذه هي العلامة الأولى.. هذا رجلٌ يَتْلو حقَّ التلاوة كما في كتاب الله ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾(البَقَرَة:١٢١)..

رجعتُ إلى إسطنبول مرة أخرى.. ومرّة أخرى بدأتُ أكتشف المعاني العُمْرانية الكُبْرى التي أنْجزتْها دعوة الأستاذ فتح الله كولن.. بدأتُ أجد

بأنّها دعوة استطاعتْ أن تمتدّ إلى كل القطاعات على المستوى الاقتصادي والثقافي والتعليمي، كلُّ شيء، كل شيء، هياكل مجتمع كاملة استطاعتْ هذه الدعوة أن تنْبُتَ فيها وأن تنبُت بقوّة.. بدأتُ أسأل: "هذا الرجل ماذا كان يُقدِّم للشعب التركي؟ ماذا كان يُعطي؟ ماذا عنده؟".. فكُلّ الإجابات، سواءٌ من الشباب أو الشيوخ والذين تتلْمذوا مباشرةً على الأستاذ فتح الله كولن أو حتّى الذين لم يَرَوْه ولم يتتلْمذوا عليه من الأتراك، الكُلّ كان يُجْمِع على أن الأستاذ فتح الله كولن كان يقوم بعملٍ واحد: وهو أنّه كان "يتكلّم".. هذا الذي يصنع الأستاذ فتح الله كولن.. ما كان يأخذُ الناس إلى الدين ولا يُلْزِمهم بالقوّة، ولا يُرْغِمهم، وما كان يُخْرج ما في دِماغهم من أفكار بيَده، بل كان فقط يتكلّم.. رجلٌ يَخطب في المساجد دروسًا ومواعظ.. يُعلّم الناس، فإذا بالناس يتحوّلون بصورة عجيبة غريبةٍ جدًّا.. فإذن كان رجلاً ﴿يَتْلُو﴾.. هذه هي التلاوة.. فإذن كان يُفَسِّر الآيات، يشْرح الأحاديث.. وعلماء كثيرون في البلاد العربية يَشرحون ويُفسّرون، لكن لا تأثير لهذا الشيء بهذا المستوى العالي الرفيع.. فإذن هذه علامة تحقّقتْ لديّ بالملْموس، أي بالأدلّة المادّية..

أنا أعتبر بأنّ هذه البناية التي نحن فيها الآن، والبنايات التي تُشْبهها والمدارس بصفة عامّة، هذه من أثر "التلاوة".. لأن التلاوة الحقّة ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾ يكون لها أثرٌ مادّي.. فرْق بين تلاوةٍ تمضي في الهواء؛ أنا أتكلّم وكلامي عبارة عن أصوات، فالأصوات تمضي في الهواء، هكذا، تمضي في الهواء.. لكن هنالك كلمات تتنزّل على الأرض مثل الغيث مثل المطَر، فتنبُت الأشجار، والخضرة والأزهار.. الكلماتُ الحقّة، إذا تُليتْ بحقّ، تُنْبِتُ العمران، تُنْبِتُ الإنسان..

وجدتُ بحقٍ أن تلاوة الأستاذ فتح الله كولن أنبتتْ أُمّةً، وأنبتتْ مُجتمعًا..

أنا أتحدّى، وأتحدّى كُلَّ مَن يَزْعُم أنه يقوم بالعمل الديني والإصلاحي أن يأتيَني بمثْل هذه "التلاوة" التي أنبتتْ شيئًا في الواقع..
هذه علاماتٌ فارقةٌ بين سر الرحمن وسحر الشيطان..

٢-﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾

تتبّعتُ بعد ذلك العلاماتِ الأخرى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.. وجدتُ فتح الله كولن فعلاً يقوم بالتزكية على منهج رسول الله عليه الصلاة والسلام.. يأخذ الإنسانَ فيُفْرغه من أنانيّته، ينتهي تمامًا؛ يَفْنى في الحقّ، يفنى في الدعوة.. الرسول ﷺ أخَذ الناس من الجاهلية، كلُّهم يُعجِبُه نفسه، جُهّال، جاهليةٌ مُظْلمة.. فإذا بالشخصٍ من بعدِ ما يكون مثل الوحْش في الجاهلية يَدفن بنتَه في الأرض، إذا به يُصبح عبقريًّا في الإسلام، يُصبح عِملاقًا بسبب ما يَفْنى في الجماعة المسلمة وبسبب ما يفْنى في حبّ الله وفي حبّ رسول الله ﷺ، فإذا به يَسْتجيب للأمر النبويّ أنّى كان، وكيفما كان.. الطاعة الكاملة لرسول الله ﷺ من أشخاص، كانوا جَهابِذة في الجاهلية، كانوا مثل الجبال، فصاروا في الحقّ بذلك المستوى، ولكن على طاعةٍ عظيمة جدًّا..

وجدتُ التربية التي يُقَدّمها الأستاذ فتح الله كولن هي من هذا الطراز، وهي يتيمةٌ في هذا العصر، لا مثيل لها.. وجدتُ الناس ههنا يقِفون أنفسَهم على الخدمة، مستعدّون للذهاب إلى أقصى الأرض، إلى أصعب

مواقع العالم إذا تَلَقّوا الأمرَ من هذا الأستاذ.. هذه تزكية نادرة، بل لا وُجودَ لمثلها في هذا الزمن..

٣-﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾

أما علامة التعليم كما يقول العرَب "أَوضَح من الشمس في رابعة النهار".. الرجل أولاً معلِّم.. هكذا طبيعته، وهكذا تكْوينه.. والنبي ﷺ يقول في الحديث الصحيح «إنّما بُعِثْتُ معلِّمًا».. نعم، «إنّما بُعِثْتُ معلِّمًا».. وفتح الله كولن رجلٌ معلِّمٌ منذُ بدْء حياته.. واشتغل في الدعوة بالتعليم.. المحْور الرئيس كما هو ملاحَظ وواضح جدًّا لأيِّ إنسان يطّلع على حركة الأستاذ، المحور الرئيسي في حركته وفي دعْوته إنما هو "التعليم".. كلُّ شيء عنده يخدم التعليم.. طاقة مادّية هائلة.. شركات كُبْرى تَخدُم التعليم.. فاتّخذَ التعليمَ له مِحورًا من الناحية الحركية..

هذا الأستاذ إذن كان يُترجم حديث الرسول ﷺ «إنّما بُعِثْتُ معلِّمًا»..

٤-﴿وَالْحِكْمَةَ﴾

إضافةً إلى التعليم، كان يعلّم "الحكمة".. الحكمة التي تقتضي أن تعيش في مجتمعٍ صعبٍ جدًّا، الأصل فيه أنّه لا يقبَل الدين.. في مُجْتمَعٍ فيه تضييقٌ كثيرٌ، وقد عاش -ولا يزال حفظه الله وبارك في عمُره- عاش مَنْفيًّا في بلده، ومَنْفيًّا خارج بلده.. واستطاع أن يَسْلُك بهذه الدعوة جميعًا إلى بَرِّ الأمان، وأن تنْجح.. لا يكون هذا إلا بـ"الحكمة".. فلذلك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

هذه الأماراتُ كانت قويةً جدًّا، واضحةً.. وليَ فيها تفصيل، لولا أن أُطيل عليكم لبيَّنْتُ ولفصَّلتُ، وإنّما القصد "الاختصار"..

وأَرجع بعد ذلك مباشرة إلى العلامات التي تتعلّق بشخصه حفِظه الله..

العلامات المتعلّقة بشخصية "وارث السرّ"

أما بالنسبة لشخصه -حفظه الله- فالعلامات كثيرة جدًّا.. ولكن أبرزها أمران:

علامة الوِلاية، وعلامة الزهد والتقلُّل من الدنيا..

١-علامة الولاية

أما علامة الولاية التي في الحديث النبوي الشريف: «مَنْ عادى لي وليًّا فقد آذنْتُه بالحرب.. وما تقرَّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضتُ عليه.. ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبَّه.. فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبطش بها، ورجلَه التي يَمشي بها.. ولئنْ سألَني لأُعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنّه».. يُصبح هذا الإنسان بهذا المنهج -الذي هو عبارة عن منهج روحاني عميق جدًّا- وليًّا لله جل وعلا.. بمعنى أنه لا يَضع يده على شيء إلا نَجَح فيه: «ولئن سألني لأُعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه»..

هو مَحْميّ، مَحميّ بقدْرةٍ إلهية خارقة.. الأعداءُ للأستاذ فتح الله كولن كثيرون، ولا شكّ يحاولون أن يُؤْذُوه بأيّ وسيلة؛ بوسائل قانونية، وبوسائل سرّية، وبوسائل متعدّدة.. ولكن الشيء العجيب حقيقةً هو أنه

ليس له مَن يحميه، من الناحية المادّية.. ولكن الله أنْزل عليه ثوْبَ السّتْر وثوبَ الحفْظ من عنده، بحيثُ لا يصل إليه أحد، رغم أنّه قريب من كلّ الناس.. هذه علامة عجيبة جدًّا وغريبة..

٢-علامة الزهد والتقلُّل من الدنيا

أما علامة الزهد والتقلُّل من الدنيا، فطبْعًا الكلُّ يعرف هذا، وواضحٌ جدًّا، وهي علامة نبويّة.. النبي ﷺ كما حدّثتْ سيدتُنا عائشة -رضي الله عنها أم المؤمنين- في الحديث، أنّه كان تمرّ عليه ﷺ على بيتِ آل رسول الله الشهرُ والشهران لا تشتعل النار في تنّورهم، أي في المطبخ.. لا يَطْبخون شيئًا الشهر والشهرين.. ويعيشون على الأسودين: الماء والدقَن، أي الماء ورَديء التمر.. هذا الزهد العالي الذي لا يُطيقه كلُّ الناس.. الذي كان في شخص رسول الله ﷺ إذا تمثّل في شخصٍ بعده، معناها أنّه وَرِث سرًّا من أسرار النبوّة من رسول الله ﷺ.. وهذا واضح في شخص الأستاذ فتح الله كولن..

أنا أعرف كثيرًا من الدُّعاة على مستوى العالَم العربي، صاروا أغنياء بسبب دخولهم إلى الحركة الإسلامية.. بسبب قيادتهم لجماعاتٍ إسلامية صاروا أغنياء.. فتح الله كولن يَملك كلَّ شيء، ولا يملك أيّ شيء.. لو نظرت إلى المؤسسات إلى الشركات، هو غني جدًّا، لكن ماذا يَسْتفيد هو في شخصه وهو يعيش -عندما كان هنا في أسطنبول، كان- في مكان أشبه ما يكون بسجْنٍ انْفرادي.. ماذا يستفيد في شخصه هو: لا شيء.. وهو الآن يعيش في مكانٍ أشبه ما يكون بالْمَنْفى..

فلذلك إذن هو شخصه، طبعُه متقلِّل من الدنيا، زاهدٌ، رغم أنه لو أرادها لأغْرقتْه بالأموال وبالمتاع.. شخص هكذا، لا يمكن معرفته إلا بعد تجربته.. بالكلام لا يمكن معرفة هذه الأشياء.. لأن الإنسان قد يكون فقيرًا أو ليس لديه المال، يقول "إذا أعطاني الله المالَ الكثير تصدَّقتُ وفعلتُ".. لا.. الإنسان حينما يكون لديه المال، هنالك سيُجَرَّب..

فلذلك الداعية الحقّ هو الذي يفيض عليه المال وتفيض عليه الأرزاق، ويستطيع أن يضبط نفسَه، ويستطيع أن يعيش داخل هذه الأموال وداخل هذه المؤسسات دون أن يستفيد لشخصه شيئًا، بل الكلُّ يكون لله..

الشهادة لله، أن هذا الشخص فعلاً جعل كلَّ شيء لله.. بل جعل نفسَه هو في خدمة هذا الدين، وفي خدمة هذه الدعوة..

ههنا بالنسبة لي وصلتْ العلامات إلى درجة القطْع.. ما بقي لي ولا شيء من الظنّ في أنّ هذا الرجل هو "مُجدِّد هذا العصر" وفي هذه البُقعة التاريخية العميقة من العالَم الإسلامي التي هي تُركيا بما تُطلّ عليه من موقع جغرافي استراتيجي في العالَم، تربط بين أوروبّا وبين أسيا وبين إفريقيا..

أيقنتُ من خلال هذه العلامات وغيرها -وهي كثيرة جدًّا ذكرت بعضًا منها فقط- أيقنْتُ بأنّه فعلاً ينطبق عليه حديث «العلماء ورثة الأنبياء» وأنه وارثٌ لسرّ التجديد الديني.. ثم هو وارثُ السرّ الذي كان عند الأستاذ بديع الزمان النورسي حقيقةً وفعلاً..

الأتراك ومعرفة فتح الله كولن

وبالنسبة لوضْعي النفْسي والروحي أحسستُ تمامًا كما يُحسّ ذلك

الذي كان يبحثُ عن والده من بعد ما فقَده.. حوالي عشرين سنة من البحث -كما ذكرتُ في بداية الكلام- عن والدٍ روحيّ، وجدتُ أخيرًا أنّ هذا هو الوالدُ الروحي الذي كنتُ أبحثُ عنه.. فحمدتُ الله على ذلك، وذكرتُ كم هي النعمة عظيمة من الله جلّ وعلا على هذا الشعب التركي الذي سَخَّر اللهُ له والدًا روحيًّا فعلاً "يُخْرجه من الظلمات إلى النور"..

فلْيَنْظُرْ الإنسان -خاصةً هؤلاء الأتراك فلْيَنْظروا- أيّ نعمة أنعم الله عليهم بها، أنْ جعل هذا الرجل منهم يتكلّم بلغتهم، يعيش بين أظهُرهم، يَروْا مُنْجزاتِه بأعينهم..

هذه الجبال التي في تركيا عمومًا بدءًا بإسطنبول وانتهاءً بسائر الأماكن.. هذه الجبال في تركيا العظيمة، ستُشْرقُ يومًا بإذن الله عزّ وجل بنور عظيم يُغطّي كلَّ العالَم.. لأنّ هذه الجبال تَحملُ أسرارًا قديمةً جدًّا، قلبُها ينبُض بها.. والأولياءُ حدّثوها واستمعوا إليها أيضًا.. وكلامُ بديع الزمان النورسي في رسائله كله حديث مع الأشجار، ومع الأطيار، ومع هذه الجبال، من شرق تركيا إلى إسطنبول.. هذه الجبال الآن يُخاطبها الأستاذ فتح الله كولن بكلامه، بفعله، بأحواله، وتُخاطِبُه.. كأنّي أراها الآن تتفجّر بنورٍ عظيم في مستقبلٍ قريبٍ بإذن الله عزّ وجل، يسَعُ الكُرة الأرضية كلَّها..

ولذلك إنّي أسأل كما تساءَلتُ من قبلُ: "هل فعلاً الأتراك يعرفون ما معنى "فتح الله كولن"؟

نسأل الله عزّ وجل أن يَحفظ أستاذنا الأستاذ فتح الله كولن * اللهم احفظْهُ من بين يدَيْه، ومن خلْفه * اللهم احفظْه عن يمينه وعن شماله * اللهم احفظه من فوقه ومن تحته * اللهم أَنِرْ قُلوبَنا بالنور الذي أَنَرْتَ قلبَه

به * اجْعل لنا يا نور السماوات والأرض نورًا في قلوبنا لا يَخْبو أبدًا * اللهم يا ربّنا وأدخلْنا معه في رحمتك برحمتك يا أرحم الراحمين، يا ربَّ العالمين * اللهم وتقبَّلْ منَّا أعمالَنا، واغفر لنا ذنوبَنا، واستُر عيوبنا، برحمتك يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين * اللهم يا جميلَ السِّتْر أدخلْنا في ستْرِك * اللهم يا جميل العفو أدْخلنا في عفْوِك * اللهم يا جميل الرحمة أدخلنا في رحمتك * اللهم يا جميلَ الجُود أدخلْنا في جُودك * وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على سيّدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلِّمْ تسليمًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين *

المجدد والإرث النبوي [٩]

فما كان لشخصٍ مثلي جاء من المغرب الأقصى أن يتحدّث لمثل هذا الجمهور الكريم، في درسٍ أيّ درس.. وإنما الذي أستطيعه الآن أن أتحدّث عن انطباعاتي وعواطفي، والخطرات التي وقعتْ بقلبي أثناء زيارتي هذا البلد الكريم "تركيا"، والالتقاء مع هذه المدرسة الرائدة في هذا البلد، مدرسة الأستاذ فتح الله كولن.. لذلك فإنّما المنتظَر منّي هو هذا: أن أتحدّث عن انطباعاتي وعن ما وقَع بقلبي إزاء هذه الزيارة المباركة..

إن حركة التديّن التي يقودُها الأستاذ فتح الله كولن في هذا البلد من خلال ما رأيتُ من مظاهر متعدّدة، سواءٌ على المستوى الديني أو المستوى الثقافي أو المستوى الاقتصادي والمؤسَّسي، كلُّ ذلك إنما أكّد لي نُبوءَةً لرسول الله ﷺ تحدَّث بها في حديثٍ شريف.. ولهذا فسأُحاول أن أَعْرض هذه الانطباعات من خلال أحاديث للنبي ﷺ، ومن خلال قواعد يمكن استنباطها من القرآن الكريم ومن السنّة النبوية.. قواعد شرْعيّة يَسْتعملها علماء أصول الفقه في هذا المجال لقياس الحركات ما هو على الحق وما هو على الباطل..

---

[٩] محاضرة ألقاها الأستاذ المرحوم فريد الأنصاري في إسطنبول، أغسطس ٢٠٠٦م، وقد تم تفريغها من التسجيلات حيث حررت وأعدّت للنشر. (المحرر)

تجديد الدين من خلال التحدّيات

إن حديث الرسول ﷺ الصحيح الذي فيه «إن الله يَبْعثُ لهذه الأمّة على رأس كلِّ مائة سنة مَنْ يُجَدِّدُ لها دينها».. لَنجِد له تفسيرًا، لا أقول لغويًّا أو بيانيًّا، ولكن نجد له تفسيرًا الآن، وفي هذه المرحلة بالذات من تاريخ الأمّة، تفسيرًا واقعيًّا من خلال حركةٍ دينيةٍ تسير في الأرض..

والحركات الإسلامية الدعَوية الآن في العالَم -سواء في العالَم العربي أو في غيره- كثيرةٌ جدًّا، وهي في مجموعها تُمثّل جُزْءً من هذا التفسير لهذا الحديث.. ولكنّي أَزْعُم -وسآتي بالبيّنات بإذن الله بالقواعد- أن هذا التجلّي للدعوة الإسلامية في شخص الأستاذ فتح الله كولن ومَنْ يتْبعه، أَزْعُمُ أنّ هذا التجلّي لهذه الدعوة يُعْتَبَرُ من أَوْجِ المعاني الموجودة في هذا الحديث، وسأُبيّنُ ذلك بأدلّته بحول الله..

إن بعض شرّاح الحديث يَروْن بأن قول النبي ﷺ «إن الله يبْعث لهذه الأمّة على رأس كل مائةِ سنة مَنْ يُجَدِّدُ لها دينها».. بعضُهم رأى بأن رأْس المائة سنة يقَع على رأس المائة من كلّ تاريخٍ هجري، مثلاً سنة مائة هجرية؛ هكذا يرى بعضُهم.. فإذن، مائة وواحد، واثنين، وثلاثة، يجب أن يقع التجديد.. المائة الثانية؛ أي مائتين وأربعة يرى بعضهم أنه هذا بداية التجديد، مائتين وثلاثة هجرية، وهكذا وهكذا.. هكذا تصوّروا..

لكن الأمر عند آخرين من العلماء غير ذلك، والدليل عليه -وهذا هو الذي أرجِّحهُ، أي المذهب الثاني وليس الأوّل- أنّ التجديد إنّما يقع حيثُ تكون الحاجة إليه، نعم حيثُ تكون الحاجة إليه.. هذا واحد.. لأنّ تجديد الرسالة النبوية طيلة القرون الهجرية الثلاث الأولى، أولاً لم تكن تدعو إليه حاجة، وإنما كان الدين مستنيرًا بصورة عاليةٍ جدًّا.. والدليل

على ذلك «خير القرون قرني هذا، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».. فأصحاب رسول الله ﷺ الذين عاشوا معه، والتابعون لهم، الذين جاؤوا بعد وفاة النبي ﷺ، ومَن تبِعهم (أي أتباع التابعين) كلهم عاشوا على نمطٍ واحدٍ من الدين المستوى الراقي، وإنّما احتاجت الأمّة للتجديد فعلاً مع بداية القرن الرابع الهجري.. هنالك فعلاً حدث انحراف على المستوى العقائدي، حدث انحراف على مستوى السلوك التربوي، حدث انحراف على مستوى طلَب العلوم الشرعية.. واحتاجت الأمة فعلاً آنئذ إلى التجديد..

فلذلك -إذن- كان القرن الرابع الهجري قرنَ حركة علْمية مُجَدِّدة، ظهر هنالك محدِّثون، وظهر هنالك مفسّرون، وكثير من العلماء في التربية وفي الدين وفي السلوك، الذين فعلاً حاولوا تجديد الدين لذلك القرن.. حتى جاء الإمام أبو حامد الغزالي القرن الخامس الهجري حاول أن يَرجع بالعلوم الإسلامية إلى أصلها الأول بطريقةٍ ما، أي أن يجعلها علومًا تربويةً..

لا أريد أن أُطيل في هذا السرد التاريخي وأنْتقل مباشرة إلى العصور المتأخّرة التي نعيش فيها الآن، لنتحدّث في موضوعنا.. وإنما الذي ذكرتُه عبارةٌ عن تقديم مما نحن فيه..

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالعدّ الميلادي (وهو ما يُوازي نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر بالعدّ الهجري) وقَع زلزال للأمّة الإسلامية جمعاء؛ بحيث تمزّق شمْلُها وتشتَّتتْ، وقد كانت أمّةً واحدةً متّحدة ولو كانت في وضع منحطّ من الناحية الحضارية، لكنها كانت موحَّدة، فتمزَّقت الأمة الإسلامية.. وبعد

هذا التمزُّق الذي حدث في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين، نشأتْ حركات تجديدية في العالَم الإسلامي في وقتٍ واحد..

ففي هذه المرحلة أيضًا، قلتُ الربُع الأول من القرن العشرين (وهو الرُّبُع الأول من القرن الرابع عشر الهجري) كانت مرحلة لميلاد نهضة تجديدية في الأمة.. وسأُعطي بعض الأسماء.. وتوافقت بصورة عجيبة وغريبة بحيثُ في سنة ألف وتسعمائة وثمانية وعشرين (١٩٢٨م) بالذات بدأ بديع الزمان النورسي هنا في تركيا يكْتُب رسائل النور... العجيب في هذه السنة (١٩٢٨م) بالذات أَسّس الأستاذ حسن البنّا رحمه الله "دعوة الإخوان" في مصر.. وتقريبًا في تلك المرحلة أو بُعيدها بقليل -ولا عبْرة بسنةٍ أو سنيتَين في حركة التاريخ والحضارة- تحرّك الأستاذ محمد إلياس الكنْدهلوي في الهند، في نفس الظرف.. وأيضًا بعد ذلك بقليل شرع أبو الأعلى المودودي في باكستان ببناء تصوّراته بنشْر كتبه وفكره الإسلامي الذي جدّد كثيرًا من الثقافة الإسلامية.. فإذن هذه مرحلة نشأ خلالها مجدّدون كبار وجّهوا تاريخ الأمّة، ولا تزال الأمّة الإسلامية إلى الآن تَقْتات على فكرهم وعلى مَنْتُوجهم..

إن حركة التجديد تلك التي تحدّثتُ عنها كانت تَقع في الظروف التي كانت الأمّة قد وقعت تحت الاستعمار، ولا تزال تَقَع.. كانت وقعت تحت الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي جُملةً، ومازال الاستعمار آنئذ يَزيد ويَكتسح في كثير من دول العالم الإسلامي.. الآن في هذا الظرف التاريخي الذي نعيشه بالعدّ الهجري في الرّبُع الأول من القرن الخامس عشر الهجري، وبالعدّ الميلادي في بداية القرن الواحد والعشرين.. قد

مضى على المرحلة التي انطلق فيها أولئك المجدِّدون الذين ذكرناهم قبل قليل مائة سنة.. مضت مائة سنة إذن على الانهيار.. والحركة التي ينْبغي أن تُجدِّد الآن يجب أن تكون في هذا الظرف مولودةً لتُعطي ثمارَها الكُبْرى في السنوات المقْبلة القريبة بإذن الله تعالى.

هذا التفسير لهذا الحديث بهذا النمط من العدّ التاريخي الآن قائم أساسًا على أنّ الظروف التي وَلَّدتْ التجْديد في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إن هذه الظروف تغيّرتْ.. عندنا الآن ظروف عالَمية أخرى؛ عندنا ما يُسَمَّى بـ"العَولمة" في صورتها الثقافية والإعلامية والاقتصادية.. بهذا الوجه الكالح المكْتَسِح لكلّ العالَم الآن، ما ينْبغي أبدًا أن يكون المنهج القديم الذي نشأ تحت تأثير تلك الظلمات القديمة هو نفسه المنهج الذي يقوم بتجديد الدين في هذه المرحلة.. لأنّ التحدّيات اختلفت؛ الاستعمار القديم كان يحْتلّ الأوطان دون أن يحتلّ الإنسان، بينما الاستعمار الجديد يحتلّ الإنسان قبل أن يحتلّ الأوطان..

إذن بالعدّ الذي ذكرتُ، المفروض أنّ حركة التجديد هذه الجديدة يُمكن أن تعطي ثمارَها في ظرف العشرين سنة المقبلة، أو ما يُقارب ذلك.. لا يُمكن أن يكون لحركةٍ تُعطي ثمارَها في ظرف عشرين سنة مقْبلة، الآن فقط تُولَد؛ هذا لا يكون في ميزان التاريخ، وحركة الحضارة.. لا.. بل ينبغي أن تكون هذه الحركة الآن ناضِجة تُنْتِج..

فلذلك أنا أزعم أن أبرَزَ دعوةٍ وأَقْربَ حركةٍ لمعنى الحديث أولاً، ثم للحاجة المطلوبة الآن حضاريًّا ثانيًا، هو هذا الاتّجاه الذي يمثّله الأستاذ فتح الله كولن.. لماذا؟ لأنّ الاستعمار سابقًا احتلّ الأوطان قبل أن يحتلّ الإنسان؛ فكانت الحركية التجديدية القديمة غالبًا ما تتجه إلى تحرير

الأوطان.. بينما هذا الاستعمار الجديد الذي استعمر الإنسان، استعمر فكرَه، استعمر أحلامَه، استعمر عقلَه ودماغَه؛ ينبغي أن تكون هذه الحركية قائمةً أساسًا على تحرير الإنسان.. وما وجدتُ شخصًا أو دعوةً قامَ فكرُها فعلاً على تحرير الإنسان كما وجدتُ كتُبَ الأستاذ فتح الله كولن فعلاً.

انتشار رسالة الإسلام على جميع المعمورة

الأحاديث النبوية الشريفة التي تُشير إلى أنّ الإسلام في آخر الزمان سيدْخُل كلَّ المعمورة، سيُصبح ظاهرًا (أي غالبًا ومؤثِّرًا وله الريادة من الناحية المعنوية) كثيرة جدًّا، من بينها حديث النبي ﷺ «إن الدين بين يدي الساعة لنْ يَبْقى بيتُ مدَرٍ ولا وبَرٍ إلا دخلَه».. أي أنه سيُسيطر في المدن والبوادي، هذا معنى "المدَر" و"الوبَر"، حتّى يكون غالبًا وظاهرًا في كلّ مكان..

هذا الحديث النبوي لا يمكن أن يتحقّق إلا في مثل هذه الظروف التاريخية التي نعيشها، حيثُ جعَلت العَولمة -كما يعْلَم الجميع- العالَم كلَّه عبارةً -كما يُعبِّرون اليوم في الإعلام والسياسة عبارة- عن قرية صغيرة.. ما يحْدث في أي نُقطة من الكون، يصل خبرُه -لا أقول بعد قليل ولكن- في اللحظة التي يَحْدُثُ فيها.. فلذلك إذن ما أسرَع وصول الفكر الآن إلى أيّ مكان في العالَم، وما أسرع قابلية الإنسان الآن للتواصل.! فإذن الظروف كلُّها مهيَّئة.. هذه العولمة التي أُنْشِئتْ لأغراض، في كثير من الأحيان يُسْتَهدَف بها الإسلام بالنقض وبالتدمير واستضعاف الشعوب الفقيرة، لعلّ الله جلّ وعلا أن يَجْعلها وسيلةً لتحقيق نبوءَة رسوله ﷺ في هذا المعني الذي نَذكر.

إذن لا بدّ من مُؤهِّلاَتٍ أخرى وهي "مؤهلات الإنسان" الذي سيقوم بهذه المهمّة.. الإنسان الذي سيقوم بهذه المهمّة لا بدّ أن يكون إنسانًا له قُدرة عالية على التواصل، وأن يكون في موقعٍ جُغْرافي كما يُسمّونه جيو-سياسي، أي له تأثير وله ارتباطات بالمحيط جميعًا وبكثيرٍ من القارّات..

وما أحسب هذا الموقع إلا للبلاد التركية عمومًا كما كان في السابق -ولا يزال الآن- بما هي مطلّة على أوروبّا، وبما تجمعه تحتها كثيرًا من القارّات: آسيا وأوربا وإفريقيا.. ولها موقع مؤثّر جدًّا من الناحية الجغرافية.. الإنسان الذي يسكُن هنا لعلّه يكون أليق بهذه المهمّة..

وراثة سرّ النبوّة

بقيت لنا علامةٌ واحدة.. حديث رسول الله ﷺ «العلماء ورثة الأنبياء».. هذا الحديث قد حكم على العالِم الْمُجدِّد بأن يكون له "سرّ الإرث".. سر الإرث هذا قد جعل الوظيفة التجديدية عالِية جدًّا.. بحيث لا يستطيعها كلّ مَن يدّعيها.. ومن يدّعي ذلك الآن في العالَم، كثير.. لكن لا بدّ من بُرهان عمليّ ليكون الإنسان صاحب سرّ إرث النبوة فعلاً. هذا الإرث -الذي هو إرث العلم النبويّ- ليس علمًا بالمعنى المعلوماتي بالكلمة، لأن المعلومات توجد عند كثير من الناس حتّى الفُجّار.. وقد تجد العالِم يُفتي في الفقه وفي الحديث، لكن لا يصلح لشيء من حيثُ الدين، فإذن هذا ليس بوارث.. وإنما العلْم الحقّ الذي يُعتبَر "إرثًا" ويُعتبَر "سرًّا وعلامةً" هو الإرث الذي يُعطي صاحبه خصائص النبوّة، لا أقول من حيثُ الوحي، ولكن من حيث الأخلاق.. هذه الخصائص أعلاها "الزهد في الدنيا" بصورةٍ لا تكاد تُجارى، أي لا تستطيع أن تُنافس هذا النور من

الزهد في مثل هذا الشخص.. ولذلك قلتُ قلّما يُوجَد مثل هذا الإنسان، وقلَّما يجُود به الزمان على هذا المستوى العالي جدًّا..

حينما نطبّق هذه المعاني النبوية على الواقع الدعَوي في العالَم وننزِّلها -بلا مُجاملة- نجد الأستاذ فتح الله كولن -حفظه الله- في المقدِّمة، ومن السابقين بآلاف الكيلومترات والأمْيال.. نظرًا لأنّه -كما تواترت الأخبار عنه، وكما تعلمون جميعًا- شخصٌ عاش غريبًا في وطنه، وعاش غريبًا خارج وطنه.. لا يملك من الناحية المادّية شيئًا، ويملك كلَّ شيء.. هذا النوع فعلاً خاصّية من خصائص الإرث النبوي.. كذلك كان رسول الله ﷺ وإنما هو ﷺ قُدْوةٌ في ذلك لغيره، ولِمَن تبعه بإحسان في هذا المعنى إلى يوم الدين.. رسول الله ﷺ كانت له خزائن الدنيا كلّها بين يديه؛ أموال الزكَوات، والغنائم، كل شيء، كل شيء.. لكن في شخصه كان فقيرًا عليه الصلاة والسلام.. كما حدَّثت عائشةُ في الحديث الصحيح «أن النار لم تكن تشتعل في مَوقد رسول الله ﷺ الشهر والشهرَين، ويعيش آلُ بيت رسول الله على الأسودين: الماء والدقل»، والدقل هو رديء التمر..

هذا المعنى —إذن- الذي وجدناه في حياة رسول الله ﷺ وجعله مقياسًا فعلاً لمن أراد أن يرث السرّ، من الصعب جدًّا أن يتمثّله الإنسان في مثل هذا الزمان، زمان الوفْرة، الوفرة في كل شيء.. زمان الغنى والرخاء في كل شيء.. صعبٌ جدًّا أن يتمثّله الإنسان وأن يتحقّقه.. ونحن نعلم أن كثيرًا من أرباب الأحزاب والحركات والدُّعاة، يعيشون عيش الملوك وعيش الرؤساء في حياتهم الخاصة.. بينما وجدنا الأستاذ فتح الله بما تواتر عنه من أخبار، يعيش على المنْهاج النبوي فعلاً، قلتُ عاش غريبًا في وطنه، ولا يزال يعيش الآن غريبًا خارج وطنه.. هذا معنى عظيم، هذا سر،

هذه علامة بحيثُ أنه لو أراد المال لأغدقت عليه الدنيا، وأنتم تعلمون هذا.. لكنه مع ذلك يتقلّل ويعيش فعلاً كما في حديث الرسول ﷺ الذي قال فيه «ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»..

إنّي على يقين بأن هذا الرجل بفكره وبسمْته وبالعلامات التي ذكرتُ في حقّه ليُعتبَر من السابقين في حركة التجديد في هذا العصر، وأحسب أن كثيرًا من المجدّدين في مواقع أخرى وكثيرًا من المصلحين في بلاد أخرى من العالم العربي وغيره سيرجعون إلى فكره سواء آجلاً أو عاجلاً.. لأنه هو الفكر السالِك فعلاً إلى الله جلّ وعَلا.. والذي به يقوم تجديد هذه الأمّة ولأنّه الأكثر استجابةً إلى المقاييس القرآنية والمقاييس النبوية..

التلاوة والتزكية والتعليم

إن الأستاذ فتح الله كولن اشتغل بالقرآن الكريم.. واشتغل بالتعليم لحقائق القرآن وللحكْمة.. واشتغل كذلك بالتزكية والتربية.. هذه الأمور الأربعة، ما أعلم شخصيًّا أنّها اجتمعتْ كاملةً في شخص في هذا الزمان.. كانت في شخص بديع الزمان سعيد النورسي في القرن السابق، في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.. الآن تتجلّى بشكلٍ واضح في هذا الشخص المجدِّد.. لأن هذه الأمور الأربعة علاماتٌ كُبرى وهي خصائص دعوة رسول الله ﷺ في القرآن الكريم. في غير ما سياق، وفي غير ما آية، يقول الحق جلّ وعَلا: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ تلاوة الآيات والاهتمام بالقرآن الكريم.. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ التربية والتزكية السلوكية.. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ

كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(الْجُمُعَة:٢). هذه الأربعة هي وظائف النبوّة: "تلاوة القرآن" و"التزكية" أي التربية الروحية، و"التعليم" لحقائق الإسلام ولـ"الحكمة"..

قبل سنة كنتُ أقرأ كتاب "الموازين" للأستاذ فتح الله كولن.. حينما بدأتُ أقرأ في الصفحات الأولى قلتُ "والله هذه حكَم منْثورة"، وقلّما تجد الحكَم تخرج من أفواه الرجال في هذا الزمان.. نعم "الحقائق العلْمية" موجودة عند الناس بكثير، لكن "الحكَم" نادرةٌ جدًّا.. والآن بين يديّ كتاب "ونحن نقيم صرح الروح" كلّه حكَم في القمّة، وفي غاية الحكْمة.. من السهل أن تنال المعلومات، تقرأ في كتب التفسير والحديث وحدك وبغير شيخ تحفظ الكثير من أحكام الإسلام؛ لكنّ الحكْمة لا يُؤتاها إلا الرجُل الذي صَفَا قلبُه، واستقامتْ سريرتُه، وأخلصتْ روحُه، وخلُصتْ لله الواحد القهّار.. واللهُ جلّ وعَلا يقول ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(البَقَرَة:٢٦٩).

وارثوا الأرض

آثار المجدّدين لا تكون في سنة أو في سنتين، لأن حركة التجديد هي حركة حضارية.. وحركة الحضارة تقَع في جيل، لا بدّ من جيل.. ولذلك فإن أعظم نتيجةٍ حقّقها الأستاذ فتح الله كولن هو "أنتم".. أنتم الذين ستحملون هذه الرسالة.. أنتم أمَل الأمّة.. أنتم نتيجةُ التجديد.. وهذا الجمْع في مثل هذا البلد (تركيا) بظروفه التاريخية المعروفة أمرٌ غير عاديٍّ تمامًا.. إنه يعبّر عن حقيقةٍ ربّانيةٍ وهي أن الله جَلّ وعَلا يحقّق الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ال

صَّالِحُونَ﴾(الأَنْبِيَاء:١٠٥).

ولذلك يجب أن نحمد الله جميعًا ويجب أن تحمدوا الله أنتم أيضًا نظرًا لأنّكم وُلدتم وقَدّر الله أن تكونوا في هذا الموقع الجغْرافي بالذات.. وجئتم في هذه المرحلة التاريخية بالذات؛ كان يمكن أن نكون قبلها في مرحلة الانحدار.. ولكن الله قدّر أن نأتي في مرحلة الصعود، وهي مرحلة صعبة، تمامًا كمرحلة الولادة، والأجْرُ فيها عظيم.. ههنا وفي مثل هذه الظروف يتحقّق قول النبي ﷺ عن «القابض على دينه أنه كالقابض على الجمْر، وأن الأجر فيه يكون مضاعفًا على خمْسين، وإن الشهيد منهم كأجر خمسين شهيدًا منكم، قالوا "أمنًّا أم منهم يا رسول الله"، قال "بل منكم"».. أي أن أجر بركة الصحابة عالية لا تُنال، ولكن الله جعل الأجر لمن يعيش في مثل هذه الظروف التجديدية المنْتجة حيث التيّار يكون معاكسًا، وأنت تُجدِّد في داخل الظلمات بأمَل عظيم، جعل الله لك أجرًا مضاعَفًا على خمسين مما رتبه الله جلّ وعَلا لأصحاب رسول الله ﷺ. فلذلك إذن هذه نعمة -ولا شكّ في ذلك- كُبْرى، لكنها مسؤولية كبرى أيضًا.. نسأل الله أن يُوفّقنا جميعًا لحمْلها..

أقول قول هذا وأستغفر الله لي ولكم..

جمع شمل الأمّة

سؤال: هناك شبْه انفصال وقطيعة بين العالم العربي والعالَم التركي.. هل يمكن لهذه الدعوة المباركة أن تكون جسْرًا لإزالة هذه القطيعة وتأسيس مؤاخاة بين هذين العالَمين؟

هذه القطيعة التي كانت بين العالم العربي والعالم التركي بفضل الله

أولاً، ثم بفضل التكنولوجيا الغربية انتهت.. لأنّ هذه العولمة الجديدة من فضائلها وبركاتها أن جمعت الأمّة الإسلامية مرّة أخرى.

لقد كنّا ندرس في كتب التاريخ في المدارس ونحن صغار، وأيضًا في مقرَّر الباكَلُوريا ببلاد المغرب، كنّا ندرس حول الاستعمار، هكذا "الاستعمار التركي للعالَم العربي".. ولكن بعد ذلك اكتشفنا أن هذا الأمر كلُّه كذِب، وإنما الأمر عبارة عن خلافةٍ إسلامية كانت رائدة في العالَم الإسلامي.. وهي التي حمَتْ بَيضة الإسلام أكثر من خسمة قرون.. وأنّها فعلاً مثّلتْ الوحْدةَ الإسلامة كأعلى ما يكون التمثيل مدّةً طويلة.. حمَلتْ راية الإسلام بعد سقوط الأندلس أزمنةً عديدة جدًّا.. الاستعمار بفكره وبغَزْوه وبعسكره استطاع أن يمزّق العالَم الإسلامي كما هو معروف بالتمْزيق الذي لا يزال إلى الآن.. واستطاع أن يَبثّ الفكر القومي العنْصري بين كثيرٍ من الشعوب ممّا أدّى إلى زيادةٍ في التمزيق.. لكن -والحمد لله- في إطار هذه اللّطَمات (يُسمّيها بديع الزمان سعيد النورسي "لطَمات الرحمة"، صفَعات تتلقّاها الأمّة اليوم يومًا بعد يوم)، تأكّد للجميع أننا نُضْرَب ليس لأنّنا أتراك، ولا لأنّنا عرب، ولا لأنّنا بُوسْنة، ولا لأنّنا شِيشان، ولا لأننا فلسطينيين، وإنما نُضْرَب لأنّنا مسلمون..

هذا الجامع بيننا جميعًا؛ الكلُّ يُضْرَب، ونُضْرَب لأنّنا مسلمون.. فلهذا إذن حدَث وعْيٌ كبير وعميق جدًّا بين كل شباب العالَم الإسلامي أن الأمر مرجعه الإسلام، وانتهتْ هذه الخرافة.. هذه القطيعة بين العالَم العربي وغير العربي انتهت الآن، لا تزال شكليًّا على المستوى السياسي ومستوى الحدود، لكن وجْدانيًّا -وهذا الأهمّ- وجدانيًّا انتهتْ، وإلى الأبد بإذن الله ﷻ.. ولا شك دعوةُ الإسلام -سواء التي يقودها الأستاذ فتح الله كولن

أو غيره- هذه الدعوة الآن تقوم بتجميع هذه الأوصال، وبربط الصِّلات، وخاصة أن الوسائل الآن -الإلكترونية، والإيميلات، والإنترنيت، كل وسائل الاتصال الآن- وصَلتْ أطراف العالَم الإسلامي، وبها إن شاء الله جلّ وعلا سيكون الفتح مرةً أخرى..

بشرى المستقبل

سؤال: الأستاذ بديع الزمان قال: "الدولة العثمانية حامل بأوربا وستلد يومًا ما".. كيف نحلّل أوروبّا الحالية في ظل هذا القول؟

أوروبّا وأمريكا -كما يحدّثنا الذين كانوا هناك، وكما هو أيضًا واضح من الإعلام، ومن الواجهة السياسية لأوروبّا، ونسمّيه بصفة عامّة "الغرب"- له وجهان: وجهة سياسي، ووجه شعبي..

فالوجه السياسي ضدّ الإسلام، وهذا واضح جدًّا.. لأنه استطاعت التيّارات المتطرّفة أن تحتويَه وأن تَغزوه.. فإذن هي تسيّره..

لكن الشعوب الغربية، شعوب في حقيقة الأمر تعيش خواءً روحيًا، وليس لها بديل غيرُ الإسلام بحول الله جلّ وعلا.. ولهذا نجد كثيرًا من المفكّرين وكثيرًا من الفلاسفة عندهم يُسْلمون، أسماء مشهورة تسلم في فرنسا وفي غير فرنسا.. وقد الْتقَينا ببعضهم. وأنا ذكرتُ قبل قليل أن التحوّلات الحضارية تتمّ عبرَ جيل.. المنْتظَر إذن أن يقَع تحوّلٌ ما، لكن في المستقبل القريب.. أنا تحدّثتُ عن حوالي عشرين سنة أو بضع وعشرين سنة.. وهذا الكلام لا أقوله وحدي، كثيرٌ من الناس وكثير من الدُّعاة قالوه في الشرق وفي الغرب.. بناءً على الأحاديث النبوية وبناءً أيضًا على ما يُسمّى بـ"علم الْمُسْتَقبليّات".. توقُّعات الآن بناءً على إحصائيّات واقعة،

وبناءً أيضًا على ظروفٍ تعيشها الأمّةُ الآن، سيُولّد كلُّ هذا المخاض، ظروفًا أخرى مختلفةً تمامًا..

طبعًا ذلك مرتبط أيضًا بحياتنا الدينية نحن.. وحياتُنا الدينية -والحمد لله- رغم مظاهر التفسّخ الخلُقي التي تَجري في العالَم الإسلامي كلِّه -سواء في بلاد العجَم وفي بلاد العرَب- هذا التفسّخ الخلُقي هو مَوْجَة لا جِذْرَ لها ولا أصل لها، وإنما الحقيقة هو هذا الرجوعُ إلى الدين بين صفوف الشباب الواعين، يملأ المساجد، يجد نفسَه في الصفوف الأولى في المسجد من صلاة الفجر.. هذا الأمر -أيها الإخوة الكرام- ظاهرةٌ ربَّانية لا يُمكن أبدًا أن يقال إنه جُهْدُ البشَر.. هذا مستحيل أن يصنعه بشَر.. وإنما إذا صار لبشَرٍ ما أثر في هذا الأمر فمعناها أنّه رجلٌ ملهَم، أن الله أَلْهمَه شيئًا، لأنّ هذه حركة قويّةٌ جدًّا تقع في كل مكان.. ونحن نعلم أن كثيرًا من المعاهد الإسلامية والجيل السابق حدّثنا عن هذا، ومنهم آباؤُنا، كثير من المعاهد الإسلامية كانوا يدرسون العلومَ الشرعية، لكن لمْ يكونوا يصلّون.. كان شيئًا غريبًا جدًّا؛ يقرأون الدين، يقرأون أحكامَ الشريعة، سيفْتون، لكن لا دينَ لهم.. الآن نجد المتديّنين الأطبّاء من الفزيائيّين، من اختصاصات دقيقة جدًّا في مجال الفلَك وفي غير ذلك.. هذا الأمر -كما ذكرتُ قبل قليل- ليس عاديًّا، هذا نباتٌ يُنْبتُه الله جلّ وعلا.. ولذلك فعلاً الغربُ سيلِدُ الإسلام في المستقبل بإذن الله عزّ وجل، ولكن أيضًا في الوقت الذي سيُولَد الإسلام عندنا..

نحن تلك النبوءة أو الفكرة التي قالها بديعُ الزمان النورسي بـ"أنّ تركيا حُبْلَى بأوروبّا"، ولدتْ منذُ زمان، وهذا انتهى.. الآن نعيش أوروبّا بشكلها ليس في تركيا فقط، ولكن في العالَم العربي أيضًا، وستموت..

هذه التي وُلدتْ ستنتهي، لأن الجيل الجديد سينسخها، تلك مرحلتان.. وبديع الزمان النورسي في كتُبه يقول: "يا إخوتي، يا مَن يسمعون كلامي بعد خمسين سنة".. لأنّه كان يعرف بأنّ تركيا ستلد أوروبا قريبًا -وقد ولدتها- ولكن ستعيش حوالَي خمسين سنة وتنتهي.. لا أتحدّث من الناحية السياسية، بل أتحدّث من الناحية الحضارية.. أي أن الجيل الذي يأتي بعدُ (أي حوالَي بعد خمسين سنة) سيكون جيلاً متديّنًا.. أحسِبُ أن هذا الجيل بدأ الآن وأنّكم أنتم طلائعه بإذن الله..

فقه السيرة و"النور الخالد"

سؤال آخر: كيف تحلّلون كتاب "النور الخالد" من ناحية فقه السيرة؟

كتاب "النور الخالد" للأستاذ فتح الله كولن حفظه الله كتابٌ في "منهج فقه السيرة"، وليس فقط في "فقه السيرة"، فرقٌ بينهم.. فقه السيرة كُتب، كتبها الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، محمد الغزالي، وغيرُهما كتَب في فقه السيرة.. كتابات قليلة.. لكن "مَنهج" أي كيف يُمكن أن نَرسم منهج حياة رسول الله ﷺ، وهذه الدعوة ذُكرت عند بعض العلماء.. لكن الذي نفّذها فعليًا هو الأستاذ فتح الله من خلال كتاب "النور الخالد"..

ما المقصود بهذا "المنهج"؟ المقصود به أنّ الذين كتَبوا في السيرة وفي فقهها، كتبوا السيرةَ العَسْكريّة للرسول ﷺ، فقط.. إذا قرأت كتاب "السيرة" لابن هشام، أو لغيره، وأيضًا الذين كتبوا في فقه السيرة كالبوطي مثلاً، كتابٌ جيّد، لكن يتحدّث عن جانبٍ واحدٍ من شخصيّة رسول الله ﷺ، وهو الجانب العسكري.. تَتَبَّع الدّعوى باعتبارها حركةً عسكريّةً؛ تاريخ الغزوات، تاريخ الأمن والسلم، الحرب والصلح.. كلُّ هذا تاريخ

عسكري.. لكن أين رسول الله ﷺ باعتباره أبًا، باعتباره زوجًا، أين هو ﷺ في حالة خلَواته؟ في بَيْعه وشِرائه، في حالة يُسْره وعُسْره؟ في أحواله النفسيّة إذا غضب، إذا رَضِي؟ سيرةُ الإنسان في رسول الله ﷺ ما كتبَها أحدٌ من قبلُ.. وتُعتبر كتابة "النور الخالد" أوّلَ مُحاولة من هذا الطراز.

مسك الختام

سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك؛ عمِلْنا سوءً وظلَمنا أنفسَنا، فاغفر لنا، فإنّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت * اللهم ربّنا أعطِ أنفسَنا تقواها، وزكّها أنتَ خير من زكّاها، أنتَ وليّها ومولاها * اللهم أعنّا على ذكرك وشكْرك وحسن عبادتك، واجعلنا من التوّابين واجعلنا من المتطهّرين * اللهم احفظنا في ديننا، واحفظنا في أبداننا، واحفظنا في أهلينا بما تحفظ به عبادَك وأولياءك * اللهم يا ربّنا نسألك باسمك الأعظم الذي إذا سُئلْتَ به أجبتَ، وإذا سئلْتَ به أعطيتَ، نسألك يا مولانا أن تجعل القرآن الكريم ربيعَ قلوبنا، وجَلاءَ غمّنا وهمّنا، برحمتك يا أرحم الراحمين، يا ربّ العالَمين * اللهم طهّرْ قلوبَنا، واغفر ذنوبنا، وحصّنْ فروجنا * اللهم وأعنّا على غضّ أبصارنا، وثبّتنا اللهم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، اللهم ثبّتْنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، اللهم ثبّتْنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة * يا مُقَلِّب القلوب ثبّتْ قلوبَنا على دينك * اللهم إنّا نعوذ بك من الفتَن ما ظهر منْها وما بطَن * اللهم إنا نعوذ بك من الفتن ظاهرةً وباطنة، ونعوذ بك من الفتن مُقْبِلة ومُدْبرةً * اللهم يا حفيظ، يا سلام، سلِّمْنا وأمِّنَّا بأمْنك وسلامك *

جولة في عالم الأستاذ فتح الله كولن [١٠]

سؤال: ما هي المعاني التي قرأتها في وجوه التجار المحسنين والشباب العاملين من أبناء دعوة الأستاذ فتح الله كولن أثناء التقائك بهم؟

ليس فقط الشباب وطلاب الجامعة من هؤلاء الرجال، ليس هذا فقط، ولكن مشاهدات كلّ التجلّيات.. نعم إنّني أسمّيها "التجلّيات"، التجلّيات النورانية التي تجلّت في دعوة معماريّة.. و"المعمار" هاهنا ليس فقط البناء، ولكن المعمار هو الإنسان الذي يسكن هذا البناء، والذي يصنع هذا البناء، أي "الروح".. "المعمار" روح، و"العمران" روح.. هذا الروح العمراني المتميّز الذي نهض الآن في تركيا وله تجلّيات عديدة على الإنسان من كل الأصناف ومن كل المؤسسات على المستوى الثقافي والمستوى الاقتصادي..الخ. في حقيقة الأمر هي تجلّيات شُمولية، لا يمْكن أبدًا أن أحْصُرها في الجانب الطلاّبي، أو جانب الأصناف من التجّار، نظرًا لأن التأثّر الذي حصل في وجداني وفي قلبي وخاطري، كان من هذه الجهات جميعًا..

في مثل هذه اللقاءات توصّلنا إلى نتيجة واحدة: أن هذا الأمر هو أثر

---

[١٠] جرت هذه المحادثة الودية بين الأستاذ المرحوم فريد الأنصاري والأستاذ نوزاد صواش في أغسطس ٢٠٠٦م في إسطنبول. نتقاسمها مع القراء الأفاضل.

ربّاني إلهي سام عالٍ.. يستحيل أن يكون في مقدور البشر وفي طاقته.. فمعنى ذلك أننا إذا شاهدنا شخصًا صنع كلَّ هذه الكرامات مثل الأستاذ فتح الله كولن، فلا ينبغي أبدًا أن نقول إن هذا الشخص بذكائه وبعبقريته صَنع هذا، لا يمكن أبدًا.. أنا شخصيًّا لحدّ الساعة لا يمكن أن يدْخل في دماغي هذا المعنى.. ولكن الذي وقر في قلبي أنه شخص مُؤيَّد، هنالك تأييد إلهي، هنالك تسديد ربّاني، هنالك اتّصال غيبي عند هذا الشخص بالملإِ الأعلى، فيستمدّ قوةً خارقةً، ويستمدُّ مددًا وسنَدًا إلهيًّا لسرٍّ هو فيه، ولذلك أَنتج ما أنتج من هذا العمران.

سر وراثة النوة

لقد وصفت الأستاذ فتح الله كولن بـ"وارث السر".. فما هذا السر؟

إذا أردتَ أنْ تسمّي هذا من حيث الاصطلاح، تقول "وراثة النبوّة".. لكن الاصطلاح يدلّ على معنى هو الذي ينبغي شرحه. لقد جاء في الحديث أن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، ولكنّهم ورَّثوا العلم. هذه "الإرث" ليس بالمعنى الجافّ للكلمة.. فكثيرٌ منَّا انصرف إلى العلم، ليكون وارثًا للنبي، وقالوا هو "العلم الشرعي"، فتعلّموا الفقهَ والأصول، وكذا وكذا، لكن ما أنتجوا شيئًا..

إذا دقّقنا النظر في حقيقة الأمر، ما "العلم" المقصود إذنْ في الحديث النبوي الشريف؟ "العلم" هو العلم الذي كان عند رسول الله ﷺ.. والعلم الذي كان عند رسول الله ﷺ كان علمًا مخصوصًا. أقصِدُ بـ"الخصوصية" هذه أنّه علمٌ نظرًا لأنّه عن الله، في كتابه وفي السنّة النبويّة التي هي مصدرٌ ثانٍ للتشريع. هنالك صلْبُ العلم، ومظاهر العلم. "صلب العلم" هو ذلك

المعنى الوجداني القلْبي الذي كان عند رسول الله ﷺ. سيّدُنا محمد ﷺ، يحدّث في أحاديث صحيحة أنّه كان خليلاً لله كما كان إبراهيم عليه السلام خليلاً لله.. ومن ذلك مثلاً حديثُه ﷺ: «إن الله اتّخذني خليلاً كما اتّخذ إبراهيم خليلاً»، وأيضًا في حديث آخر «لو كنتُ مُتّخِذًا خليلاً لاتّخذتُ ابن أبي قُحافة [أي سيّدنا أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه] خليلاً، ولكن صاحبكم اتّخذ الرحمنَ خليلاً».. الخلّة هذه أعلى درجة من الصفاء الروحي على الإطلاق، وأعلى مرتبة من الولاية، وأعلى مرتبة من المحبّة التي لمْ يبْلُغْها وليٌّ ولا نبيٌّ قطّ، إلا إبراهيم عليه السلام وسيّدنا محمد عليه أفضل الصلوات والتسليم..

إذن هنالك سرّ كان عند رسول الله ﷺ، به صار عليًّا عند الله جلّ وعَلا.. فمِنْ هذا السرّ يَقْبِسُ الأولياء والصدّيقون والصالحون، أي يأخذون قبَس الخير والنور والعلم. والذي لم يَقْبِس من هذا المعنى، لا علْمَ له، لأن الله في مُحكَم الكتاب يقول قاصدًا الذي كان عند رسول الله ﷺ ثم عند الصالحين والصدّيقين: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.. وإذا أردنا أن نطبّق هذه الآية حرفيًّا، أي أن نأخذ معنى "العلم" بالعلوم الشرعية، لوجدْنا علماء في الشريعة -مع الأسف- ليسوا كذلك.. فكيف إذن تنطبق الآية على واقعٍ غير صحيح.. وإنّما القصد أن العلمَ المقصودَ هو "العلم الذي فيه إرثُ النبوّة" أي أن الإنسان العالِم الحقّ اقتبس من نور النبوّة الوِلايةَ..

إذن هذا المعنى الذي هو "إرثُ النبوّة" هو الذي نجده فعلاً متجلّيًا في هذه الآثار، ممّا يدلّ على أن الإنسان الذي استطاع أن يصل وأن يُنتج آثارًا مثل هذه، لا شكّ وأن له إرْثًا من هذا المعنى.. هذا واضح والحمد

لله من الشهادات ومِن كتُب الأستاذ فتح الله، وممّن تتلمذ عليه.. لا شكّ أن هنالك تأثيرًا غريبًا وواضحًا جدًّا وقويًّا..

أوصاف المجدد

هل المجددون حملة هذا "السر"؟

حديث النبي ﷺ «إن الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة مَن يُجدِّد لها دينها».. هذا الحديث إذا أخذناه بالمعنى الذي ذكرت من "وراثة النبوة"، وبمعنى العلم، بالمعنى الخاص الذي هو في القرآن وفي السنّة النبوية، نجد فعلاً أنّ البشارات وكل الدلائل تشير -وتصرّح أكثر- إلى أنّ الأستاذ فتح الله يُعتبَر من روّاد التجديد في هذه المرحلة. وهنالك أدلّة أيضًا تاريخية في أنّنا نعيش الآن مرحلةً تاريخيةً على مستوى الأمّة الإسلامية جمعاء.. مرحلةً تاريخيةً جديدة بالضبط، جديدة كل الجد.. لأننا الآن نعيش مواجهة استعمارٍ بمعنى جديد.. هذا الاستعمار الجديد الذي يُسمَّى الآن في الفقه السياسي المعاصر بـ"العولمة".. هذا الاستعمار يختلف اختلافًا جذريًّا عن الاستعمار القديم الذي كان في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الماضي..

الاختلاف بين الاستعمارَين أن الاستعمار الأول كان يستعمر الأوطان، والاستعمار الجديد يستعمر الإنسان.. فالاستعمار الذي استعمر الأوطان كان هدفه الثروات والأموال، وأن يسيطر سيطرةً عسكريّةً واقتصادية وسياسية، ثم ثقافيةً على العالم الإسلامي.. فتأثيره كان أن دمّر البنية الاقتصادية للعالَم الإسلامي، ومزّق وشتّت العالَم الإسلامي عسكريًّا وسياسيًّا.. لكن مع ذلك لم يستطع أن يُطفئ جذوة الروح الوطنيّة

والإيمانية التي كانت عند المسلمين.. فلذلك استطاع المسلمون أن ينهضوا من جديد وأن يقاوموا هذا الاستعمار على مستوى معيَّن..

لكن جاء بعد قرنٍ من الزمان من نهاية القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين من تلك المرحلة إلى المرحلة الآن التي من نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، وأيضًا بالعدّ الهجري من نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجري إلى بداية القرن الخامس عشر الهجري، هذه مرحلةٌ فعلاً تَغيّر فيها كلُّ شيء؛ وصار الاستعمار الجديد الآن يستعمر الإنسان قبل أن يستعمر الأوطان. لأنّه حينما يستعمر الإنسان فقد استعمر كلَّ شيء بالتّبع، وقضى على كل أَمَلٍ في المقاومة.. لأن الإنسان يُصبح إذن تابعًا وجدانيًا وذوْقيًا للغرب وللآخر..

من هنا إذن أعتبر أن مرحلة هي الآن تقتضي وجود شخص أو عدّة أشخاص يقومون بتجديد دين الأمة في وجدانها. إن الدين جديد دائمًا، لكن شوق الدين هذا يحتاج إلى تجديد.. ونجد أن مدرسة فتح الله كولن تستجيب كل الاستجابة لهذا، إضافة إلى الآيات والأحاديث من المؤشِّرات القوية على أن هذه الدعوة بما بذلت وبما أسّست وبما عمَّرتْ فعلاً تُعتَبَرُ جوابًا لهذا الإشكال، وتعبيرًا عن هذه المرحلة بالضبط، لأن كلّ كتُب الأستاذ فتح الله، وكلُّ مشروعه -نعم كلُّ مشروعه- قائمٌ أساسًا على "تجديد الإنسان".. لأنه حينما يجدّد الإنسان يتجدّد كلُّ شيء بالتّبع، فتكُون الشركات، وتكون المؤسسات بسبب أنّه صنَع "الإنسان".. وهذه هي العبقرية الاستراتيجية التي يُمكنها -ووحْدها دون سواها- أن تُواجه الاستعمار الجديد بتجلّياته الثقافية والعقَدية المدمِّرة للبنْية التحتية في العالَم الإسلامي..

دعوة الخدمة والعالم العربي

ماذا تعني دعوة الأستاذ فتح الله كولن بالنسبة للعالم العربي والإسلامي؟ وما هو الدور الذي يمكن أن تلعبه في ظل التحولات التي تعيشها المنطقة؟

إن الحركة الإسلامية في بداية القرن الماضي بدأت بصورةٍ معيَّنة، واستجابت لظروفٍ معيَّنة، في شخص الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله. كانتْ الظروف آنئذ خاصّة، كانت مرحلة الاستعمار بالمعنى القديم، وأيضًا في مصر الأستاذ حسن البنّا، وبعده الأستاذ سيد قطب رحمه الله، وفي الهند محمد إلياس الحيدَرْآبادي الهندي، ومَن جاء بعده الأستاذ أبو الأعلى المودودي، وغيرُه كثير.. فهؤلاء جميعًا ظهروا في نفس الفترة، ومن المقادير الإلهية العجيبة أن الأستاذ بديع الزمان النورسي كتَب أو بدأ كتابة رسائل النور ١٩٢٨م، في نفس التاريخ بالضبط وفي نفس السنَة، وقبل هذا التاريخ (١٩٢٨م) بأربع سنوات كانت قد سقطت الخلافة الإسلامية ١٩٢٤م.

فإذن هنالك زلزال وقَع للعالَم الإسلامي وتمزُّق كبير جدًّا... انفجار على مستوى كيان وحدة الأمّة الإسلامية، فكان إذن ردُّ الفعل هو هذا، أي هذه الحركة الإسلامية الداعية إلى تجديد دين الأمّة، ومواجة الاستعمار بوجهه العسكري..

طيّب.. هذه الموجة التي ظهرتْ في هذه المرحلة استجابتْ لظروفٍ معيَّنة، وأدّتْ دورًا تاريخيًّا رائدًا ومهمًّا جدًّا.. الآن عندنا مشكلة، وهذه المشكلة هي أن الحركة الإسلامية في العالَم -في العالَم العربي والإسلامي جميعًا- لا تزال تقتات على المرحلة القديمة السابقة، أي أنّ أغلب الحركات الإسلامية في العالَم العربي -في المشرق والمغرب- لا تزال

تسير على نفْس النمط، نمط الحركة الإسلامية التي ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.. هذا النمط إذا لم يتجدّدْ ستكون هنالك مشكلة.. لمَ؟ لأنّ الظروف التي أفرزتْ نموذج الإصلاح القديم تغيّرتْ، فهاهنا ظروفٌ جديدة تستدعي نمطًا جديدًا للعمَل.. ولذلك إن الأستاذ فتح الله بتركيزه على الإنسان قبل الأشياء، وقبل العالَم المادّي، وبتركيزه على العالَم الروحي، يستجيب بكلّ وعْيه وبكلّ عمق لطبيعة المرحلة، لأنّ هذه المرحلة تدمّر الإنسان من حيث هو ثقافة، ومن حيث هو كيان، ومن حيث هو انتماء لحضارة.. فصار الإنسان -مع الأسف الشديد كما نشاهده في كثير من بلاد العرَب، بلاد المسلمين عمومًا- يشتاق ويتمنّى لو كان فرنسيًّا، لو كان أمريكيًّا، لو كان، لو كان.. هذا عدَم الإحساس بـ"الذات" وزهده في الانتماء الحضاري لأمّة الإسلام، مرضٌ خطير جدًّا، سببُه هذه القوّة الإعلامية والثقافية والأيديولوجية التي تنزل على قلوب المسلمين في كل مكان، وتدمّر إحساسَهم بهويّتهم وبانتمائهم الحضاري إلى الإسلام..

إذن المشكل المطلوب هو إعادة التشكيل الوجداني للمسلم، وليس فقط العقل المسلم.. نعم، إعادة تشكيل وجدان المسلم، إحساسُه، ذوقُه، انتماؤه الحضاري.. فإذن هذا الحلّ هو الوصفة التي تستجيب لِمَوعد التاريخ، جاءت مع موعد التاريخ، وتستجيب أيضًا للأصول القرآنية والنبوية..

أحسِب -وأقولها بكل تجرُّأ إن شاء الله- أن الأمّة الإسلامية في كثير من البلاد العربية بشكلٍ خاص، سترجع إلى هذا المنهج، وهي الآن في طوْر المراجعة، لأنّها اصطدمت بمنهجها العتيق ذاك، اصطدمت بالواقع،

اصطدمت سياسيًّا، ثم -هذا هو المؤسف-اصطدمت شعبيًّا مع الناس.. فحينما تَفشَل الحركة الإسلامية في خطاب الجماهير، وتصطدم مع الجمهور ومع الشعب، هذا دليل قاطع على أن هذه الحركة فاشلة فاشلة فاشلة..

فإذن حينما تقع أزمة لحركةٍ ما في البلدان العربية وفي رمشة عين بين عشيّة وضحاها، يتخلّى عنها الشعب، وتتبرّأ منها الجماهير، معنى ذلك أنها لا تملك رأسمال إنساني وجْداني.. فالذي يملك قلوب الناس لنْ يتخلّى عنه الناس ولو في أحلك الظروف.. ولو اصْطدم سياسيًّا، ولو وقعت له مشكلات، ولو دخَل السجون والمنافي، الناس لا يتخلّون عنه، كما لم يتخلّوا عن رسول الله ﷺ في معارِك وفي مواقع شديدة جدًّا.. لأنه حتّى وإن لم يملك السلطان في مرحلة مكّة، كان سلطانًا على قلوب كثيرٍ من الناس ممن تربّوا بدار الأرقم بن أبي الأرقم..

الآن أعرف شخصيًّا أن كثيرًا من الحركات الإسلامية وكثيرًا من الدعاة يُعيدون حساباتهم من جديد، ويُراجعون، وفي كثيرٍ من الأحيان يجِدون أنفسهم مضطرّين للعودة إلى المنهج القرآني.. سَمِّيه ما شئت، المهمّ أنّه في المضمون هو تكوينٌ روحيّ.. تكْوين الإنسان قبل تكوين الجانب الفكْري فقط، أو الاقتصادي فقط، أو الدخول في حزبٍ سياسيّ فقط.. الآن الأمّة ستجد نفسها مضطرّةً -أحبّتْ أم كرِهت ستضطر، لأن الظروف ستُكرهها على ذلك- إلى العودة إلى هذا المنهج..

أحسِب أنه إذا عرَف العرَبُ الأستاذ فتح الله كولن كاملَ المعرفة، فإنّهم لن يجدوا بديلاً ولا أفضل من منهجه.. ليس لأنّه هو "منهج فتح الله" من حيث هو شخص، ولكنه "منهج القرآن الكريم".. لأنّ الرجُل مؤيَّد، له

صلَة بالله جلّ وعلا، إن شاء الله صافيةً، صلة الوِلاية التي في حديث النبي ﷺ القدسي «مَنْ عادى لي وليًّا فقد آذنْتُه بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتّى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يَسْمع به، وبصره الذي يُبْصِر به، ويدَه التي يبْطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنّه».. فهذا المستوى الراقي العالي الرفيع الذي هو تأمين -نعم هذا تأمين وضمان من الله جلّ وعلا يُنْزله على عبده-، إذا كان عبدٌ على مثل هذا المستوى فيا ويْل مَن تُسَوِّلُ له نفسُه أن تمتدّ يدُه إليه، أو إلى حركته، أو إلى دعوته، لأنه هو مضمون، مضمون من لدُنْ ربِّ السموات والأرض.. فإذن هذا الضمان العالي إذا حصّله العبد فقد حصّل كلَّ شيء، وإذا لم يُحصّله العبد وأخطأه فقد أخطأ كل شيء، وأضاع كلّ شيء.. فهذا المعنى -مع الأسف- هو الذي نفتقده في كثير من البلاد العربية..

العالم الإسلامي وتأويل يوسف عليه السلام لرؤيا الملك

سمعنا منكم مقاربة شيقة حول رؤيا سيدنا يوسف عليه السلام والمراحل التي مرّت بها الأمة الإسلامية عبر تاريخها. فهل يمكن أن تفصلوا لنا تلك المقاربة؟

هذا كلام سمعتُه من بعض أشياخنا، فقمتُ بتطبيقه على واقع مشروع الأستاذ فتح الله كولن، وهذا الجديد الذي عندي.. وإلاّ فهو ذُكر عند بعض أهل الفضل وبعض أهل العلم وأهل الذكر.. وذلك أنّ تاريخ الأمّة الإسلامية الآن هو تاريخ يمكن أن نقسّمه إلى مراحل ثلاثة:

١-المرحلة الأولى هي مرحلة النهوض والصعود..

٢-ثم المرحلة الثانية مرحلة النزول والانحدار..

٣-ثم المرحلة الثالثة هي مرحلة بدء النهوض، وهي المرحلة التي نعيشها الآن..

المرحلة الأولى: دامت المرحلة الأولى سبعة قرون، بدءً من القرن الأوّل الهجري، أي حيث بدأ النبي ﷺ الدعوة وبناء الدولة الإسلامية الأولى، وما تلا ذلك من فعلِ الصحابة رضوان الله عليهم في العهد الراشد، وما تلا ذلك من الخلافات الإسلامية المختلفة إلى القرن السابع الهجري..

المرحلة الثانية: في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجري وقَع للأمّة الإسلامية زلزال.. لمْ يكن قد بقي من الأندلس في القرن الثامن الهجري إلا شريط غرناطة.. كانت قرطبة قد سقطت بيد الإسبان، ووقع احتلال واستعمار يسمّونه في تاريخ الأندلس بـ"معارك الاسترداد" أي أن النصارى كانوا يستردّون الأندلس وما بقي آنئذ في القرن الثامن الهجري إلا شريط غرناطة. وكان الإمام أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله يؤرّخ من خلال فتاواه للوضْعيّة الإيمانية والدينية التي كانت آنئذ مُنهارةً جدًّا، حيث كان يُستفتَى في الشخص يُسْلِم ويَكفر، ويكفر ويُسْلم.. فشخصٌ مثلاً، كان مُسلمًا ثم ارتدّ وصار نصرانيًّا، ثم مات أبوه، ثم هو يَعرض على إخوته بعد ذلك أن يُسْلِم بشرط أن يأخذ نصيبه من الإرث.. فالوضعية كانت تدلّ على أنّ الإنسان ما صار انتماؤه للإسلام انتماءً حقيقيًّا في مرحلة السقوط والانهيار للأندلس.. في تلك الفترة بالذات كان العالَم الإسلامي في الشرق تحت وطأة المغول، لأن القرن الثامن الهجري فيه عاش ابن تيمية في الشرق وتلامذته الذين واجهوا المغول وإحراق بغْداد

ومكتبة بغداد. كان هنالك انهيار عسكري وحضاري في العالَم الإسلامي في القرن الثامن الهجري..

فإذن سبعة القرون الأولى كانت قرونًا على العموم في هذه القرون الثلاث الأولى خيّرة، ولكن تلاها إشعاع حضاري وعسْكري كبير استفاد من الانطلاقة الحضارية القوية التي بدأت في القرون الهجرية الثلاثة الأولى والتي أسّسها سيدُنا رسول الله ﷺ.

لكن مع القرن الثامن الهجري بدأ الانهيار، فبعد وفاة الإمام الشاطبي بقرن واحد سقطت الأندلس تمامًا، وما بقي فيها موضع إصبع للمسلمين.. ودخل الإسبان إلى المغرب وتونس والجزائر، وصار يحتلّون شواطئ المغرب وشواطئ العالَم الإسلامي الذي في مُقابلتهم. وحدَث انهيار في العقائد، وفي الفهم للدين، وانتشرت الخرافة في المشرق وفي المغرب، ولم يزل العالَم الإسلامي في انهيار وتردٍّ مستمرّ طيلة القرن الثامن والتاسع والعاشر، وهكذا إلى أن تمّت سبعة قرون كاملةً إلى حدود القرن الرابع عشر الهجري الذي كان هو قرن الاستعمار القديم في العالَم الإسلامي.

المرحلة الثالثة: إذن نحن الآن في بداية قرنٍ جديد وهو القرن الخامس عشر..

هذا الوضع الآن أشبه ما يكون برؤيا يوسف عليه السلام في قصته التي عُرضت عليه النازلة التي كان قد رآها الملك -ملِك مصر آنئذ- وأوَّلَها يوسف عليه الصلاة والسلام. فذلك التأويل الذي شرح به يوسف الوضع آنئذٍ في مصر ينطبق -لكن بعدّ القرون لا بعدّ السنوات- على تاريخ الأمّة الإسلامية..

وليس عبثًا في كتاب الله جلّ وعَلا -هذه من الإشارات واللطائف التي يذكرُها ساداتنا العلماء- أن ترِد بعض الإحصاءات أو بعض الأرقام أو بعض العدّ أو بعض الإشارات في كتاب الله هكذا فقط لمجرّد التاريخ، أبدًا.. ما من مسألة ذُكرتْ في الكتاب -ولو تعلّقت بعبادة العجْل عند بني إسرائيل، أو أي شيء- إلاّ وفي ذلك دليل على أن ذلك المرَض -إن كان من الأمراض- ستُصابُ به الأمّة الإسلامية في وقتٍ ما، وتحتاج إلى عِلاج يُؤْخذ من القرآن الكريم.. أو إذا كان صفةً إيجابية أو دواءً، دليل على أنّ ذلك الدواء ستحتاجه الأمة الإسلامية في وقتٍ ما، في المستقبل.. ومن ههنا ينطلق بعض العلماء فيقولون بأنّ "النسخ" في القرآن بمعنى أن هذه الآية الفلانية أو الكلمات أو الأحكام الشرعية الفلانية في هذه الآية أو تلك، "نُسِخت" بمعنى "أنها عُطِّلت من العمَل، ولا فائدةَ منها ألبتّة"، هذا غير صحيح مطلقًا، ولا يجوز عقيدةً ولا عقلاً أن يُنْسَبَ مثلُ هذا الأمر لله ﷻ.. لا يجوز عقلاً ولا شرعًا أن يكون في كتاب الله آية لا فائدة منها، تُتْلى فقط.. لا، هذا لا يجوز.. فلذلك ما من آية حتّى ولو كانت منسوخةً، فمعناها أنّها باقية تُتْلى في القرآن، معنى أنّ الأمّة ستحتاج إلى ذلك الحكم في وقتٍ ما.. ربّما في مرحلة إعادة البناء، أو في أيّ وقتٍ، ما ترَك اللهُ جلّ وعَلا تلك الآيةَ إلا لحكمة، أي أننا سنحتاجها في وقتٍ ما..

فإذن القصص في القرآن ليس معناها حكاية الماضي فقط، هذا لا يجوز شرعًا وعقلاً على الله جلّ وعلا.. نعم في هذا المعنى حكاية الماضي، ولكن فيه أيضًا أننا كأمّة سنحتاج فعليًّا وعمَليًّا لبعض الحلول الموجودة في ذلك القصص..

وأحسِب أنّ هذا التأويل اللطيف وأن هذه الإشارة يوجد فيه معنى،

على أنّ هذا العدّ له سرّ، والذين يطبّقون هذا على واقع الأمّة الإسلامية اليوم، فيه نوع من مُقاربة الحقيقة..

أعود إلى القصّة، حينما قال يوسف ﷺ ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾(يوسُف:٤٧).. إذا أخذنا السنَة بالقرن في تاريخ الأمّة الإسلامية، نعم إذا فهمنا السنوات المذكورة بعدّ القرون: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي على لسان يوسف ﷺ.. فهذا السبع السنوات للزرع، بمعنى أنه سيكون هنالك خصب، وسيكون نماء.. هذا خصب سيستمر سبع قرون من تاريخ الأمّة الإسلامية، زرعنا سبعة قرون دأبًا فعلاً.. ثم الذي حدث هو أنّ السبع الثانية كانت على العكس تمامًا، أي أنها كانت تستنزف وتأكل من السبع الأولى، والله جلّ وعلا وصَف ذلك وقال: ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، ووصف سبع السنوات الأخيرة في قصة يوسف ﷺ بأنهن ﴿عِجَافٌ﴾ أي أنّ هنالك ضعف، هنالك انهيار، فهذا الضعف والانهيار سيتغذّى من السنوات السابقة أو بالأحرى في التاريخ من القرون السابقة، أي تُدمِّر ما كان بُنِي.. ولذلك سبع بَقَرات سمان كان يأكلهن سبع عِجاف.. فالقرون العِجاف أكلتْ ما بنينا من السبع العِظام السِّمان.. فإذن كلُّ البناء الذي بُنِي في سبعة قرون انْهار أيضًا في سبعة قرون.. ثم جاء عامٌ من بعد ذلك ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، فهذا العام هو ما يقابل القرن بهذا العدّ إذن.. إذن سبعٌ في سبعٍ، في عام؛ أي سبعة قرون، في سبعة قرون، في قرن، وهو الخامس عشر.. فهذا هو "الوتْر" الذي ستنطلق منه الأمّة من جديد، وهذا العام ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ فيأتي غوث، وخيْر من الله جلّ وعَلا، ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي سيُنْتجون الخيرات والبركات..

وأحسِب أن هذه الدعوة المباركة للأستاذ فتح الله كولن الذي ترعرعت فيه من الموقع الجيوسياسي الذي تحتلّه بلد تركيا باعتبارها موقعًا يربط القارّات الكثيرة، جاء في وسط آسيا، ووسط إفريقيا، أي بين وسط إفريقيا وآسيا وأوروبّا.. هذا الموقع لا يُوجد لدولةٍ إسلاميةٍ أخرى.. ولذلك من هذا الموقع يمكن أن يقع الإرسال لكلّ القارّات في كلّ مكان.. ثم وجود الأستاذ الآن في أمريكا، هذا له دلالة إذن، وبحمد الله بالخطاب المتميّز الروحاني الذي يعبّر عن جوهر الإسلام بما فيه من أخوّة، ومن حبّ، ومن سلام، ويُخاطب الإنسان أنّى كان؛ مهما كانت ثقافته، مهما كانت لغته، مهما كانت جهته.. هذا الخطاب العالمي الحق الذي غير متأثّر بالظروف النفسية والاجتماعية التي تقع للعالَم العربي والإسلامي.. في العالَم العربي عندنا هنالك مشكلة أن كثيرًا من الدعاة متأثّرون بما يقع عليهم من مظالم، نعم حقيقة هي مظالم كثيرة وشديدة، لكن ردّ الفعل فيه روح الانتقام.. ولكن الداعي إلى الله جلّ وعلا إذا لم يستطع أن يتخلص من روح الانتقام، سيبقى جُزئيًا، لن يكون أبدًا كُليًا.. ودعوة رسول الله ﷺ تميّزت بهذا، فهو قُدْوتنا الأوّل، حينما كان ينزل الوحي على رسول الله بمكّة وهم مضطهدون، مغلوبون على أمرهم، تُقَطَّع أوصالُهم، يُقتَّلون، يصلَّبون، كما هو معروف في السيرة النبوية، قال لهم الله جل وعلا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾(النِّسَاء:٧٧).. وهذا المنهج الذي يقوم عليه الأستاذ فتح الله كولن كأنّي به يستجيب لهذه الآية العظيمة التي تربّي الإنسان وتُعطيه طاقةً عاليةً جدًّا، كيف تستطيع أن تكون تحت الظروف الظالمة المظْلِمة، تُضْرَب ولكن في نفس الوقت لا تستجيب للاسْتفزاز، بل تَبْني.. هذا لا يكون لإنسان عاديّ يا أخي

الكريم.. إنه صعبٌ، صعبٌ جدًّا أن يستطيع الإنسان أن يَكْظِم عيظَه، وأن لا يستجيب للاستفزاز.. فحينما نجد شخصًا وجماعةً تفعل هذا، فمعنى ذلك -كما ذكرتُ وأُكرّر- أن هذا الأمر غير بَشَري، هذا الأمر فيه إلْهام بما علِم الله جلَ وعلا من الإخلاص في قلْب الرّجل.. ولو لم يكن مُخْلِصًا لَما جاءَه هذا السنَد وهذا السداد وهذا الرشاد.. لأن هذه نعمة يُعْطيها الله جلّ وعلا لمن أحبّ، وقدْ أحبّ رسولَه وأصحابَه من قبلُ فأعطاهم هذا المدَد وهذه القوّة العظيمة.. قوّة حقيقة، قوة تستطيع أن تضبط نفسك وتستطيع أن تكون كما جاء في الحديث: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد مَن يملك نفسَه عند الغضب»".. هذا المعنى العظيم هو الذي يمثل الإنسان الحضاري الراقي الذي يستطيع أن يخاطب العالَم الآن، ولذلك لن يكون العالَم العربي وحدَه في حاجة إلى هذا الخطاب، بل الكُرَة الأرضية كلُّها عرَبُها وعجَمُها، والله أعلم..

اللقاء مع الأستاذ فتح الله كولن

سؤال أخير.. لو دخل الأستاذ الآن من هذا الباب ورأيتَه ماثلاً أمامك ماذا كنتَ ستقول له؟

في الحقيقة ربما لن أستطيع أن أتكلّم، ربّما أقوم بفعل وليس بكلام، وأنا تخيّلتُ هذا في نفسي.. عندي شوقٌ كبير في أن أُعانقه، ولكن أنا أعلم أنه في الحقيقة ما يَنبغي أن يُعانَق، ينبغي أن تُقَبَّل يدُه، ولكن هكذا أنا، لي شوق كبير في أن يَلتصق صدري بصدره، وأن أُحسّ نبضات قلبه تدقّ على نبضات قلبي، عسى أن أَقْبِس من ذلك السرّ الذي عنده.. فلوْ يأذن لي في هذا فعلاً سأكون محظوظًا جدًّا، مع أنه ليس من الأدَب أن

يعانق شخصٌ مثلي مثلَه، وإنما الأدَب أن تُقَبَّل يدُه..

أما الكلام فلا يمكن أبدًا أن تكون هنالك جملة تُعبّر عن لقاء هذا الرجل، وإنّني أدعو في نفسي وفي خلْوتي بأن لا يحرمني الله جلّ وعلا لقاءه، لأن لقاءه بالنسبة لي فيه معنى خاص.. فإذا صدَق اللقاء وحصل، فمعنى ذلك أنّني نجحتُ في الذي أفكّر فيه.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الفصل الثاني:

بين الجمالية والإنسان

القرآن الكريم...
روح الكون ومعراج التعرف إلى الله [11]

إن هذا الكتاب المرسوم بالقرآن كتابٌ غير عادي تمامًا. إنه كلام من طبيعة أخرى، وخطابٌ من عالم آخر. ولكن العادة تضعف الحس البشري؛ فليس لنا معشر البشر إلا الوقوف على ضفافه الفسيحة، وتَلَقّي أمواجه بصدورنا، نتذوق من خلالها مواجيد الإيمان، ونشاهد سُبُحات الجلال والجمال.

إن هذا القرآن الكريم ينبئ عن نفسه ويعرف بطبيعته وماهيته. إنه يتكلم إلى الإنسان من خلال بعده الكوني، ومصدره الرباني. ومن هنا فإنه أعمق من أن يحيط به الإدراك المادي المجرد: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(الشورى:٥١). ولذلك فإن أسرار آياته ترتبط جميعا بحقائق الكون؛ فهو فهرست الوجود، والكشاف الجامع لكل موجود، إذ هو ينتمي إلى عالم "الأمر" ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾(الشورى:٥٢). إنه يمثل في حقيقته وفي وجدان المتبصر لبصائره روحَ الحقائق كلها، فلا حياة لها إلا به.

---

[11] مجلة حراء، العدد: ١٠ (يناير-مارس ٢٠٠٨م).

إن عظمة القرآن تتمثل أساسا في أنه "كلام الله رب العالمين". إن ما يبهر الإنسان من ذلك ويفيض مشاعره أن القضية هي من العظمة والرهبة بحيث يستحيل على القلب البشري تحمل مواجيدها، بدءًا بالتفكر في هذا الكون الشاسع الممتد من فضاءات لا يحدّها بصر ولا تصور ولا خيال، وما يسبح فيه من نجوم وكواكب ومجرات وسدم غائرة بعيدة بملايين السنوات الضوئية، وما يحيطها من سماوات بعضها فوق بعض، وما يعمرها من خلائق نورانية مما لا يُدرك له شكل ولا صورة، إلى ما بين هذا وذاك من طبقات الزمان المختلفة عدًّا وتقديرًا، من الأيام والسنوات، قد يختزل اليومُ الواحد منها ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(السجدة:٥)، إلى ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(المعارج:٤). وربُّ هذه العوالم جميعًا، الخالق لها، والمحيط بأزمنتها وأمكنتها كلها، المدبر شؤون حياتها ومماتها وأرزاقها، بقيوميته الممتدة من الأزل إلى الأبد، المالك زمام أحوالها بأنوار أسمائه الحسنى وصفاته العلى ﷻ، هذا الرب الرحمن الرحيم والملك العظيم المتنزه في مطلق علوه وسموه وجلاله وكبريائه؛ يقدر برحمانيته ورحمته أن يكرم الإنسان هذا المخلوق الضعيف القابع في الأرض، هذا الكوكب الضئيل السابح في بحر عظيم زاخر بأمواج السدم والمجرات، فيكون من أعظم مقامات هذا التكريم أن يخاطبه بهذا الكلام الإلهي العظيم: "القرآن الكريم".!

فكيف للنسبي الفاني إذن أن تتحمل مواجيدُه كلام المطلق الباقي؟! كيف للقلب المحكوم بالزمان والمكان أن تستوعب خفقاتُه المعدودة وأنفاسُه المحدودة وقْعَ الكلام الخارق للزمان والمكان؟!

وإن الله إذا تكلم سبحانه تكلم من علُ، أي من فوق؛ لأنه العلي

العظيم، فهو فوق كل شيء، محيط بكل شيء علما وقدرة، إنه رب الكون: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾(فصلت:٥٤). ومن هنا جاء القرآن محيطًا بالكون كله، متحدثًا عن كثير من عجائبه، قال تعالى في سياق الكلام عن عظمة القرآن: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ۞ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الواقعة:٧٥-٨٠).

وهذا المقال يرمي إلى إبراز قضيتين:

الأولى: كون القرآن خطابًا كونيًّا بما هو روح من أمر الله.

والثانية: بيان أنه بذلك معراج للتعرف إلى الله جل علاه.

الأولى: كونية القرآن الكريم

إن معنى "كونية القرآن" لازم من لوازم كونه "كلام الله رب العالمين". فالربوبية قاضية بكل معاني الشمول والامتلاك والسلطنة؛ ذلك أن "القرآن" -من حيث هو كلام رب العالمين- متضمن لمعنى الربوبية الجامعة لكل عناصر الكون امتلاكا وقهرًا، كما أن الكائنات من خلاله تدور جميعها حول هذا المعنى، سالكة إلى الله خالقها، منجذبة إلى نوره تعالى. ولذلك كان القرآن -وهو خطاب الله إلى الإنسان- خطابًا كونيًّا أيضًا.

يمكن بيان "كونية القرآن" من خلال الخصائص الثلاث الآتية:

أ-القرآن قراءة لكتاب الكون، وكشف لأسراره

ومعنى ذلك أنه كتاب كاشف للغز الحياة بصورة بسيطة. فهو يقدم الصعب المعقد تقديمًا سهلاً ميسرًا، فسهل على العامة والخاصة قراءة

مقاصده من خلال أبعاده الكونية؛ إذ يلفت انتباه الإنسان إلى مظاهر الكون وحقائقه ليتفكر في خلق السموات والأرض، كل على حسب طاقته وسعة إدراكه. فيكون القرآن الكريم بكونيته هذه خطابًا لجميع الناس بجميع مستوياتهم الثقافية واختلافاتهم اللغوية والعرقية. وهو ضرب من ضروب الإعجاز. ومن هنا كان القرآن بحقٍّ مفسرَ كتاب العالم.

ب- القرآن روح الكون

ومعنى ذلك أنه ما دام المتكلم به هو الله رب العالمين -بالاعتبار الذي ذكرنا- أي "خالق كل شيء" سبحانه، فإنه لا شيء إلا وهو راجع في حقيقة وجوده إلى حقائق القرآن الكونية. وما علمنا ذلك كله إلا من خلال القرآن الكريم الذي هو كلام رب العالمين الخالق لكل شيء. فالقرآن يمثل -من حيث حقائقه- حقائق الكون كله، بدءا بقصة الخلق إلى غاية الإعادة من يوم القيامة ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾(الأنبياء:١٠٤)، ثم البعث والنشور، فالمصير. فلو تُصُوِّر عدم حقائق القرآن -وهو فرض محال- لاستحال تصور وجود العالم الكوني كله.

ثم إن حقائق القرآن التي هي التفسير السليم لنظام الكون، هي وحدها القادرة على الحفاظ على ذلك النظام الكوني في العقل. ولو افترضنا تفسيرًا غيرها، لعمت الفوضى تصورات العقول، ولاختل التوازن في الفكر، بتصورات لا يمكن إلا أن تؤدي في النهاية إلى افتراضات تقضي في المنطق العقلي إلى اختلال الكون كله في التصور. وبهذا المعنى كان القرآن هو روح الكون.

ت- القرآن محيط بمفهوم الزمان الكوني

إذا كان القرآن كلام الله رب العالمين، فإنه صفة له سبحانه؛ لأن الكلام صفة للمتكلم. وقد عُلم أن الله ﷻ محيط بالزمان والمكان. فهو فوق كل شيء ومحيط بكل شيء، لأنه تعالى خالق كل شيء. من هنا إذن كان القرآن محيطًا بالزمان الكوني: الماضي والحاضر والمستقبل جميعًا، ثم بالزمان الأرضي، وهو الزمان بالتقدير البشري الدنيوي مما نعد به التاريخ والأعمار، وكذلك بالزمان المعراجي بنوعَيه: الأمري والملائكي. فالزمان الأمري هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(السجدة:٥)، والزمان الملائكي هو المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(المعارج:٤). وكذلك الزمان العندي وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(الحج:٤٧).

ثم الزمان الأخروي وهو الزمان الخالد السرمدي الذي لا ينتهي أبدًا مما يكون بعد إعادة الخلق، حيث قيام يوم الدين، من بعث وحشر وحساب وجنة ونار. فحديث القرآن عن ذلك كله حديث جامع مانع. ومن هنا كان محيطًا بكل الزمان، مما ينتسب إلى عالم الغيب أو إلى عالم الشهادة.

ذلك هو القرآن... كلام من أحاط بمواقع النجوم خلقا وأمرا وعلما وقدرة وإبداعًا. فجاء كتابه بثقل ذلك كله، أنزله على سيدنا محمد ﷺ، من بعدما هيأه لذلك وصَنَعه على عينه سبحانه جل وعلا، فقال له: ﴿إِنَّا

سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥).

ومن هنا لما كذب المنكرون بالقرآن للقرآن، نعى الله عليهم ضآلة تفكيرهم وضحالته وقصور إدراكهم وضعف بصرهم عن أن يستوعبوا بعده الكوني الضارب في بحار الغيب، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(الفرقان:٥-٦) وإنه لرد عميق جدًّا. ومن هنا جاء متحدثًا عن كثير من السر في السماوات والأرض، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾(الكهف:٥٤)، وقال جل وعلا: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾(فصلت:٥٣-٥٤).

الثانية: القرآن معراج التعرف إلى الله

إن أول مقاصد القرآن الكريم إنما هو تعريف الناس بالله، المتكلم بالقرآن. ولذلك جاء تعريف الله لذاته سبحانه بأسمائه الحسنى مباشرة بعد التنبيه على عظمة هذا القرآن -كما جاء في سورة الحشر- كأنه قال: اعرف القرآن أولاً تعرف الله. أَوَليس هو تعالى المتكلمَ بالقرآن؟ قال جل وعلا: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١)، فقال بعدها مباشرة: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۞ هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الحشر:٢٢-٢٣).

إن الذي ينصت إلى خطاب الفطرة في نفسه يسمع نداء عميقا يترجم الرغبة في معرفة من أسدى إليه نعمة الوجود، ذلك الإنسان مفطور على شكر من وصله بمعروف. ومن هنا نخلص إلى نتيجة وهي "حق الخالقية" هو مفتاح التعرف إلى الله.

وهذه حقيقة قرآنية كبرى تترتب عليها أمور كبيرة في حياة الإنسان. ذلك أنه كلما نادى الله الناس في القرآن بالاستجابة لأمره التعبدي ناداهم من حيث هو خالقهم، هكذا، بهذه الصفة دائمًا، وهو أمر مهم فيما نحن فيه من طريق المعرفة بالله، أي إنه تعالى يسألهم أداء "حق الخالقية"، هذه الصفة العظيمة لذاته تعالى، التي بها كنا نحن الناس هنا في الأرض نتنفس الحياة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢١-٢٢)، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(النساء:١).

هاتان آيتان كليّتان من القرآن العظيم، تعلق الأمر فيهما بالعبادة والتقوى، وما في معناهما من الانتظام في سلك العابدين، وفلك السائرين إلى الله رب العالمين، إثباتًا لحق الله من حيث هو خالق للبشر. ولا يفتأ القرآن يذكّر بهذه الحقيقة باعتبارها مبدءًا كليا من مبادئ الدين والتدين، وأنها العلة الأولى منه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥١) إنها آية كونية عظمى.. إنها مفتاح من مفاتيح فهم القرآن العظيم، وباب من أبواب معرفة الربوبية العليا.. قال

تعالى في سياق الحِجاج: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾(نوح:١٣-١٤). إنه تعالى ربط حقه سبحانه على عباده بمبدإ خلقهم أطوارا.. فكلما ازداد المنكرون تعنّتا ازداد القرآن إفحاما في بيان تفاصيل الخلق. فتلك حجة الله البالغة إجمالا وتفصيلاً.

وكما كانت تلك هي حجة القرآن في الدعوة إلى العبادة، وإثبات "حق الخالقية" لله الواحد القهار؛ كانت هي عينُها حجته في الدعوة إلى التوحيد ونفي الحق الوهمي للشركاء، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿اَللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الروم:٤٠). وبهذا المنطق أيضا رد الله على المشركين، كما في قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(الأعراف:١٩١)، وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾(النحل:١٧). فما كان هذا البيان والتفصيل لقضية الخلق ليكون، لولا أنها قضية كونية كبرى ينبني عليها ما ينبني من مصير وجودي في حياة الإنسان، هذا المخاطب بها ابتداء.

إن "قضية الخلق" تمثل مفتاح فهم الربوبية، إنها المبدأ الكلي الذي على أساسه خاطب الله الإنسان بكل أمر ونهي، بل إنها تمثل البنية الأساس لخطابه الذي عليه يتفرع كل شيء، مما قرره في العقيدة والشريعة على السواء. نعم، "حق الخالقية" إذن هو مفتاح التعرف إلى الله جل وعلا.

إن إحساس الإنسان بوجوب هذا الحق عليه يخرجه من التيه الوجودي، أو بعبارة قرآنية يخرجه ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(البقرة:٢٥٧). وأيّ ظلام أشد من التصور العبثي للحياة! فبأي نفسية يعيش الإنسان هذه الحياة وهو يرى أنما غايتها إلى العدم المطلق والفناء الرهيب، الذي ما بعده حياة؟!

إن السالك حينما يذوق من معرفة الله لمعات وأنوارا يتعلق قلبه بحب الله تعالى، لأنه هو الذي أوجده وخلقه، وإنما يجد الجمال الحق في تلك المعرفة.. وإنما نرى جمال الله ﷻ في شعورنا القوي بجمال خالقيته تعالى وكمال قيوميته وحسن إجابته وكرم رعايته، وقرب رحمته وأنسه.

فلم يكن عبثًا إذن أن يتوارد ذكر الأسماء الحسنى والصفات الإلهية العلا عبر كل فصول القرآن. فهي كالنجوم الدرية تتلألأ بالنور الرباني العظيم في تلك المسافات جميعًا، ما بين السوابق واللواحق والقرائن، بما يجلي للعبد الذاكر جمال الله وجمال المعرفة به، فيعبّد له طريقها سالكة جلية. ولكن كل ذلك إنما يكون على قدر شهود القلب وصفاء البصيرة وصدق الإقبال على الله عند الدخول في مشاهد الذكر والتلاوة للكتاب.

إن العبد الذي أيقن بمعرفة الله يفيض قلبه بالمحبة، محبة كل شيء، إذ يجد أخوة إيمانية في وجدانه مع كل شيء من الكائنات، عدا من تولّى. فالكل مستغرق في عبادة الله سائر إليه عبر مسالك المحبة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء:٤٤). ولقد جعل الله لنبيه داوود معجزةَ كشفٍ لبعض ذلك، فكانت الجبال والطير تسبح بتسبيحه وتدعو بدعائه، في مجالس تفيض بالنور والجمال، تلتقي على موعد بالغدو والآصال، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ۞ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾(ص:١٨-١٩). إن الكون كله في وجدان المسلم مثل طيور داوود عليه السلام، مجالس أنس وذكر تشعره بالأخوة الكبرى في السير إلى الله عبر أفلاك العبودية: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(الأنبياء:٢١)، فالمعرفة طريق لا تنفد تجلياتها، ولا

تنتهي إشراقاتها إلا بلقاء الله، حيث ينكشف سر السير إلى الله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩)، ويرى العبد هناك بعين اليقين حقيقة الوجود الدنيوي من خلال وجوده الأخروي: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(ق:٢٢).

إن المعرفة بالله تملأ القلب أنسا بالله، ثم أنسا بالحياة، وأنسا بالكون والكائنات، وأنسا حتى بالموت الذي لن يرى فيه العبد المحب -إذ يقف عليه- إلا موعدا جميلا، للقاء جميل، مع رب جميل. فذلك ذوق الإحسان في قمة المشاهدات الإيمانية. وإنما «الإحسان أن تعبد اللهَ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (متفق عليه).

وعليه فإن هذا الإنسان بما هو مخاطب بهذا القرآن أساسا بأبعاده "الأمرية" المذكورة، هو إنسان "كوني" بامتياز. فهو لا يسكن الأرض إلا بقدر ما يسكن الكون كلَّه حقيقة. وبما أن البشر شتى خلقا وتقديرا وسعيا وتدبيرا، فقد كان هذا القرآن على نفس تلك السعة والشمول من الإمكانات المتصورة للنشاط الإنساني في الأرض على الإطلاق. ولذلك جاء جامعا لكل معارج الكتب السماوية السابقة بدون استثناء؛ ففيه معارج إبراهيم ومعارج موسى عليه السلام ومعارج داوود عليه السلام ومعارج عيسى عليه السلام ثم فيه معارج أخرى فُضْل تفرد بها القرآن الكريم لم تفتح قبله قط في التاريخ. وكل ذلك جميعه كان معارج لنبي هذه الأمة الرسول الجامع المانع سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ.

إن هذا القرآن بعمقه الكوني هذا، المطلق عن الزمان والمكان يحقق أخوة إنسانية كبرى، لا يمكن أن تتحقق على هذا الوزان بسواه؛ لأنه شبكة اتصال وجودية ذات أنسجة أفقية وعمودية، فيها مداخلُ لا حصر

لها للإمكانات البشرية. ولذلك فهو يتيح لكل إنسان مهما كانت ميوله وإمكاناته الطبيعية والفطرية والاجتماعية والثقافية أن يتصل بحقائق الوجود الحق: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(الشورى:٥٢-٥٣). وبما أن شبكته موئلها -في نهاية المطاف- واحد، فهي تصل في الختم إلى الحق الواحد ﴿أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾(الشورى:٥٣)، وهنالك يجد المؤمن لذة التعرف إلى الله جل وعلا.

بناء على ما تقرر من أن غاية الخلق الإلهي للإنسان إنما هي التعرف إلى الله جل علاه، فقد جعل له ﷻ وسيلة من أعظم الوسائل التعبدية، ألا وهي التعارف. فالإنسان بما هو مفطور خلقة على سنة الاجتماع البشري -إذ خلق من ذكر وأنثى وجعل شعوبا وقبائل- فقد خلقت أرواح الناس لتلك الغاية على ائتلاف واختلاف بقصد إنتاج التكامل المعرفي في طريق السير إلى الله تعالى. وهذا من أعجب السنن الإلهية في الخلق البشري وألطفها، وهو مفهوم من آية قرآنية وحديث نبوي شريف. فأما الآية فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣). وأما الحديث فهو قوله عليه الصلاة والسلام: «الأرواح جنود مُجنَّدة، فما تعارف منها ائْتلف، وما تناكر منها اختلف» (متفق عليه).

إن التعارف العمراني ضروري للإنسان، ليس فقط لأنه لا يمكن أن يعيش بصورة انفرادية اعتزالية، فهذا أمر بديهي، ولكن ليكون ذلك مقدمة لإنتاج حوار في المجال الروحي، والتداول المعرفي بحقيقة المعرفة بالله في طريق السير إلى الله.

إن العلاقات الأفقية على المستوى البشري العمراني في شبكة الاتصال المعرفية إذا أتيحت لها ظروف الحوار الهادئ الصادق، والتعارف البناء الواثق، تفضي في النهاية إلى علاقات عمودية متوازنة ترتفع بالإنسان إلى السماء في طريق معرفة الله، بل في طريق التكامل في تلك المعرفة.

إن هذا القرآن محفوظ بحفظ الله محروس بقدرته جل علاه، كما نص عليه القرآن بآيه المحكم وكما رسخته حقائق التاريخ الطويل. ومن هنا فإن كل من تعلق بمحفوظ فهو محفوظ بالضرورة.

مفهوم "الجمالية"
بين الفكر الإسلامي والفلسفة الغربية [١٢]

"الجمالية" أو "علم الجمال" مصطلح يستعمل في الفكر المعاصر للدلالة على تخصص من تخصصات العلوم الإنسانية التي تُعْنَى بدراسة "الجمال" من حيث هو "مفهوم" في الوجود، ومن حيث هو "تجربة" فنية في الحياة الإنسانية.

"فالجمالية" إذن؛ علم يبحث في معنى "الجمال" من حيث مفهومه وماهيته ومقاييسه ومقاصده. "والجمالية" في الشيء تَعْنِي أن "الجمال" فيه حقيقة جوهرية وغاية مقصدية، فما وُجِدَ إلا ليكون جميلا![١٣] وعلى هذا المعنى انبنت سائر "الفنون الجميلة" بشتى أشكالها التعبيرية والتشكيلية.

ومصطلح "الجمالية" أو "علم الجمال" ترجمة لكلمة "استطيقا"، وهي كلمة ولدت في رحم الفلسفة الغربية من الناحية الاصطلاحية خلال القرن

---

[١٢] مجلة حراء، العدد: ١ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٥م).

[١٣] يقول ولترت ستيس: "لقد نظر الاستطيقيون إلى الجمال على أنه الهدف الوحيد للفن. وهم على حق في ذلك. ولا يصح ذلك إلا إذا استخدمت كلمة "الجمال" بمعنى واسع إلى أقصى حد". (معنى الجمال: نظرية في الاستطيقا، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، نشر المجلس الأعلى للثقافة، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر ٢٠٠٠، ص:٤٩). ثم استعمل مصطلح "الجمالية" في الأدب الحديث للدلالة على أن "الجمال" هو القيمة الأولى للنص، وأنه لا عبرة بما لم يُبْنَ على ذلك؛ إذ الوظيفة الأولى للنص هي أن يكون جميلا. (جمالية الأدب الإسلامي للأستاذ محمد إقبال عروي: نشر المكتبة السلفية، ط:١، الدار البيضاء/المغرب ١٩٨٦م، ص:٤٩-٥٩)

الثامن عشر الميلادي. فقد كان الفيلسوف "باومجارتن" سنة ١٧٥٠م أول من سك هذا اللفظ، ثم انتقل استعماله إلى سائر الثقافات والعلوم الإنسانية كالأدب والفن.

إلا أن "الجمالية" من حيث هي مفهوم قديمة قدم الإنسان نفسه، وصاحبت الحضارات البشرية كلها بدون استثناء، واتخذت لها طابعا خاصا مع كل حضارة، كما كانت لها تجليات خاصة ومتميزة مع كل تجربة إنسانية مختلفة.(١٤) ولم تكن الحضارة الإسلامية بدعا من الحضارات الإنسانية جملة. ذلك أن "الجمال" في الإسلام أصل أصيل، سواء من حيث هو قيمة دينية: عَقَدِيَّةٌ وتشريعية، أو من حيث هو مفهوم كوني، وكذا من حيث هو تجربة وجدانية إنسانية. ومن هنا كان تفاعل الإنسان المسلم مع قيم الجمال ممتدا من مجال العبادة إلى مجال العادة، ومن كتاب الله المسطور إلى كتاب الله المنظور! مما خلد روائع من الأدب والفن التي أنتجها الوجدان الإسلامي في قراءته الراقية للكَوْنَيْن وسياحته الرائعة في العالَمَيْنِ: عالم الغيب وعالم الشهادة!

ولقد قاد الجهلُ بالتراث الإسلامي أو العمى الصليبي بعضَ فلاسفة الغرب إلى حصر التجربة الجمالية الإسلامية في مجال "الإدراك العقلي" دون "الإدراك الوجداني العاطفي"؛ واتهم التجربة الإسلامية بالفقر الفني والجمالي! فأقل ما يقال عن مثل هذا الاتهام أن صاحبه جاهل بحقيقة الإسلام وقيمه الجمالية من جهة، وبتجربة الأمة الإسلامية من جهة أخرى. أعني على المستوى الجمالي، في كل تجلياتها العربية وغير

(١٤) تلك هي القضية التي انبنى عليها موضوع كتاب البروفسور إتيان سوريو "الجمالية عبر العصور"، ترجمة د. ميشيل عاصي، منشورات عويدات، بيروت/باريس، ط:٢، ١٩٨٢م.

العربية: فارسيةً وهنديةً وتركيةً ثم مَالَوِيَّةً!

ولقد انبرى الفيلسوف الفرنسي المعاصر "إتيان سوريو" فيلسوف "الجمالية" وأستاذ علم الجمال في جامعة السربون بباريس[١٥] للدفاع عن هذه الحقيقة، ردًّا على بعضهم، لكنه مع ذلك لم يكن موفّقا كل التوفيق بسبب نقص المعطيات عنده عن قيم الجمال في الإسلام وعن تجربة المسلمين في ذلك المجال. يقول محيلا على اتهامات "بلزاك" في كتابه "الابن الملعون": "لطالما قيل -وعلى غير وجهٍ من حق- إن الفن العربي قد كان فنًّا إدراكيا لا يتوجه إلا إلى الفكر النظري المحض، وليست له أية قدرة على الإثارة العاطفية!"[١٦]. ثم يستطرد بعد ذلك مدافعا عن الجمالية الإسلامية، بشواهد من جمالية العمران وفن العمارة بالبلاد العربية والإسلامية، لكن -مع الأسف- بتحليلات هي أقرب إلى الخرافة منها إلى المقاييس العلمية للجمال!

يقول: "إن هذا الرأي هو خاطئ تماما! والحقيقة هي ما ذهب إليه من قبل "غايي (Gayet) عندما تحدث في كتابه: "الفن العربي" عن المشاعر التي تثيرها -من وجهة نظر الجمالية العربية- المعطيات الهندسية لذلك الفن بتفاصيلها وأشكالها. ولذا فهو يقول بأن الدوائر الهندسية إذا كانت زواياها المتعددة مزدوجة، فإنها "توقظ في النفس مشاعر عميقة مطبوعة بطابع الصفاء العذب"، أما إذا كان عدد زواياها مفردا فإنها تبعث على "الحزن المبهم والقلق والاضطراب". ويقول أيضا: "إن الصورة المتكونة من الجمع بين المربعات والمثمنات تبعث على فكرة السكون الأبدي،

---

[١٥] كان ذلك خلال سنوات الستينات من القرن الميلادي الماضي.

[١٦] الجمالية عبر العصور، ص:١٧٩.

أما تلك التي تنبثق من الأشكال ذات الزوايا التسع فإنها توقظ الإحساس بسر مبهم مضطرب!"[١٧]. كذا..!! والعجيب حقا هو كيف فهم "غايي" أن هذا التفسير الغريب للأشكال الهندسية هو "من وجهة نظر الجمالية العربية"، ثم كيف قبل منه الأستاذ "سوريو" هذا الهذيان ونقله على سبيل التبني في كتابه! لقد كان الأولى بـ"غايي" هذا أن يعرض أحواله المترددة ما بين "الصفاء العذب، والحزن المبهم، والقلق، والاضطراب" على طبيب نفسي خير له وللعلم من أن يفسر به أشكالا هندسية في صومعة، أو قبة مسجد، أو زوايا قلعة! لقد ضل كثير من مؤرّخي الجمالية الغربيين الطريقَ إلى معالم الجمال الحق في الإسلام، وأخطأوا مواطنَ علم الجمال في التجربة الإنسانية الإسلامية! فأنكرها بعضهم، وبقي البعض الآخر أسير الجدران والأسوار يحاول فك رموز النقوش وأشكال الزخارف، كما يحاول العالم الأركيولوجي فك رموز بدائية، في قطعة حجرية من عصور ما قبل التاريخ.

إن الجمالية الإسلامية تنبع أولا من حقائق الإيمان، إذْ تَشَكَّلَ الوجدانُ الإنساني فيها مما تلقاه من أنوار عن ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ اَلرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(الفَاتِحَة:٢-٣)، وما انخرط فيه بعد ذلك، سيرا إلى الله تعالى عبر أشواق الروح، مبدعا -باتباع تعاليم نبيه ﷺ- أروع ألوان التعبير الجمالي، من سائر أشكال العبادات والمعاملات والعلاقات، انطلاقا من حركته التعبدية في جمالية الصلوات ولوحاتها الحية الراقية وما يَنْظِمُهَا من عمران روحي ومادي، إلى هندسة المدائن الإسلامية بما تحمله من قيم روحية

---

[١٧] الجمالية عبر العصور، ص:١٨٠.

سامية، وقيم حضارية متميزة جدا، إلى سائر النشاط الإنساني الذي أبدعه المسلمون في علاقتهم بربهم وعلاقتهم بأنفسهم وبغيرهم، إلى علاقتهم بالأشياء المحيطة بهم، بدءً بالمسخَّرَات من الممتلكات والحيوان، إلى المحيط الكوني الفسيح الممتد من عالم الشهادة حولهم إلى عالم الغيب فوقهم... كل ذلك تفاعل معه المسلم؛ فأنتج أروع الأدبيات التعبيرية والرمزية، مما لا تزال تباريحه المشوقة بالمحبة، من الترتيل إلى التشكيل تفيض على العالَم بالجمال والجلال أبدًا.

إن العمارة الإسلامية -رغم ثرائها الجمالي الرفيـع- هي آخر ما ينبغي الاشتغال به لمن أراد أن يدرس الجمالية الإسلامية في مصادرها الأولى. لأن حصون المدائن وجدرانها إنما هي التجليات المادية المعبرة عن أشواق الروح، الفياضة عبر القباب والمآذن مندفعة بقوة نحو السماء. وإنما هي صورة التعبير الرمزي عن معاني الاحتضان العاطفي وقيم الأخلاق الاجتماعية والحنان الرَّيان بما امتازت به من حياء وتستر وانحناءات، تتلوى أضلاعها الخفاقة بالمحبة بين الدروب، تسلك بالرجال والنساء مسالك الحشمة الرقيقة والوقار العالي، إلى المساجد وإلى الغرفات والشرفات الكاشفة الساترة... ثم تنشر أسرارها نقوشا وزخرفة تتبادل الأدوار مـع أحرف الخط العربي بشتى أشكاله، في كلمات ناطقة حينا، وناظرة أحيانا أخرى... كلها تتدلى مثل العناقيد من بين الأقواس، تستقبل مواجيد المحبين وترد سلام المتبتلين، لتتوحد معهم في صلاة أبدية خالدة.

ولقد دَبَّجَ المسلمون في مصنفات المحبة والسلام تباريحَ الأشواق أنى مرساها، ووصفوا مقامات النور كيف مجراها، ورسموا كلمات

الجمال بما لا قِبَلَ به لأحد من العالمين.[١٨]

وكأنما الفرق في "الجمالية" بين مفهومَيْها الغربي والإسلامي كالفرق بين الطبيعة والتمثال أو بين الحقيقة والخيال. ولم تكن الصورة التي يبدعها المسلم ثابتة قارة يأكلها البِلَى في متحف "اللوفر" أو غيره من متاحف العالم، ولكنها صورة حية يشكلها بإبداعه اليومي بين ركوع وسجود، وطواف وسعي، أو بين صوم وتبتّل، وانقطاع يصله كليا بالملأ الأعلى... ثم مواجيد يتنفسها بعد ذلك كلماتٍ وكتاباتٍ ذات صورِ الجمالُ فيها له روح، صور لا تبلى أبد الزمان: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح:٢٩).

تلك صورهم الحية، فأين منها بسمة "الجوكاندا" المصطنعة الشاحبة، أو وجوه "بيكاسو" المتداخلة المتنافرة! هذه صور الجمال في الأدبيات الإسلامية ما تزال تتجدد عبر التاريخ أبدا، ولا يزال القارئ لها في كل مكان يشارك بمخيلته في إبداع الأشكال كما هو يريد، بحرية تتحدى آخر

[١٨] مثل كتاب كشف المحجوب للإمام الهجويري، ومنطق الطير لفريد الدين العطار، وهذا من الناحية الجمالية قطعة فنّية رائعة. ومثله مدارج السالكين لابن القيم، وكتابه حادي الأرواح، ونحو ذلك كثير. ومن أهم الموسوعات الجمالية في الفكر الإسلامي الحديث مجموعة: كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، ويتلوه في ذلك وارث سره الأستاذ فتح الله كولن في أغلب كتبه وعلى رأسها: "التلال الزمردية" وديوانه الشعري: "المضرب المكسور".

الصيحات في عالم الرسم والتشكيل. وليس عندهم صور ميتة يفرضها فنان على الناس فتستعبد مُخَيِّلَةَ الأجيال وتقتل إبداعهم. ومن هنا توجه الفن الإسلامي حضاريا -في الأعم الغالب- إلى الإبداع ضمن جمالية "التجريد". والتجريد في الحقيقة إنما هو لغة الروح، وريشة الوجدان. يقول "إتيان سوريو": "والحقيقة التي لا بد من التنويه بها كذلك، هي أن الروحية الإسلامية تحترس على الأخص من مخاطر الفن التجسيمي، وتجد لها ضمانات كبرى في استعمال الفن التجريدي. من هنا، ومن هـذه الوجهة خصوصا، يجب تفسير الوضع الجمالي للفن الإسلامي من الناحية التجريدية. أضف إلى ذلك أن الفن التجريدي هو بالضبط الفن الذي يستجيب في العالم العربي لما تقتضيه الحاجة الجمالية اقتضاء شديدا ودقيقا"[١٩].

إن لغة التجريد في الفن الإسلامي هي التي تصنع حركة الحياة الفعلية في المجتمع، حيث تتفتق جماليتُها المتجددة سلوكا حضاريا راقيا، وعلاقات اجتماعية مفعمة بالود والمحبة والسلام، تتضافر جميعها في نسيج عمراني يرقى إلى درجة المثال، وذلك بما يفيض من وجدان الإنسان المسلم من تباريح الإيمان وأشواق الروح.

وما قتل الفن الغربي شيء مثل الولع بسجن الإبداع في الصور الجامدة الثابتة، ولو في حركتها الوهمية الاصطناعية. وعليه فإن الوضع الفني في أوروبا قد وصل فعلا إلى الباب المسدود. يقول فيلسوف الجمالية المعاصر: "إذا أخذنا الفن أداة للحكم على الحاجات الجمالية

---

[١٩] الجمالية عبر العصور، ص:١٧٩.

لوقْتنا الحاضر، نجدها قد أصيبت بتغييرات جذرية منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى اليوم. فالزائر الذي يتجول في أرجاء متحف للفن الحديث، لو انتقل من قاعة تضم لوحات انطباعية إلى قاعة أخرى تضم لوحات حديثة من الفن التجريدي أو التجسيمي، لاجتاحه -ولا ريب- شعور بالانتقال من عالم إلى عالم آخر، وإحساس بالغربة عميق. ولنقابل المسألة هنا بكل حدتها، فلا نتردد بالقول بأن هذا الزائر نفسه (...) قد تسول له نفسه أن يتحدث عن خط انحداري ومسيرة تقهقرية في الفن"[٢٠]، إلى أن يقول -بعد وصف مآل بعض أنواع الفن الأخرى- بحدة نقدية شديدة: "ولا شك في أن من يراقب هذا التبديل المفاجئ سيجد نفسه مدفوعا إلى القول بأن ما يسمعه ويشاهده ليس إلا رجعة إلى حالة من البدائية والتوحش"[٢١].

إلا أنه لا بد من البيان أن معاني الجمال في الإسلام، من صفاء الروح، ومنازل الإيمان، وأحوال الإحسان، لم يستفد منها جمهور كبير من أبناء الصحوة الإسلامية المعاصرة لأسباب شتى، منها اشتهار نسبة بعض مفاهيمها وألفاظها إلى المتصوفة؛ فكان أن زهد كثير من الناس فيها بسبب ما خالط بعض كتبهم من شطحات.[٢٢] وإنما هي عبارات قرآنية أو نبوية محضة. نعم، ربما اكتسبت في سياق الاستعمال التاريخي دلالات منحرفة في بعض الأحيان، فيكون الواجب هو تحريرها منها، لا إلغاءها والتنكر لها.

إنه ما ينبغي لذلك أن يعمينا عن جمال الدين، وإنما خاطبنا الله تعالى

---

[٢٠] الجمالية عبر العصور، ص:٢٧٣-٢٧٤.

[٢١] الجمالية عبر العصور، ص:٢٧٥-٢٧٦.

[٢٢] لقد غالى بعضهم في الهجوم على التصوف، ولم يفرقوا في أقوال القوم بين حق وباطل.

بالجمال، وأمرنا أن نرحل إلى منازله العليا، ونسير إليها سيرا لا يفتر ولا ينقطع حتى يدركنا اليقين. لا ينبغي للمؤمن الكَيِّسِ الفَطِنِ أن تعميه غلطات بعض الناس -مهما قبحت- عن محاسن الدين، فيقنع في دينه بظواهر الألقاب ويرمي بعيدا باللباب. إذن يكون من الجاهلين، كيف والجمال هو الدين؟!

إن الصحوة الإسلامية المعاصرة لفي أشد الحاجة إلى تربية ذوقية فنية، ترهف حسها بمواطن الجمال، الموجِّهةِ لكل شيء في هذا الدين، عقيدةً وشريعة. ولقد انتبه السابقون إلى ذلك وانبهروا به فسارعوا إلى الالتحاق بقوافل المحبين. وكان منهم مُصَنِّفُون ذَوَّاقُون، نبهوا إلى هذه المعاني، من أمثال الحسن البصري والإمام المحاسبي والإمام الجنيد وابن الجوزي والإمام عبد القادر الجيلاني والإمام ابن القيم والإمام أبي عبد الله الساحلي المالقي والإمام الشاطبي والإمام أحمد زروق المغربي وغيرهم كثير، رحمهم الله أجمعين.

ألا ما أحوجنا اليوم إلى إعادة القراءة للدين، في مصادره العذبة الصافية الجميلة، قراءة تصل المسلم بالله، قبل أن تكون قراءة ينتقم بها لنفسه من الظلم الاجتماعي والطغيان السياسي، فيكون بتدينه عدوا للدين من حيث يدري أو لا يدري.

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾(آل عمران:٨)، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾(الحشر: ١٠).

ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مفهوم "الجمالية" في الإسلام من الترتيل إلى التشكيل [23]

جمال الإنسان

الإنسان جميل، بل هو أجمل مخلوق في الأرض، وتلك حقيقة قرآنية ووجودية؛ ذلك أن مصادر الدين في الإسلام تحدثنا أن الله قد خلق الإنسان في أجمل صورة وأحسنها، وقارن بينه وبين سائر الحيوانات -وهي غاية في الجمال- ظاهرا وباطنا. قال ﷻ: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾(غافر:٦٤) وصح عن النبي ﷺ قوله: «خلق الله آدم على صورته»(متفق عليه)، ثم جعل له الكون من كل حواليه جميلا، وحسنه تحسينا، عساه يكون في تدينه حسنا جميلا. قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(الكهف:٧) فالزينة الكونية مبعث وجداني للتحلي بالزينة الإيمانية.

إن الناظر في هذا العالم الكوني الفسيح، يدرك بسرعة أن الإنسان يعيش في فضاء فنّي راق؛ بيئة واسعة بهية هي آية من الجمال الذي لا يبارى؛ بدءً بالأرض حتى أركان الفضاء، الممتدة بجمالها الزاخر في المجهول، تسير في رونق الغرابة الزاهي، إلى علم الله المحيط بكل

---

[23] مجلة حراء، العدد: ٢ (يناير-مارس ٢٠٠٦م).

شيء. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾(الحجر:٦١) وجعل الأرض الحية تتنفس بالجمال نِعَمًا لا تحصى ولا تنتهي: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(الأعراف:٢٣). وأرشد ذوق الإنسان إلى تبين معالم هذا الجمال في كل شيء: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾(النحل: ٥-٦).

ثم انظر إلى هذا الجمال المتدفق كالشلال، من الآيات التاليات؛ يقول سبحانه بعد الآية السابقة بقليل، في سياق الْمَنِّ بهذه النعم الجميلة الجليلة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(النحل:١٠-١٢).

بانوراما الأرض

إنها صورة كلية شمولية ذات ألوان وأنوار حية متحركة، إنها "بانوراما" كاملة للأرض بتضاريسها وبحارها وأشجارها وأنهارها وأحيائها جميعا. ثم بفضائها الرحب الفسيح بما يملأ ذلك كله من حركة الحياة، والنشاط الإنساني بكل صوره مما أتيح له في هذه الأرض وفضائها من المسخَّرات الحيوية. هذا كله هو قصرك الزاهي أيها الإنسان، ومجالك الواسع، محاطا بكل آيات التسخير وكرامات التدبير، المتدفقة بين يديك بكل ألوان النعم والجمال، لتصريف العمر كأعلى ما يكون الذوق، وكأجمل

ما تكون الحياة.

وفي سورة الأنعام صور تنبض بجمال الخصب والنماء، جمال أرْضِيّ لا يملك معه من له أدنى ذرة من ذوق سليم إلا أن يخضع لمقام الجمال الأعلى، الجمال الرباني العظيم. قال جل جلاله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام:٩٩). ويلحق بها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر:٢٧-٢٨).

فالصورة تبتدئ -في الآيات الأولى ثم التي بعدها- من لحظة نزول المطر، إلى لحظة خروج النبات والشجر من التربة الندية، إلى مرحلة خروج الحب المتراكب في السنابل، وخروج القِنْوَان، (أي: العراجين والعُذُوق المثقلة بالفاكهة) بجمالها وبهائها، ثم ما يلامسها بعد ذلك من نضج وينـع، فتراها -وقد تهيأت للقِطاف- متدليةً خلال خمائل الجنات والبساتين، ناظرة إلى الناس في دلال خلاب. والآيات لا تغفل الحركة الحية للألوان، في تطورها من الخضرة إلى سائر ألوان النضج والينـع، مما يتاح للخيال أن يتصوره -تَوَرُّدًا واصْفِرَارًا واحْمِرَارًا واسْوِدَادًا... إلخ- في الزروع والتمور والأعناب والزيتون والرمان ونحوها، إلى ما يحيط ذلك كله أو يتخلله من ألوان الجبال وجُدَدِهَا، وهي: مسالكها أو خطوطها

والتواءاتها المتشكلة منها، وهي غالبا ما تكون ذات انحناءات مختلفة الألوان، كما قال الله تعالى بيض وحمر إلى ما يزينها من غرابيب سود، وهي الصخور الناصعة السواد... إلى حركة اللون المنتشرة هنا وهناك في الحيوان والإنسان، مما لا يملك المؤمن معه إلا أن يكون من الساجدين لمن أفاض على الكون بهذا الجمال كله، الجمال الحي المتجدد. وإنها لآيات تربي الذوق الإنساني على جمالية التوحيد والتفريد، مما تعجز الأقلام والألوان عن تجسيد صورته الحية النابضة، وأي ريشة في الأرض قادرة على رسم الحياة!؟

وإنني لو قصدت إلى استقصاء جماليات القرآن الكريم من السور والآيات لجئت به كله، فهذه عباراته الصريحة وإشاراته اللطيفة كلها، كلها مشعة بتوجيهات ربانية لتربية الذوق الإنساني حتى يكون في مستوى تمثل مقاصد الدين البهية، بتدينه الجميل. فهل عبثا نصَّ القرآنُ على جمالية الكون والنعم والحياة؟ وهل عبثا نبّه القرآن الحس البشري الإسلامي، وربَّاه لالتقاط دقائق الحسن والبهاء في مناظر الفضاء والأرض والجبال والشجر والنبات والبحار والأنهار والأنوار والأطيار؟!

إن الله تعالى خلق الحياة على مقاييس الجمال الإلهية الباهرة الساحرة، وأرسل الرسل بالجمال ليتدين الناس على ذلك الوِزان وبتلك المقاييس. ولذلك قال النبي محمد ﷺ سيد الأتقياء، وإمام المحبين: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال» (رواه مسلم). وفيه زيادة صحيحة: «ويحب معالي الأخلاق ويكره سِفْسافَها» (رواه الطبراني وابن عساكر)، مما يشير إلى أن الجمال مطلوب في أداء المسلم شكلا ومضمونا، مبنى ومعنى، رسما ووجدانا.

مواكب الجمال

فليكن الدين إذن سيرا إلى الله في مواكب الجمال ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(الأعراف:٢٩-٣٠).

وإنها للطافة كريمة أن يجمع الحق سبحانه في مفهوم الدين من خلال هذه الكلمات النورانية بين جمالين؛ جمال الدين وجمال الدنيا: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ليكون ذلك كله هو صفة المسلم.

ولقد حرص الرسول ﷺ على تربية صحابته الكرام على كل هذه المعاني. وكيف لا، وهو أول من انبهر بجمال ربه وجلاله، فأحبه حتى درجة الخلة. قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه يوما: «لو كنت متّخذا من أهل الأرض خليلاً لاتّخذت ابن أبي قحافة [أبا بكر] خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله»(رواه مسلم)، وصح ذلك عنه ﷺ في سياق آخر: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا»(رواه مسلم). وكان يعلّمهم كيفية سلوك طريق المحبة بعبارات وإشارات شتى، ما تزال تنبض بالنور إلى يومنا هذا، فانظر إن شئت، إلى قوله ﷺ: «أنتم الغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله!»(رواه مسلم)، و"الغرة" بياض في ناصية الحصان، و"التحجيل" بياض في يديه؛ فتلك سيم الجمال في وجوه المحبين وأطرافهم يوم يرِدُون على المصطفى ﷺ، وهي سيم «ليست

لأحد من الأمم» (متفق عليه)، بها يعرفون في كثرة الخلائق يوم القيامة، كالدر المتناثر في دجنة الفضاء.

هذه ومضة الإبراق النبوي تبشّر برشح الأنوار على أطراف المتوضئين الساجدين، رشحا لا يذبل ومِيضه أبدا!

النبي الكريم ميز جمال المحبين وسط الزحام واحدا واحدا، قال ﷺ: «ما من أمتي من أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة! قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائق؟ قال: "أرأيت لو دخلتَ صُبْرَةً [محجرا] فيها خيلٌ دُهْمٌ بُهْمٌ، وفيها فرَسٌ أغَرُّ مُحَجَّلٌ، أما كنتَ تعرفه منها؟" قالوا: بلى. قال: "فإن أمّتي يومئذ غُرٌّ من السجود، مُحَجَّلون من الوضوء!» (رواه أحمد)، فأي تذويق فني هذا للدين، وأي ترقية لطيفة للشعور هذه وأي تشويق؟!

ولم يفتأ النبي ﷺ يرقي الذوق على مستوى التصرف والسلوك، ليس في مجال المعاملات فحسب، ولكن أيضا في مجال الدعوة والإرشاد. وليس قوله ﷺ: «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف» (رواه البخاري)، وقوله: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» (متفق عليه)، وقوله أيضا في فرض الإحسان على المؤمن في كل تصرفاته وأعماله التعبدية والعادية: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء» (رواه مسلم)، إلا نموذجا لعشرات الأحاديث المنضوية تحت هذا المعنى الكلي الكبير: الإحسان في كل شيء؛ في الشعور والأخلاق والمعاملات والتصرفات والسلوك.

أسس الجمالية في الإسلام

ومن هنا -بعد هذه الشواهد النموذجية والمقارنات التقريبية- يمكن

أن نخلص إلى أن أسس "الجمالية" في الإسلام تقوم على أركان ثلاثة، هي: "المتعة" و"الحكمة" و"العبادة". وباجتماعها جميعا في وعي الإنسان ووجدانه يتكامل المفهوم الكلي لـ"الجمالية في الإسلام".

١- الحكمة

فأما الحكمة فمعناها -هنا- أنه ما من "جمال" إلا وله هدف وجودي، ووظيفة حيوية، يؤديها بذلك الاعتبار. ذلك أنه ما من جمال في هذا الكون إلا وهو رسالة ناطقة بمعنى معين، هو حكمة وجوده ومغزى جماليته. فليس جميلا لذاته فحسب بل هو جميل لغيره أيضا. فعند التأمل في كل تجليات الجمال في الطبيعة، تجد أنها تؤدي وظائف أخرى هي سر جماليتها، من مثل الأهداف التناسلية الضرورية لاستمرار الحياة في الكائنات من الإنسان والحيوان والطيور والنبات... إلخ.

ففي هذا السياق تقع استعراضات الجمال الخارق مما وهبه الله للكائن الحي؛ لإنتاج الشعور بالجمالية مما ينتج عنه أروع التعابير اللغوية أو الرمزية، على جميع المستويات البشرية والحيوانية والطبيعية عموما، كل على درجة طبقته الفطرية من الوعي بالحياة والوجود الخِلقي. وما ذلك كله في نهاية المطاف إلا ضربا من قوانين التوازن في الحياة، واستقرار الموجودات والخلائق، تماما كما هو دور قانون الجاذبية في استقرار الحياة الأرضية، وتوازن الأجرام والكواكب في الفضاء. فالإحساس الجمالي -بما فيه من عواطف جياشة لدى الإنسان مثلا- ما هو إلا وسيلة وجودية لاستمراره وتوازنه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۝ وَمِنْ أَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ

أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الروم:٢٠-٢١).

ونفس الحقيقة الجمالية التي نراها في الطبيعة والجبال والبحار والنجوم... إلخ؛ ما هي -رغم التصريح القرآني بجماليتها في مقاصد الخلق- إلا مخلوقات تؤدي وظائف في سياق التدبير الإلهي للكون، خلقًا وتقديرًا ورعايةً. ومن ذلك قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾(البقرة:١٨٩)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾(يونس:٥)، مشيرا بذلك إلى أن وظيفة الأقمار والأفلاك إنما هي إنتاج مفهوم الزمان؛ لتنظيم الحياة الكونية والإنسانية في أمور المعاش والمعاد معا، أي مجال العادات والعبادات على السواء. وكذلك ما ذكره الله من الوظيفة الجيولوجية والتسخيرية للجبال والأنهار والمسالك، في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(النحل:١٥-١٦).

فكل المشاهد الجميلة في الحياة والكون -كما عرضها القرآن الكريم- لا تخرج عن هذا القانون الكلي، من حكمة الوجود ووظيفة الخلق.

٢- المتعة والإمتاع

وأما الركن الثاني للجمالية في الإسلام فهو المتعة والإمتاع، سواء في ذلك ما هو على المستوى الحسي أو ما هو على المستوى النفسي والذوقي، أعني العاطفي والوجداني. ومعنى ذلك أن الله جل جلاله خلق في الإنسان مجموعة من الحاجات، كحاجته إلى الطعام والشراب

واللباس، فكانت منها حاجة التمتع والاستمتاع بالجمال من حيث هو جمال. ومن هنا سعيه الدائم إلى البحث عنه والانجذاب إليه، وهذا صريح في كثير من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة.

ومن ذلك أن تلك الحقائق الكونية نفسها التي ذُكرت في سياق هدفها الوجودي، وحكمتها الْخِلْقِيَّة، هي عينها ذُكِرَتْ لها أهداف إمتاعية في مساقات أخرى. قال تعالى مصرحا بفوائد الأنعام والبهائم الإمتاعية (الجمالية)، إلى جانب منافعها التسخيرية: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(النحل:٥-٨).

فقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ثم قوله بَعْدُ: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾، دال بوضوح -بما في السياق اللغوي من حروف التخصيص والتعليل- على قصد إشباع الحاجة الجمالية للإنسان، إلى جانب حاجته البيولوجية إلى الطعام والشراب، وسائر حاجاته المعيشية من الخدمات.

وعلى هذا يجرى ما ذكر في القرآن من مشاهد الجمال والتزيين.

٣- العبادة

وأما الركن الثالث فهو العبادة. العبادة بما هي سلوك وجداني جميل، يمارسه الإنسان في حركته الروحية السائرة نحو رب العالمين، الله ذي

الجلال والجمال. وهذا من الوضوح بمكان حيث إن النصوص التي ذكرت قبلُ كافية في إثباته وبيانه. ذلك أنه هو الركن الغائي من خلق الجمال نفسه، بل هو غاية الغايات من الخلق كله، وما به من حقائق الزينة والْحُسْنِ المادية والمعنوية على السواء.

إن إشباع الحاجات الجمالية لدى الإنسان لو تأملتها تجدها لا تخرج عن معنى حاجة الإنسان الفطرية إلى التعبد والسلوك الروحي. ولذلك فإن الإنسان الغربي إنما يمارس بإبداعه الجمالي ضربا من العبادة الخفية أو الظاهرة التي يوجهها نحو الطبيعة حينا، ونحو ذاته أحيانا أخرى. إنه بدل أن يسلك بإنتاجه الجمالي مسلك التعبد لله الواحد الأحد، مصدر الجمال الحق، وغايته المطلقة في الوجود كله؛ ينحرف بها إلى إشباع شهواته أو أهوائه. ثم يمارس نوعا من الوثنية المعنوية أو المادية. ولذلك كانت فنونه الجميلة تميل إلى التجسيم والتشكيل، محكومة بمثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾(الأعراف:١٤٨).

من هنا إذن أطَّرَ الإسلامُ الجماليةَ بمفهوم العبادة؛ حتى يصح الاتجاه في مسيرة الإبداع، ويستبصر الفنان بتواضعه التعبدي مصدرَ الجمال الحق؛ فيكون إبداعه على ذلك الوزان، وتتجرد مواجيده لتلك الغاية، وتلك هي جمالية التوحيد، عسى أن يستقيم سير البشرية نحو نبع النور العظيم، النور الذي هو ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(النور:٣٥).

والعبادة في الإسلام سلوك جمالي محض. وذلك بما تبعثه في النفس من أنس وشعور بالاستمتاع. فالسير إلى الله عبر الترتيل والذِّكْرِ والتدبر والتفكر والصلاة والصيام وسائر أنواع العبادات إنما هو سير إليه تعالى في

ضوء جمال أسمائه الحسنى بما هو رحمن رحيم مَلِكٌ قدوس سلام... إلخ. وليس عبثا أن رسول الله ﷺ كان يصف الصلاة بما يجده فيها من معاني الراحة الروحية، ويقول لبلال ﷺ: «يا بِلالُ! أَقِمِ الصلاةَ!.. أَرِحنا بها!» (رواه أحمد وأبو داود).

ومن العجيب حقا أنه عليه الصلاة والسلام ذكر متع الدنيا وجماليتها فجعل منها الصلاة، مع العلم أن الصلاة عمل أخروي لا دنيوي، وذلك قوله الصريح الواضح: «حُبِّبَ إليَّ من الدنيا النساء والطِّيب، وجُعل قُرَّةُ عَيني في الصلاة» (رواه النسائي) وتوجيه الحديث دال بسياقه على أنه ﷺ أحب من الدنيا جماليات النساء والطيب وما يوحي به الأمران من جمال العواطف والمظاهر، ويقول في السياق نفسه: «وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلاَة» أي كمال سعادتي وجمال لذتي في صلاتي لله الواحد القهار. وذلك لما كان يجده ﷺ من أنس وراحة تامَّين على مستوى الوجدان الآني الدنيوي، بغض النظر عن المآلات الأخروية؛ لأن التعبير صريح في تصنيف الصلاة في هذا السياق ضمن محبوبات الدنيا. وقد أُثِرَ عن غير واحد من السلف والزهاد تعلُّقُهم بالدنيا لا من أجل ذاتها ولكن من أجل ما يجدون فيها من لذة العبادة، وجمالية السير إلى الله، وهذا من أدق المعاني وألطف الإشارات الوجدانية.

فالجمالية الإسلامية إنما تكتمل بهذه الأركان الثلاثة جميعا: "الحكمة" و"المتعة" و"العبادة". وعليه، فإن السلوك الإسلامي انطلق متحليا بجماليته إلى جميع مناحي الحياة الفنية والإبداعية والثقافية والعمرانية والأخلاقية والاجتماعية. فكانت له في كل ذلك تجليات خاصة تتميز بخصوص المفهوم الإسلامي للجمال.

العقيدة الإسلامية
بين جمال القرآن وتقسيمات علم الكلام [٢٤]

كلمة البدء في الإسلام هي "لا إله إلا الله"، وهي كلمةُ سِرٍّ، سر في غاية اللطافة والبهاء. نعم، كل المسلمين يقولونها، ولكن القليل منهم هم الذين يتذوقونها حقا؛ ذلك أن انصرافهم إلى التصورات الكلامية في مجال العقيدة قد صرفهم عن فضاءاتها الجميلة ومواجيدها الجليلة.

الإسلام عقيدة تربوية في الأساس

إن عقيدة الإسلام لم تكن في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية إلا لمسة تربوية ذات أثر روحي عميق على الوجدان والسلوك. وقد كان المسلمون عندما يتلقونها بعباراتها القرآنية الجليلة، يتفاعلون معها تفاعلا عجيبا؛ إذ يتحولون بسرعة وبعمق كبير من بشر عاديين مرتبطين بعلائق التراب إلى خلائق سماوية تنافس الملائكة في السماء، وما هم إلا بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. ولذلك حقق الله بهم المعجزات في الحضارة والتاريخ.

إن الكيمياء الوحيدة التي كانوا يتفاعلون بها هي "لا إله إلا الله"، لكن ليس كما صورها علم الكلام بشتى مدارسه ومذاهبه، وإنما كما عرضها

---

[٢٤] مجلة حراء، العدد: ٥ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٦م).

القرآن آيات بينات ومحكمات.

إن التقسيمات الكلامية للعقيدة الإسلامية التي أملتها ضرورة حجاجية حينا، وضرورة تعليمية حينا آخر، ليست ذات جدوى في عالم التربية الإيمانية، لخلوها من روحها الرباني وسرها التعبدي الذي لا تجده إلا في كلمات القرآن وأحرفه: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول "الم" حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» (رواه الترمذي).

ثم إن التعبير عن حقيقة الذات الإلهية لا يكون على كمال صدقه، جلالا وجمالا، إلا إذا كان بما عبر الله به عن ذاته سبحانه وصفاته. وما كان للنسبي المحدود أن يحيط وصفا وعلما بالمطلق غير المحدود. ومن هنا كان التوقيف في مجال التعبير العقدي في الإسلام.

تفعيل العقيدة

كثير من الناس يتكلم في العقيدة اليوم ولكن قليلا منهم يتفاعل معها؛ لأن العلم الجدلي ما كان له أن يؤتي ثمارا قلبية، وهو قد أنتج أساسا لإشباع رغبات العقل المماري، لا لإشباع حاجات القلب الساري. وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يخاطب بالعقيدة الإيمانية العقول، خطابا ينفذ من خلالها إلى القلوب، حيث تستقر بذرة، تنبت جنات وأشجارا.

إن السر الذي تتضمنه عقيدة "لا إله إلا الله"، والذي به غيرت مجرى التاريخ مرات ومرات، والذي به صنعت الشخصيات التاريخية العظيمة في الإسلام، إنما يكمن في "جمالها". الجمال، ذلك الشيء الذي لا يدرك

إلا بحاسّة القلب. إنه إحساسُ: "كم هو جميل أن يكون المرء مسلما!". ودون هذا الإدراك اللطيف للدين، إدراكات أخرى من أشكال التدين، لا تغني من الحق شيئا.

لقد ضاع صفاء الدين وجماله السماوي في غبار التأويلات ورسوم التقسيمات. وقد ذم قوم "الكلامَ"، لكنهم لم يدركوا أنهم في خضم الصراع المذهبي ردوا وقسموا "فتكلموا"، وسقط عنهم بذلك بهاء الدين وجماله وهم لا يشعرون؛ أو -على الأقل- لم يترك ذلك في الأتباع لمسات الجمال، وأذواق الصفاء في السلوك الذي يصنفون به على أنهم "مسلمون". فكانت التصورات في واد، والتصرفات في واد آخر. وذلك لعمري هو الخسران المبين.

إن القرآن الكريم والسنة النبوية يقولان لنا حقيقة جليلة عظيمة، لم يستطيع أن يوصلها إلينا علم الكلام، هي أن "عقيدتنا جميلة".

جمالية العقيدة

ولكَم هو مؤسف حقا أن يضيع هذا المعنى من تدين كثير من المسلمين اليوم، فلا يرون في الدين إلا خشونة وحزونة. هذا التخشب في الأقوال والفعال الذي سيطر على تدين كثير من الناس اليوم؛ إنما كان لأسباب سياسية واجتماعية مختلفة، ليس هذا مجال بيانها. ولا يجوز أبدا أن تكون مسوغا للانحراف عن بهاء الدين وجماله. وإنما أنزله الله ليكون جميلا، تتذوقه القلوب، وتتعلق به الأنفس؛ فلا تستطيع منه فكاكا، فتُسْلِمُ -بجذبه الخفي وإغرائه البهي- لله رب العالمين.

"لا إله إلا الله" -إذ يقولها العبد مستشعرا دلالتها اللطيفة- كلمة "قلبية"

مدارها على وصف حال، والاعتراف بذوق صفات الكمال والجلال. إنها تعبير عن الخضوع الوجداني التام لله. نعم، قلت "الوجداني" لأنها -ببساطة- كذلك وردت في سياقها القرآني الأصيل.

ولو تأملت هذه العبارة العظيمة في اللغة، لوجدتها تقوم على لفظتين أساسيتين، هما مدار الإسلام كله: "الله" و"الإله".

فأما كلمة: "الله" فهو لفظ الجلال، الاسم العَلَم على الذات الإلهية، الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات الإلهية العُلَى. ولفظ "الله" فرد في اللغة، فلا يجمع ولا يتعدد.

وأما كلمة "الإله" فهو لفظُ وصفٍ، يدل على معنى شعوري قلبي؛ ولذلك فهو يتعدد، إذ يجمع على "آلهة". وأما باقي العبارات في "لا إله إلا الله" فهي "لا" النافية، و"إلا" الحاصرة، تقومان بدور البناء والتركيب اللغوي؛ للنفي والإثبات الذي يربط نوع العلاقة في قلب المؤمن بين الوصف "إله" والاسم "الله". وحقيقة تلك العلاقة هي ما يهمنا في هذا البحث. إنها علاقة تملأ الوجدان بما يفيض به قلب العبد المعبّر بها حقا وصدقا من الاعتقاد والشعور تجاه مولاه جلّ علاه.

ذلك أن كلمة "إله" في أصل الاستعمال اللغوي كلمة قلبية وجدانية، كما ذكرنا. أعني أنها لفظ من الألفاظ الدالة على أحوال القلب كالحب والبغض والفرح والحزن والأسى والشوق والرغبة والرهبة... إلخ. أصلها قول العرب: "أَلِهَ الفَصيلُ - يَأْلَهُ - أَلَهًا" إذا ناح شوقا إلى أمه. والفصيل ابن الناقة إذا فطم، وفصل عن الرضاع، يحبس في الخيمة وتترك أمه في المرعى، حتى إذا طال به الحال ذكر أمه وأخذه الشوق والحنين إليها -وهو آنئذ حديث عهد بالفطام- فناح وأرغى رغاء أشبه ما يكون بالبكاء،

فيقولون: "أَلِهَ الفصيلُ" فأمه إذن ههنا هي "إلهه" بالمعنى اللغوي، أي ما يَشُوقُه. ومنه قول الشاعر: "أَلِهْتُ إليها والرَّكائِبُ وُقّفٌ".

جاء في "لسان العرب" اسم "الله": "تَفرَّد سبحانه بهذا الاسم، لا يشركه فيه غيره، فإذا قيل: "الإله" انطلق على الله سبحانه وعلى ما يعبد من الأصنام. وإذا قلت "الله" لم ينطلق إلا عليه سبحانه وتعالى. وقيل في اسم الباري سبحانه: إنه مأخوذ من أَلِهَ–يَأْلَهُ: إذا تحيَّرَ، لأن العقول تَأْلَهُ في عظمته. وأَلِهَ يَألَهُ أَلَهًا: أي تحيَّرَ، وأصله وَلِهَ يَوْله وَلَهًا. وقد أَلِهْتُ على فلان: أي اشتد جزعي عليه مثل وَلِهْتُ. وقيل: هو مأخوذ مِن أَلِهَ–يَأْلَهُ إلى كذا، أي: لجأ إليه؛ لأنه سبحانه الْمَفْزَعُ الذي يُلْجَأُ إليه في كل أمر"[٢٥]. إذ "الإله" في هذا السياق اللغوي هو: ما يَشُوقُ القلب، ويأخذ بمجامع الوجدان، إلى درجة الانقياد له والخضوع، قال ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(الجاثية:٢٢).

والراجح فعلا أن "أَلِهَ" هو من "وَلِه" ومنه اشتق الاسم العلم "الله"؛ لأن مدار كلا المادتين على معاني القلب، فأبدلت من الواو همزة. قال الراغب الأصفهاني: "أَلَه (فلانٌ)–يأله: عَبَدَ. وقيل: أصله وِلاه، فأبدل من الواو همزة، وتسميته بذلك لكون كل مخلوق والِهًا نحوه، إما بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات، وإما بالتسخير والإرادة كبعض الناس، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء: الله محبوب الأشياء كلها"[٢٦].

و"الوَلَهُ": هو الجنون الحاصل بسبب الحب الشديد، أو الحزن الشديد، يقال: امرأة وَلُوهٌ: إذا أحبّت حتى جنت، أو إذا ثكلت؛ فحزنت حتى جنّت.

---

[٢٥] لسان العرب، ابن منظور، مادة "أله".

[٢٦] المفردات في غريب القرآن، راغب الأصفهاني، مادة "أله".

قال ابن منظور: "الْوَلَهُ: الحزن. وقيل هو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد، أو الحزن أو الخوف. والوله: ذهاب العقل لفقدان الحبيب. وناقة مِيلاهٌ: هي التي فقدت ولدها فهي تَلِهُ إليه. يقال: وَلَهَتْ إليه تَلِهُ أي تحنّ إليه وناقة وَالِهٌ: إذا اشتد وجدها على ولدها"(٢٧).

عقيدة حب ووجدان

وهكذا فأنت ترى أن مدار المادتين "أله" و"وله" هو على معان قلبية، ترجع في مجملها إلى التعلق الوجداني والامتلاء بالحب، فيكون قول المؤمن "لا إله إلا الله" تعبيرا عما يجده في قلبه من تعلق بربّه تعالى، أي لا محبوب إلا الله، ولا مرهوب إلا الله، ولا يملأ عليه عمارة قلبه إلا قصد الله.

إنه أشبه ما يكون بذلك الفصيل الصغير الذي ناح شوقا إلى أمه، إذْ أحس بألم الفراق ووحشة البعد. إن المسلم إذ "يشهد" ألا إله إلا الله، يقر شاهدا على قلبه أنه لا يتعلق إلا بالله رغبةً ورهبةً وشوقًا ومحبةً. وتلك لعمري "شهادة" عظيمة وخطيرة، لأنها إقرار واعتراف بشعور، لا يدري أحد مصداق ما فيه من الصدق إلا الله، ثم الشاهد نفسه. ومعاني القلب لا تحد بعبارات ولا تحصرها إشارات، ومن هنا كانت شهادة "ألا إله إلا الله" من اللطافة بمكان، بحيث لا تدرك على تمام حقيقتها إلا ذوقا.

قال ابن القيم رحمه الله: "إن محبة العبد لربّه فوق كل محبة تقدر، ولا نسبة لسائر المحابّ إليها، وهي حقيقة لا إله إلا الله!"(٢٨)، إلى أن يقول

(٢٧) لسان العرب، ابن منظور، مادة "وله".

(٢٨) مدارج السالكين لابن القيم، ١٨/٣.

في نص نفيس تشد إليه الرحال: "فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله. فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل. فإذا خلا منها فهو ميّت لا روح فيه. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام. فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله.. فمن لا محبة له لا إسلام له البتّة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله. فإن "الإله" هو الذي يألهه العباد حبا وذلا، وخوفا ورجاء، وتعظيما وطاعة له، بمعنى "مألوه": وهو الذي تألهه القلوب، أي تحبه وتذل له.. فالمحبة حقيقة العبودية"[٢٩].

معنى الإسلام

ذلك أن معنى "الإسلام" هو الخضوع لله رب العالمين، والاستسلام لأمره تعالى. إنه الاعتراف الوجداني، أي التعبير العملي عن الشعور الحقيقي الذي يلامس القلب، عندما يدرك العبد و"يجد" أنه "عبد" لسيد هذا العالم العظي.! وحقيقة كون المسلم عبدا هي الحقيقة التي تغيب عن أكثر المسلمين، فيحدث بسبب ذلك الانحراف بشتى ألوانه وأشكاله.

إن "العبد" مسلوب الإرادة. ليس بالمعنى الكلامي ولكن بالمعنى الوجداني، أعني أن تجد الشعور بأنك -أيها المسلم- مِلْكٌ لله الواحد القهار، تدور في فلك العبودية والخدمة كما تدور الكواكب في الأفلاك: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾(الزمر: ٦٠).

وتلك هي مدارات اللفظ "عبد" في اللغة. إنها لا تخرج عن معاني

---

[٢٩] مدارج السالكين لابن القيم، ٣/٢٦.

الذلة والخضوع والخنوع والانقياد، كما تنقاد الأنعام المذللة لمالكيها رغبةً ورهبةً، انقيادًا لا تشنّج فيه ولا تَفَلُّت.

والعبد لا يكون إلا في باب الخدمة بين يدي مولاه، واقفا على العتبة ينتظر الأمر والنهي بشوق المحب، ليبادر إلى التنفيذ دون سؤال: علامَ ولِمَهْ؟ ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(الأنبياء: ٢٣). إنه الرب المحبوب الأعظم، المرغوب المرهوب، رب الكون والخلق أجمعين. يُمكنك أن تُعَرِّفَ عقيدة الإسلام في نهاية المطاف، فتقول إنها ميثاق المحبة بين الله وعباده،! أو هي دستور السلام.

وحينما نقول "المحبة" فهي بمفهومها القرآني الجامع المانع، لا ما ذهبت إليه طوائف من الغلاة من هذا الاتجاه أو ذاك، ممن قالوا بها فأبطلوا كل منازل الإيمان من خوف ورجاء. فانتهى بهم الأمر إلى دعاوى عريضة يتشدقون بها، ما أنزل الله بها من سلطان. كلا، بل لا تقوم المحبة بقلب العبد الصادق إلا على جناحي الخوف والرجاء، وما تفرع عن ذلك من معاني الرَّغَبِ والرَّهَبِ. والقرآن العظيم والسنة النبوية واضحان في هذا غاية الوضوح، ولا يزيغ عنهما إلا جاهل أو صاحب هوى. والمحب الحقيقي الصادق يخاف من الحرمان، ويخشى من العقوبة؛ بقدر ما يرجو ويشتاق. فإذا جرد المحبة عن الخوف والرجاء كان من الكاذبين.! كيف ورب العالمين يقول عن صفوة من أنبيائه ورسله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾(الأنبياء:٩٠). كيف وهذا محمد رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين يعلنها في الأمة: «أمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له. [وفيه قال:] فمن رغب عن سنّتي فليس منّي»(متفق عليه). ألا وإن أي انحراف عن هذه السبيل لا يكون إلا جهلا

بالدين أو زيغا من الضلال المبين.

فعلى هذا الوِزَانِ إذن نقول إن عقيدة الإسلام قائمة على المحبة، بل إنها ميثاق المحبة. وبذلك المعنى كانت تفيض بأنوار الجمال ومباهج الجلال. فليس عبثا أن يقول النبي ﷺ: «إن الله تعالى قد حرم على النار من قال "لا إله إلا الله" يبتغي بذلك وجه الله» (متفق عليه). أكَلمة واحدة تتلفظ بها فتدخل الجنة؟ نعم، ولكنْ، إنها ليست بكلمة ولا كلمات، إنها توجُّه قلبي وميل وجداني، إنها مسألة "حب". وإن مَن أحبّ اللهَ أحبه الله. إنها حقيقة جميلة وعظيمة. وإن عدم إدراكها ذوقا ووجدانا قد كان سببا في تضييع معاني الدين، وانحراف كثير من الناس عن منهاجه المستقيم.

جمالية التفكر الإيماني [30]

من أسرار هذا الدين ولطائفه أن باب عقيدته هو التفكر. قال ﷻ في مخاطبة المنكرين عبر رسوله الكريم ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾(سبأ:٤٦). آية في غاية الجمال والسمو. وإني أشهد أني مذ ذقتها وجدت أن بها بحرا من الأسرار التربوية لا يعلم مداه إلا الله. وإن لها لذوقا وجدانيا خاصا.

التفكر

أرأيت كيف أن الله تعالى يخاطب هؤلاء بالقيام له والتفرغ لشأنه، قبل الإيمان به؟ وذلك حتى يمكنهم من الوصول إلى حقيقة الإسلام، هذا الدين الذي هم له منكرون. وقد شرط الله عليهم شرطا في كيفية القيام له: وهو الخلوة به وحده سبحانه، والعدد الوارد في الآية: ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ على حقيقته، إذ ليس هناك في السياق ما يصرفه عن هذه الحقيقة. لكن لماذا التنصيص على الفردانية، أو الثنائية، بالضبط؟ لماذا كان ذلك شرطا لتوقيع "التفكر"؟ إنه أمر عجيب.

العقل آلة تلتقط الحقائق وتعقلها، ولكنها لا تتخذ القرار. وإنما الذي

---

[30] مجلة حراء، العدد: ٦ (يناير-مارس ٢٠٠٧م).

يتخذ القرار هو القلب بمعناه القرآني الخاص: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد:٢٤)، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩). فإذا كان القلب محجوبا بحجب المادة والكثرة عجز عن الوصول إلى ما يعرضه عليه العقل من صور معقولات، فلا يتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب. ومن هنا كان جوهر التفكر في القرآن قلبيا، ولذلك فقد وجدناه ينتج عنه شعور قلبي هو الخوف نظرا لرهبة القلب مما يحلله له العقل ويعرضه عليه من صور. وذلك نحو ما في الآية السابقة من سورة سبأ، إذ قال سبحانه في تتمتها: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(سبأ:٤٦)، وأظهر منه آية التفكر في سورة آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران:١٩١). إنه شعور الوجدان بهول الحقيقة وعظمتها، ولذلك قلت "إن التفكر فعل وجداني في العمق".

وهو لذلك لا يقع من الناس إلا آحادا، وإن حكي عنهم بضمير الجماعة، كما في الآية الأخيرة، فإنما المقصود أنه يحصل ذلك منهم فرادى لا مجتمعين، كما يدل عليه أول الآية: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(آل عمران:١٩١). فهذه صور تحيل على الناس وهم في شؤونهم الخاصة، بين منازلهم وأفرشتهم ونومهم وقيامهم. وأغلب ذلك كله أحوال فردية. والآية الأولى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾(سبأ:٤٦) نص في فردانية فعل التفكر. أما الثنائية "مثنى" فهي ملحقة من حيث الفائدة بالفردانية. والمثنى في العربية ملحق بالمفرد.

وإنما يبدأ الجمع في اللغة بالثلاثة. ثم إن التفكر بين اثنين "نجوى"، وهي أشبه ما تكون بتحديث الفرد نفسه. أما فائدة ذلك فهي أن التفرغ لله ﷻ في خلوة، لا يكدر صفوها عليك أحد من الخلق، يتيح للقلب أن يتفاعل في صفاء مع معطيات الفكر، ويتواجد متلذذا بمواجيد الشعور بمعية الله، وحقائق الكون الكبرى. ومثل ذلك لا يحصل في لغط النقاش الجماعي، وضوضاء الجدل المتعدد.

رفيق النجوى

نعم رفيق النجوى، وهو الثاني ﴿مَثْنَى﴾، يكون معك على موجدة واحدة في التأمل، وتبادل المشاعر والمواجيد، تماما كما كان النبي ﷺ يخلو لربه فردا، أو مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه أحيانا، أو غيره من الصحابة الكرام. فإذن تكون أبواب القلب أكثر انفتاحا لتقبل ما يلقى عليها من واردات الحب والشوق والمعرفة الربانية.

ومما يزيد هذه الآية دقة فيما نحن فيه التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد الترتيب. فكأنه تعالى جعل شكل التفكر ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ هو الكفيل وحده بنجاح عملية التفكر، ولذلك قال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ فعل واحد لا ثاني له، كفيل بأن يقود الإنسان إلى الحقيقة: التفكر. هل خلوتَ بنفسك يوما؟ أو ناجيت رفيقا لك في أمر الكون والحياة والمصير؟ عندما يمتد الفكر سائحا في أقاضي الكون يضل ويتيه. وأنَّى له أن يهتدي في دروب ومسالك ينتهي الخيال ولا تنتهي منافذها؟! إذن يرجع الفكر منكسرا عاجزا. وإن ذلك لعمري هو الإسلام؛ الخضوع للعظمة المطلقة فوق الزمان والمكان، والاعتراف

بالقصور عن الإحاطة؛ ولا بأي طرف من أطرافها: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(الملك:٣-٤). الرجوع إلى الصف الآدمي للانضمام إلى سلك "العادة الطبيعية"، رجوع في العمق إلى مقام الخدمة والعبودية. موجدة ليست في حاجة -حينئذ- إلا إلى الإفصاح والتعبير: "لا إله إلا الله".

وهنا يكمل جمال الدين، الدفء الحاصل عند الشعور بالانسجام مع سائر الخلق السيار، كل في سربه وفلكه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء:٤٤). هذا التوحيد الكوني في التعبير، بل هذا التناسق الكلي في نفث المواجيد، عبر شتى ألوان العبادة، له ذوق "الأنس" الذي يملأ القلب نشاطا وحبا للحياة الممتدة طولا وعرضا.

التنافس في طريق المحبة

التنافس هنا إذن هو في طريق "المحبة". الكل يحب، والمحبوب واحد. تلك هي القضية. إذن أيّنا يبذل أكثر؟ وأيّنا يشكر أكثر؟ فهذا مجال الإفصاح عن مواجيد الذلة لملِك القلوب ومالكها. وكلما كان الحب أصدق كان أكثر إذلالا لصاحبه. ولكنها ذلة اللذة والمتعة العليا، والشعور بالراحة في سبيل رضى المحبوب، وينطلق السباق... وتلك لذة أخرى، لها قصة أخرى.

الله!.. هذا المعنى العظيم الذي ننطلق منه لِنُقِرَّ أنه "لا إله إلا هو".

تدخل إلى ملكوته من باب "التفكر" بوجدان المحبة الكبرى. ولكن كيف؟

لطالما كنت أقرأ عن رواد الحب الإلهي، فكنت أتعجب كيف يجدون هذه الموجدة، بهذا الشوق كله!؟ فتفكرت دهرا، فإذا الباب ينفتح بمفتاح "الربوبية": الله... هذا السيد العظيم هو الخالق لكل شيء من الجلائل والدقائق. وما أنت أيها العبد في ملك الله العظيم، الممتد بلا حدود، إلا ذرة من البلايين التي لا يحصرها خيال، من الذرات السائرة في متاهة الكون الفسيح. ألم يكن ممكنا في قدر الله وقدرته تعالى ألا تكون أصلا؟ إنها نعمة الخلق إذن، فأعظم بها من نعمة لا تحصى حمدًا ولا تحاط شكرا، ولو عشت أعمار الخلائق جميعا حامدا وشاكرا: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾(الإنسان:١). لمسة "الحياة" هي النعمة الكبرى بعد الخلق.. ألم يكن ممكنا أن تكون جمادا؟ ثم إنها حياة الروح أكبر هبة إلهية للإنسان.

تأملات تملأ القلب حَيرة وعجبا. أن يكون بين الناس في ظل هذه الحقائق الرهيبة منكرون... عجبًا.. عجبا..! ولا يملك المتفكر في آلاء الله ونعمائه العظمى إلا العجب.

أن تتفكر في جمال الإحسان الرباني، يعني أن تقع أسير أنواره، وجلال كماله، مؤمنا خاشعا متبتلا.. ذلك هو سر المحبة، وهو المعراج السري لقافلة المحبين السائرين إلى منازل الحبيب. قال بديع الزمان النورسي رحمه الله: "ما دام ذلك الحكيم المطلق سلطانًا ذا جلال بشهادة جميع إجراءاته الحكيمة، وبما يظهره من آثار جليلة.. وربًّا رحيمًا واسع الرحمة بما يُبديه من آلاء وإحسانات.. وصانعًا بديعًا يحب صنعته كثيرًا بما يعرضه من مصنوعات بديعة.. وخالقًا حكيمًا يريد إثارة إعجاب

ذوي الشعور وجلب استحسانهم بما ينشره من تزيينات جميلة وصنائع رائعة... فإنه يُفهَم مما أبدعه من جمال يأخذ بالألباب في خلق العالم أنه يريد إعلام ذوي الشعور من مخلوقاته ما المقصود من هذه التزيينات؟ ومن أين تأتي المخلوقات وإلى أين المصير؟"[٣١].

فهو إذن "يعرِّف نفسَه ويودّدها، بمخلوقاته -غير المحدودة- ذات الزينة والجمال.. ويُوجب الشكر والحمد له، بنعمه -التي لا تحصى- ذات اللذة والنفاسة.. ويشوّق الخلق إلى العبادة نحو ربوبيته؛ بعبوديةٍ تتسم بالحب والامتنان، والشكر إزاء هذه التربية، والإعاشة العامة، ذات الشفقة والحماية"[٣٢].

فعلا... إن الذي يشعر بالنعمة المسداة إليه يجد نفسه مطوقا بحقها في الشكر، ولكنها نعمة أكبر بكثير من أن تحصى أو تحصر. فكيف تشكر إذن؟ هنا يمتلك القلبَ الشعورُ بالعجز والذلة والخضوع التام، وتلك هي "لا إله إلا الله".

"الله".. هذا الاسم الجميل كلمة تدل على الحياة العليا والنعمة الكبرى.. منه سبحانه نستمدّ الكينونة والحياة. وعطاؤه تعالى لا ينقطع أبدا، ولا يحصى عددا. أن تملأ قلبك بمعرفة الله، يعني أنك تملؤه بالحياة.. أن تملأ قلبك بمعرفة الله، يعني أنك تملؤه بالحب.. وأن تعبر عن ذلك كله، يعني أن تقول: "لا إله إلا الله"، أي لا مرغوب ولا مرهوب إلا الله، ولا محبوب إلا الله، ولا يملك عليك مجامع القلب والوجدان إلا الله.. هذا السيد الجميل، والملك الجليل، والرب العظيم الرحيم.

[٣١] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٦٧٧.

[٣٢] المكتوبات، سعيد النورسي، ص:٢٨٥.

إن العبد المسكون بحقيقة "لا إله إلا الله" لا يملك إلا أن يتدفق منجرفا إلى الله.. تماما كما تتدفق الأنهار سارية وساربة إلى مالكها.. فأنى له إذن أن يتخلف إذا سمع داعي الله ينادي أنْ "حي على الصلاة"، أو "حي على الفلاح"؟!

طُيُوبُ الْحُبِّ إنْ مَسَّتْ فُؤادًا جَرِيحَ الْوجْدِ كَانَ لَهَا نُشُوبُ!
وَهَلْ فِي الْعَاشِقِينَ الْغُرِّ غُصْنٌ يُنَادِيهِ الْحَبِيبُ وَلاَ يُجِيبُ؟!

يتخلف.. كيف؟ والمسلم إنما هو ذلك العبد الذي يحمل جمرة الشوق إلى الله.. يُسبغ الوضوء على المكاره، وينقل الخطى إلى المساجد، يسري في الظُّلَم، ويسرب في الهجير، متقلبا بين حَرٍّ وقَرٍّ، ويجاهد في سبيل الله.. ينثر روحه أزهارا على الثرى، طمعا في رضى المحبوب الذي تعلّقت به القلوب. والمسلم هو ذلك العبد الذي فاض قلبه بحب الله؛ فلا تجد من سلوكه إلا مسكا، ولا ترى من خطوته إلا كياسة وفطنة، ولا يلقاك إلا بالكلمة الطيبة والسريرة الحسنة.

الإسلام، هذا الجمال الإلهي العالي، دين ليس كأي دين. لكن... لو كان له ذوّاق... ذلك هو "الإسلام" دين المحبة.. وذلك هو المسلم السالك مَدارِجَ المحبين. وأنَّى لمن خفق قلبه بلمسة الحب أن يكون شريرا؟ الحب، هذا الشعور الفياض بالجمال، إذا خالط قلبا أحاله جداول من الإيمان واليقين. وامرؤ كان ذلك شأنَه لا يتصور فيه أن يؤذي أحدا أبدا، لأنه لا يملك من المواجيد في قلبه إلا الحب. وكل إناء يرشح بما فيه. إنه لا يملك إلا أن يملأ المكان بمواجيد المحبة، ورياحين الشوق في سيره الوجودي إلى الله.

جمالية التعريف القرآني بالله [٣٣]

الله ربًّا هو بدء تدفق الجمال على عقيدة الإسلام، إذ إن جمال الرب ﷻ يفيض من بهاء ذاته تعالى وصفاته. وإنما صفاته تعالى هي صفات الجمال والجلال، إنه النور الخارق الذي لا يطاق.

فعن أبي موسى ﵁ قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسْطَ ويرفعه. يُرْفَعُ إليه عملُ الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل عَمَلِ الليل، حِجَابُهُ النور، لو كشفه لأحرقتْ سُبُحَاتُ وجْهِهِ ما انتهى إليه بصرُه من خلقه» (رواه ابن ماجه). والسُّبُحَات جمع سُبْحَة: وهي ما يفيض عن الذات الجميلة من لآلئ النور، ونوابض الحسن، وأشعّة الجمال. ومن هنا وصف سبحانه أسماءه -وهي أسماء صفات- بكونها "حسنى". إنها أنوار متدفقة من مشكاة الله ذات البهاء الدرّي، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾(الأعراف:١٨٠). وقال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(الإسراء:١١٠). ومن هنا كانت البداية في قصة المحبة.

---

[٣٣] مجلة حراء، العدد: ٧ (أبريل-يونيو ٢٠٠٧م).

النعمة الأولى.. الخلق

الله.. هو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء. سبحانه وتعالى علوّا كبيرا. إنما عرفه الإنسان أول ما عرفه "ربّا"، فلما عرف منه (تعالى) ما عرف، ألِهَه قلبه فعبَده. إن أول نعمة إلهية ظاهرة فاضت أنوارها على الإنسان من مشكاة أسماء الله الحسنى "الخالق" و"البارئ" و"المصور"، وما إليها من الأسماء والصفات كانت هي خلق آدم عليه السلام. ثم توالت عليه بعد ذلك النعم تترى مما لا يحصى ثناء وشكرا، رزقا ورعاية وهداية... إلخ. ولذلك وجب أن يكون أول ما ينطق به الإنسان -أي إنسان- في حق ربه سبحانه وتعالى هو الحمد والشكر أولا وقبل أي شيء. ومن عجيب أمر الله الكوني سبحانه، أن أول كلمة نطق بها آدم عليه السلام بُعَيْدَ ما انبعث فيه الروح هي ﴿اَلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:٢).[٣٤] ولذلك فإن القرآن الكريم -وهو كتاب الله- افتتح بالحمد لرب العالمين، وتمجيد أسمائه الحسنى، ثم بعد ذلك ثنى بالعبادة التي هي نتيجة للربوبية. فكانت سورة الفاتحة، وهي فاتحة القرآن.

الربوبية والعبودية

إن توحيد الربوبية هو اعتراف بسيادة الله على الكون والخلق أجمعين، اعترافا يتضمن الرضى به ربا وسيدا، والإيمان بما له تعالى من صفات الجمال والجلال. فربوبيته سبحانه إنما تعرف من خلال صفاته تعالى؛ ولذلك فقد سمى عز وجل نفسه بأسمائه الحسنى، وطلب منّا إحصاءها والدعاء بها؛ أي أن نوحده في إلهيته تعالى بها، وذلك باب العبادة.

---

[٣٤] انظر: ابن حبان والحاكم.

ومن هنا كان توحيد الإلهية موصولا بتوحيد الربوبية، وهو منطوق القرآن ومفهومه، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾(الرعد:٣٠)، فأثبت الربوبية أولا من خلال اسمه الرحمن، ثم ثنى بكلمة الإخلاص باب التعبد. والجميل حقا أن ربوبيته تعالى تتجلى في أسمائه الحسنى، ومن هنا كان البدء بها في القرآن، وفي كل أمر ذي بال. إن جمال الربوبية المتجلي في جمال الصنعة، وكمال الخلق، وتدفق الإنعام، والفيض على العالمين بالحياة... إلخ. هو الذي بهر القلوب المحبة للجمال، فخضعت له عابدة متبتلة في محاريب الإيمان، مقرة أنه "لا إله إلا الله". إن المحب الذي فني في المحبوب إنما حصل له ما حصل لما رآه في محبوبه من خصال الجمال والجلال.

"الله".. هذا الاسم العظيم، الدال على الذات الإلهية، يثقل وقعه في القلب العارف به تعالى حتى التصدع، قال ﷺ: «ولا يَثْقُلُ مع اسم الله تعالى شيء»(رواه الإمام أحمد). إنه ثقل الربوبية الذي ينزل بجلاله وجماله الذي لا يطاق على الصخر فيجعله دكا، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾(الأعراف:١٤٣)، ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾(الحشر:٢١).

المحبة ثمرة المعرفة

من هنا إذن كانت معرفة الربوبية مورثة لمحبة الله، أي لعبادته. ولذلك فقد وردت التوجيهات التربوية النبوية للأمة العابدة المحبة لربها أن تذكره تعبدا بجلال ربوبيته سبحانه، قال ﷺ: «من قال رضيت بالله ربًّا وبالإسلام

دينا وبمحمد نبيا وجبت له الجنة»(رواه أبو داود). وذكر النبي ﷺ في هذا السياق قصة طريفة مفادها أن عبدًا من عباد الله قال: «يا ربي، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك" فَعَضَلَتْ بالملَكَين فلم يدريا كيف يكتبانها. (...) فقال الله ﷻ: "اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها"»(رواه الإمام أحمد).

إن الإعضال الذي حصل للملائكة الكتبة، إنما هو بسبب أن هذا العبد قد حمد الله حمدا موصوفا بصفة الله المطلقة "كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك"، وهو ما لا يمكن أن يحيط به عبد من عباد الله علما، لأنه متعلق بما هو عليه الله "ربا" في ذاته تعالى وصفاته، من جمال وجلال، وبما يفيض عن سلطانه العظيم من تقدير وتدبير على الإطلاق. وعلم ذلك هو عين المستحيل، فكان أن فزع المَلَكان إلى الله من هذا التعبير الذي أربكهما إرباكا، إنها عظمة الربوبية التي توجب الخضوع لله الواحد القهار.

إن هيبة الجمال والجلال في ذات الرب العظيم، تورث العبودية في القلب المؤمن بالله. ومن هنا كان ذلك الفضل الكبير الذي بشّر به النبي ﷺ لمن أحصى أسماء الله الحسنى أو حفظها لما لهذه الأسماء من أنوار لا تفتأ تفيض عن ذات الرب سبحانه وتعالى بمعاني الكمال والجلال. قال المصطفى ﷺ: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة»(متفق عليه). والحفظ المذكور في الحديث لا يدل على المعنى الشكلي للفعل، مِن عدّ أو استظهار فحسب، وإنما يدل على الحفظ بمعنى الاستيعاب القلبي والاستحضار الشعوري كما في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ

عَلِيمٌ﴾(يوسف:٥٥)، مشيرا بالحفظ إلى الأمانة وهي معنى قلبي محض.

إن تَمَثُّلَ مقتضيات أسماء الله الحسنى تمثل المحب المتعلق ببابه الكريم يرجو وصاله والنهل من أنواره، هو الذي يفتح الطريق للعبد السائر إلى الله للحصول على الإذن الملكي العالي إكراما لمحبته والتعلق بأسمائه.

جمال وجلال.. بجانب الطور الأيمن

ومن أطرف المواقف الإلهية وأكثرها جمالا وجلالا، خطابه تعالى لنبيّه موسى عليه السلام، بجانب الطور الأيمن.. إنه حدث وجداني عظيم يهز القلب هزا... موسى تائه في غسق الليل بين الجبال، يسير بأهله، يبحث عن دفء، حتى إذا تفرّد بين الشعاب باحثا، سمِع الله يتكلم.. أتدرون ما تقرؤون؟ إنه سمع الله يتكلم... وتلك حقيقة كونية رهيبة لا تسعها العقول تصورا، ولا القلوب استشعارا. ولكن الأجلَّ في الموقف أنه يتكلم معه "هو" بالذات... الله الملك العظيم رب الأرضين والسماوات، رب الفضاءات والمدارات... يكلم هذا العبد الضئيل، بل هذه الذرّة الدقيقة التائهة في الفلَوات... هل تستطيع أن تتصور نفسك هناك؟ إذن أنصت لكلام الله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٤).

موسى عليه السلام التائه الباحث يسمع متكلما، فيجده أنه يخاطبه ويعرّفه بنفسه، فكانت هذه الكلمات الجليلة العظيمة: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾... عبارات شارحة لمعنى الإسلام وعقيدة الإسلام، عقيدة المحبة العليا.. فقد سمّى الله نفسه سبحانه باسمه العَلَم معرفا بذاته "الله". وهو الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات العُلَى.. ثم قرّر ما ينبغي

أن يعرفه العبد عن ربه: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾، فلا ينبغي أن يسكن قلبَك يا موسى حُبُّ سواي، ولا أن تُجرّد وجدانك لغيري، فمقام الإلهية يقتضي من الخلق الانتظام في سلك الخدمة والطاعة لسيد الكون، الربّ الأعلى. وذلك تفريغ القلب من كل المقاصد سوى قصد الله، وتجريده غصنا فقيرا بين يديه تعالى، إلا من أنداء الشوق وخضرة الرضى، تنساب مستجيبة لأنسام المحبة الإلهية أنَّى هبّتْ، انسيابا لا يجد معه العبد كلفة ولا شقّا، بل هو انسياب الواجد راحته ولذّته في عبوديته لرب العالمين، واهب الألطاف الخفية، والأسرار البهية، الملِك الحليم ذي الجمال والجلال.

اللّه.. الاسم الجامع لكل الأسماء

﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ﴾.. هذا الاسم العظيم الجامع لكل معاني الربوبية والإلهية، يقتضي تمثله على مستوى القلب شعورا بالرغبة والرهبة، وهما صفتان تفيضان عن القلب الذي وجد لمسة الحب، وهو مخ العبودية. وإنما العباد سالكون بين ضفّتَي الرغبة والرهبة، والخوف والرجاء. فأَنْعِمْ به مِنْ جمال في السير، وأَكْرِمْ به مِنْ بهاءٍ في السُّرَى. ولذلك قال له بَعْدُ ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾؛ لأن المتمثل لحقيقة "الله"، ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ﴾ ربوبيةً وألوهيةً، لا يملك إلا أن يخضع لله شاكرا وعابدا. فليكن إذن خضوعا لا يشرك معه فيه أحدًا.

﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾.. تقرير اعتقاد، نعم، لكنه من العبد شعور.. يحتاج إلى مصداق من الأعمال والفعال. وهل يملك من يجد في قلبه شيئا أن يكتمه؟ خاصة إذا كان هذا الذوق الموجود من الجمال والجلال ما لا يستطيع قلب بشري أن يحتمله سرًّا إلى الأبد. فلا بد إذن من التعبير، وذلك هو

أركان الإسلام الخمسة: النطق بالشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا. أعمال وأفعال كلُّها تسلك بالعبد مسلك الخدمة والطاعة لله رب العالمين، وتشعر صاحبها بمقدار ما يجده في قلبه من الحب، وما يعترف به من إقرار على نفسه، إذ شهد أنه "لا إله إلا الله". فإلى أي حد هو صادق فيما عبر به عن نفسه؟ إنها شهادة على القلب. أفَتراه كان صادقا كل الصدق أم بعضه؟ ولذلك قال ﷻ لموسى عليه السلام: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾. العبادة إذن هي "التعبير".. التعبير الظاهر عما وجده المسلم في الباطن، إذ شهد ألا إله إلا الله. إنها تعبير المحب عما وجد من حب، وأيّ محبٍّ يستطيع الكتمان؟!

الصلاة.. أم العبادات

وبقيت الصلاة في الإسلام كما كانت في الأديان السابقة أمّ العبادات. ولذلك خصها الله بالذكر هنا رمزا لكل خضوع وخشوع ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾.. وما كل أركان الإسلام في الجوهر -مهما تعددت أشكالها- وهيآتها إلا "صلاة"! ولذلك قال النبي محمد ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة» (رواه أحمد). فكأنه عليه الصلاة والسلام يقول الإسلام هو الصلاة، لما في معنى الصلاة من جمع لكل مواجيد التعبد والخضوع لله رب العالمين، وذلك هو المقتضى العملي لكلمة الإخلاص "لا إله إلا الله". والترجمة الفعلية للأمر الملكي: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ الذي جاء تفسيره وبيانه بعدُ مباشرة ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾. فيا لجمال "الذِّكْرِ" في سياق الصلاة! ذلك التعبير المليء بالإيحاءات الوجدانية التي تحدو الأحبة بالتراتيل الملتهبة شوقا لديار المحبوب.

وذكر الله هو مقام الأدب مع الله.. فالعبد الحقيقي هو الذي لا يفتأ يذكر سيده فلا ينساه.. وهل ينساه حقا؟ إذن ليس بعبد، وإنما العبد من كان دائم الحضور بباب الخدمة، لا يفتأ واقفا بأدب العبودية إلى جانب الأعتاب العليا.. فأنى ينسى مولاه؟ أن تصلي يعني أن تكون دائم الذكر لله.. ولذلك كانت الصلاة أرقى تعبير عن حضور القلب مع الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾.

تلك معان كلها تفيض عن شهادة أن "لا إله إلا الله". كلمة الإخلاص وعنوان الإسلام لله رب العالمين. لمة اوهي الكلتي يفزع إليها المؤمن من الغم والكرب، تماما كما يفزع الصبي إلى أمه عندما يلم به مكروه. أتدرون لماذا؟ لأنها ببساطة أقرب الناس إلى وجدانه، ولو لم تكن كذلك لما نادى صبي في الدنيا إذا استغاث "أماه!". إلا أن العبد الذي سكن قصد الرب الأعلى قلبه، وامتلك عليه وجدانه لا يفزع إلا إليه، بمقتضى "لا إله إلا الله".

هل سمعت يونس عليه السلام إذ التقمه الحوت فغاص في ظلمات بطنه، وظلمات البحر والليل، ثم ظلمة الغم الشديد الضاربة على تلك الظلمات جميعا، ألم تسمع ماذا قال؟ يقول رب العزة حاكيا عنه: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنبياء:٨٧). لقد كان أول التعبير استغاثة وجدانية ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ﴾.. لا يملك مواجيدَ القلب إلا أنت! لا محبوب، ولا مرغوب، ولا مرهوب إلا أنت! ثم كان التسبيح والتنزيه فالاستغفار...

يا سلام... أي جمال هذا وأي كمال؟! وأي أفق كريم فيما يتيحه هذا الدين السماوي للقلب من سياحة وسباحة في عرض الملكوت لاستدرار

واردات الأنس والرحَموت؟! يونس هذا العبد العظيم الذي أدرك -وهو في بطن حوت ضخم جدا، يخوض به المجهول، في قاع المحيطات الرهيبة- أن القلب إذا امتلأ بنور الله كان الله معه؛ ومن كان الله معه أمن أمنا كلّيا، فلا يعدو هول البحرِ والحوتِ حينئذ مقدار حشرة في مستنقع.. الله أكبر!

حقيقة الشرك وجذوره القلبية

إن شهادة أن "لا إله إلا الله" لهي توقيع عقد، وإمضاء التزام، بضمان الهوى لله وحده كما في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»(فتح الباري، ٢٨٩/١٣)، وكل ما جاء به ﷺ هو "الإسلام". وقد علمتَ ما في هذا العبارة من معاني الخضوع للرب الأعلى. خضوع يفرغ القلب مما سوى الله. وهو أمر في غاية العمق الوجداني، والتحقيق الشعوري، ولذلك صعبت كلمة "لا إله إلا الله" على كفار قريش أن يقولوها، وهو أمر طبيعي، فقد أدركوا بفطرتهم اللغوية السليمة أن هذه الكلمة تعبيد لمشاعرهم، قبل أن تكون تعبيدا لأفعالهم. وهو الأمر الذي لم يقبلوه، إذ كان "الشرك" قد ران على قلوبهم فلم يستطيعوا منه فكاكا. وما حقيقة "الشرك" إلا أهواء ومواجيد، سكنت قلوبهم فلم تصْفُ بذلك لربها الملك الأعلى. إن الشرك بهذا الإدراك معنى قلبي كالتوحيد تماما. أعني من حيث إنهما معا شعور يحدث في القلب، وإن كانا متناقضين، كتناقض الحب والبغض، أو السخط والرضى.

فلم يكن من منطق الأشياء أن تدور معركة -بل معارك مريرة- بين الرسول ﷺ وبين العرب من أجل أحجار هي الأصنام، التي كانت تُعبد من

دون الله. بل إن حقيقة المعركة كانت حول ما ترمز إليه تلك الأحجار، من أهواء ساكنة في قلوب العباد. فما كان صمود العرب في وجه الدعوة الإسلامية كل تلك المدة، حتى عام الفتح، حبا في الأوثان لذاتها، وإنما حبا فيما كانت ترمز إليه، وما كان يقع باسمها في قلوبهم من حب لمجموعة من الأهواء، هي الآلهة الحقيقية التي كانت تعبد من دون الله؛ من حب للجاه، وحب للسيادة، وحب للمال، وحب للتسلط على الفقراء والعبيد باسم الآلهة، أو قلْ باسم الصخور الجامدة. تلك الأهواء إذن هي الآلهة الحقيقية التي كانت تعبد من دون الله، وما كانت الأحجار إلا تجسيدا لها في عالم المادة، ورمزا لما في عالم الإحساس، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(الجاثية:٢٣).

ومن هنا حرص النبي ﷺ على الإطاحة بأوثان الشعور، قبل الإطاحة بأوثان الصخور! وقد ظل بمكة يعبد الله قبل الهجرة ويطوف بالبيت العتيق وقد أحاطته الأصنام من كل الجهات، لأن عمله حينئذ كان هو إزالة أصولها القلبية، وجذورها النفسية؛ حتى إذا أتم مهمّته تلك، كانت إزالة الفروع نتيجة تلقائية لما سلف من إزالة للجذور ليس إلاّ. ولذلك قلتُ: إن الشرك معنى قلبي وجداني، قبل أن يكون تصورا عقليا نظريّا.

إن "لا إله إلا الله" -وقد سُمّيت كلمة الإخلاص- ليست إلا تجريدا قلبيا للهوى حتى يكون خالصا لله وحده. وكل حبّ تفرقت به الأهواء لم يكن إلا كذبا. والشهادة في الإسلام إقرار من صاحبها على نفسه، وما يجد في قلبه بالتصديق. فانظر أي قرار يتخذه الإنسان، حينما "يُسلم" لله رب العالمين، ويشهد "أن لا إله إلا الله"!

روعة الانتساب التعبدي [٣٥]

العبادة، هي عنوان الجمال في الإسلام، وشعار المحبة. وإذا أحب الله الإنسان خاطبه بلفظ "عبدي" أو "عبادي"، فنسبه إليه تعالى نسبة خصوص وإضافة.

والعبودية دالة على خضوع وانقياد، في غير سخط ولا إكراه، ولكنه خضوع المحب الرَّضِيّ. ومن هنا لم تكن الأعمال لترتقي إلى مستوى العبادة حقيقة إلا إذا أدّاها العبد برضاه.. ولو كانت هذه الأعمال من أركان الإسلام، من صلاة وصيام وزكاة وحج. وقد ذكر العلماء أن الغني إذا امتنع عن أداء الزكاة، فقَوَّمَ السلطان عليه ماله وانتزع منه مقاديرها وصرفها في وجوهها، فإن ذلك يُسقط عنه حقوق المستحقّين، ولا يكلف بإعادة إخراجها بعد، ولكنه لا يسقط عنه حق الله؛ لأن حق الله في العمل إنما هو الشعور بالتعبّد، وهو معنى الرضى والمحبة الذي يُخالط قلب العامل عند الدخول في عمله.

ومن هنا كانت حقيقة العبادة شعورا وجدانيا قبل أن تكون أعمالا مادية، وكانت إحساسا بحب من يوجه إليه العمل وهو الله تعالى، لا "ضريبة" يؤديها المرء وهو كاره.

---

[٣٥] مجلة حراء، العدد: ٨ (يوليو-سبتمبر ٢٠٠٧م).

رغبة لا رهبة

إن العبادة "رغبة" قبل أن تكون "رهبة"، ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)؛ أما "الخوف" المذكور مع "الرجاء" في سياق التعبد فله مدلول آخر. ومن هنا كان وصف الإنسان بأنه "عبد" من أحب الأسماء والصفات الإيمانية إلى الله، ومن أحسنها في تسمية الإنسان، كما ورد في قول الرسول ﷺ: «إن أحب أسمائكم عند الله: عبد الله، وعبد الرحمن»(رواه مسلم)؛ وذلك لأن هذين الاسمين فيهما نسبة العبد إلى اسم الجلالة "الله"، وإلى أعظم صفة لله ﷻ "الرحمن": ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(الإسراء:١١٠). وفي ذلك ما فيه من شرف الانتساب التعبدي لله الواحد القهار.

وبهذا المعنى استُعْمِلَ مصطلح "الانتساب الإيماني" أو "التعبدي" في الفكر الإسلامي للدلالة على خصوص استناد العبد إلى الله في كل أمره، وما يجده في ذلك من أذواق وجمال.

ولعل الأستاذ بديع الزمان النورسي -رحمه الله- هو أول من استعمله بهذا الوضوح الاصطلاحي في سياق تجديد الفكر التربوي الإسلامي؛ إذْ كَشَفَ النقاب بقوة عن مشاهده الجميلة، فرسم بذلك لوحة وجدانية خالدة، كلما طالعتَ أنوارَها تَدَفَّقَتْ بالأسرار. ذلك أن المسلم عند النورسي لم يعد -باعتباره عبدا لله- مجردَ اسْمٍ عَلَمٍ ينادَى، أي: "عبد الله" أو "عبد الرحمن"، وإنما هو صاحب وظيفة مستنبطة من التفكر الخفي، والتدبر الْمَلِيّ؛ لطبيعة العلاقة بين المضاف والمضاف إليه، في اسم "عبد الله" الذي هو اسم وظيفي -لا عَلَمِي- لكل مسلم حق.

إن الإضافة النحوية لها دلالة عظيمة، على مستوى المعاني بالقصد

البلاغي والإيماني معا؛ أعني من حيث إنها تفيد اختصاص المضاف إليه بالمضاف، وتفرده به، على سبيل "الامتلاك". وكذا اختصاص المضاف بالمضاف إليه، على سبيل "الاستناد" و"الانتماء".

علاقة النسبي بالمطلق

وهنا تكمن خطورة المصطلح "الانتساب"؛ لأنه تصوير لعلاقة المطلق بالنسبي وما يكتسبه هذا من ذاك. فعلاوة على دقة العلاقة بين مفهومين لا يجمعهما في المنطق إلا معنى التضاد؛ بينما هما هنا يلتقيان في المعنى الإسلامي، في التناسب الجميل المستفاد من علاقة العبادة، وما تحمله من ظلال روحية هادئة. علاوة على ذلك كله فإن المصطلح المدروس يصور بأدقّ ما يكون التصوير الرقي الإنساني، في مدارج الإيمان، حتى يكون أهلا لمقام العطف الرباني والتضييف الرحماني.

وإني لأحسب أن تجديد التدين في المجتمع الإسلامي، لو أنه سعى هذا المسعى القائم على تحقيق معنى "العبودية"، حيث كانت الإضافة فيها إلى الرحمن نقطة استناد؛ لكان له اليوم شأن آخر؛ إذ يمنح العبد معنى القوة والمنعة والحياة، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾(الإسراء:٦٥). فـ"ياء" الضمير (المضاف إليه) الدال على الذات الإلهية، يخص المضاف (عباد) بخصوص "الانتساب" الذي يكتسب منه "العبد" شرف النسبة إلى الملك العظيم رب السموات والأرض. فذلك ما عبّر عنه الأستاذ النورسي بـ"الانتساب الإيماني"، كما في قوله يخاطب المؤمن: "إنك تنتسب بهوية الانتساب الإيماني إلى

سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة"[٣٦].

الانتسابية

وبهذا المعنى فسَّرَ -رحمه الله- سِرَّ بدء الأعمال كلها في الإسلام بـ"بسم الله الرحمن الرحيم"؛ يقول: "إن الذي يتحرك ويسكن، ويصبح ويمشي بهذه الكلمة "بسم الله" كمن انخرط في الجندية، يتصرف باسم الدولة، ولا يخاف أحدا، حيث إنه يتكلم باسم القانون، وباسم الدولة، فينجز الأعمال ويثبت أمام كل شيء"[٣٧].

فهذا التشبيه البليغ مقصود للدلالة على الطبيعة الوظيفية، للخدمة التعبدية التي بها فقط ينال المسلم شرف الانتساب الإيماني، ذلك أنه -كما يقول رحمه الله- "يرقى إلى مقام الضيف الكريم في هذا الكون، وإلى مقام الموظف المرموق فيه، رغم أنه ضئيل وصغير بل هو معدوم، وذلك بسموّه إلى مرتبة خطاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: انتسابه لمالك يوم الدين، ولسلطان الأزل والأبد"[٣٨].

ومن هنا كان الإيمانُ الْمُبَلِّغُ إلى مقام الانتساب انخراطًا وظيفيًا في حركة الجمال، حيث عمل النورسي على تحسيس طلاّبه بالذوق الانتمائي للإسلام، وتجديد مفهوم الصفة الإسلامية التي أبْلَتْها العادات الاجتماعية، وطمستها الظلمات الإلحادية الزاحفة.[٣٩]

---

[٣٦] اللمعات لسعيد النورْسي، ص:٣٨٨؛ وانظر: الشعاعات لسعيد النورْسي، ص:١٣.

[٣٧] الكلمات لسعيد النورسي، ص:٦-٧؛ وانظر: اللمعات لسعيد النورْسي،ص:٢٧٨.

[٣٨] الكلمات لسعيد النورْسي، ص:٤٥.

[٣٩] نقلا عن كتابنا "مفاتح النور" (بتصرف يسير) ص:٢٧٩-٢٨٣.

ثم إن الناظر في النصوص الشرعية المتضمنة لمفهوم "الانتساب" في القرآن الكريم والسنة النبوية، يجد أن لله ﷻ في مناداة الإنسان وتسميته باعتبار "النسبة" ثلاثة أحوال:

الأولى: أن ينسبه إلى جِبِلَّتِه وطبيعته الخِلقية، فيسمّيه "الإنسان".

الثانية: أن ينسبه إلى أبيه؛ فيسمّيه "ابن آدم" و"بني آدم".

الثالثة: أن ينسبه إليه تعالى فيسمّيه "عبدا"، أو "عبدي" أو "عبادي".

ووحدها هذه النسبة الأخيرة تكون في سياق المحبة الإلهية العالية للعباد. فلا يذكر الإنسان بوصفة عبدا إلا للدلالة على حب الله له؛ إذ العبودية محبة متبادلة بين الرب الأعلى والمخلوق الأدنى.

لماذا "الإنسان"؟

ولبيان تفرد وصف الناس بـ"العباد" بمعاني المحبة والتقريب، نذكر خلاصة مركزة عن كل من التسمية بـ"الإنسان"، والمناداة بـ"بني آدم": ففي الأولى يسمي الله الإنسان "إنسانا" في سياق الابتلاء، وتحميله المسؤولية والأمانة. وهي عبارة ذات وقع حيادي على نفس المتلقي والقارئ للقرآن. ولذلك كانت أوضح الآيات في هذا المعنى قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢). فبقيت عبارة "الإنسان" في القرآن محملة بهذه الدلالة، ومشحونة بهذا الإيحاء. إنه إذن صاحب أمانة؛ أمانة تكليف واستخلاف. ولا أمانة إلا وهي تُلْقي على صاحبها تبعات كبرى، أقلّ ما فيها المتابعة والمحاسبة.

ومن هنا كان بتحمله الأمانة ظلوما لنفسه، جهولا بخطورة ما تحمل

وتقلد. فكان الحكم الابتدائي عليه بالخسران، لأنه راهن على شيء أكبر من حجمه؛ فلا ينجو من حيث هو "إنسان" إلا على سبيل الاستثناء ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر:١-٣). وهو استثناء ثقيل يحمل -بعد الإيمان والعمل الصالح- شروطا ثقيلة: التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وتلك هي خلاصة الأمانة. فالإنسان إذن مخلوق مغلول إلى التزامه، مرتهن بقضيته ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾(الإسراء:١٣)، ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾(القيامة:٣٦). بل هو ملزم بالسير الدائم إلى ربه، سير تتخله المشاق والصعاب؛ لأنه يشق طريقا تخالف ما تشتهيه نفسه البشرية، من دَعَةٍ وملذات دنيوية ورغبات حيوانية؛ ولذلك عبر الله ﷻ عن هذا المعنى بـ"الكدح"، وفي ذلك ما فيه من الإيحاء بمشقة السير، ووعورة الطريق؛ قال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ﴾(الانشقاق:٦).

ولم يكن ابتلاء الإنسان مهددا بالخسران؛ إلا لأنه ارتبط ابتلاؤه هذا بطبيعته الطينية التي تشده إلى الأرض وإلى علائق التراب، بينما غاية "ابتلائه" أن يرتقي إلى السماء. فأعظم به من امتحان عسير، قال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾(الإنسان:٢). فكانت الآيات بمساقاتها تشير إلى أنه كلما انْقَضَّتْ عليه طبيعته الطينية، استجاب لأهوائه وشهواته.

ولذلك كانت له في القرآن الكريم -بهذا الاعتبار- صفات وأحوال كلها تدور حول هذا المعنى، يقول ﷻ ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(إبراهيم:٣٤).[٤٠] إنها

---

[٤٠] وانظر: النحل:٤؛ المعارج:١٩-٢١.

إذن؛ صفات مرتبطة بالخلق والطبيعة الجبلية، ولذا كان التعبير عنها في كثير من الآيات بلفظ ﴿كَانَ﴾ للدلالة على الثبات والاستمرار كما في التعبير بها عن صفات الله ﷻ في القرآن، وذلك نحو: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾(الإسراء:١١).[٤١]

هذا هو الإنسان! تعبير لا يوحي بالأنس والطمأنينة والسلام وإنما يوحي بالتكليف والحساب!

التوصيف بالآدمية

وأما الثانية فهي نداء الله عباده بتعبير "بني آدم"، وهو قريب في الدلالة من لفظ "الإنسان". بل إن بينهما تداخلا واشتراكا؛ لأنه إذ ينسب إلى أبيه آدم عليه السلام يحيل على خصائص "الآدمية". وآدم عليه السلام هو ذلك المخلوق من طين، المنفوخ فيه من روح رب العالمين. إلا أن الإيحاء هنا لا يركز على جانب الأمانة والمسؤولية والتكليف، بقدر ما يركز على جانب واحد من ذلك كله؛ ظاهر على كل الصفات المضمرة في الـ"آدمية"، المشاركة للفظ "الإنسان". وهذا الوصف الظاهر البارز في النداء بـ"بني آدم" هو ضعف العزيمة والنسيان، وهو مأخوذ من قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾(طه:١١٥). ولذلك كان النداء بـ"بني آدم" دالا على معنى التذكير والتنبيه؛ إذ تعلق بمخلوق شأنه العام هو النسيان وضعف العزيمة. قال تعالى مذكرا ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾(يس:٦٠). وهذا العهد هو المذكور في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى

---

[٤١] وانظر: الإسراء:٦٧، ١٠٠.

أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف:١٧٢).

وهو التنبيه الذي تكرر على سبيل التحذير في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾(الأعراف:٢٧). إنه تذكير للإنسان بـ"آدميته" ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾.

وكل ما عبر فيه بوصف الـ"آدمية" والنسبة إلى الأب الأول، ملحق بهذا المعنى، ولو جاء في سياق التكليف الجزئي، فإنه يحمل في داخله التنبيه إلى خاصية النسيان، وضعف العزيمة، والتحذير منها، كما في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(الأعراف:٣٥). إنه تعبير يحمل في دلالته ذلك الإيحاء الأول بالتذكير بالعهد؛ أن تخرمه العزائم الضعيفة، والتنبيه من الغفلة والنسيان أن تحاصره الآدمية.

وقد تحيل عبارة "ابن آدم" على معنى "الإنسان" من حيث هو مخلوق على جبلة طينية شرهة، وقد أسلفنا أنَّ بين العبارتين اشتراكا. وعلى هذا المجرى جرى كثير من الأحاديث النبوية التي تضمنت هذا التعبير "ابن آدم". وذلك نحو قوله ﷺ: «لو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيا! ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا! ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب! ويتوب الله على من تاب»(متفق عليه). وقوله ﷺ: «إن ابن آدم إن أصابه حَرٌّ قال: حَسِّ، وإن أصابه بَرْدٌ قال: حَسِّ»(رواه الإمام أحمد في المسند) وعبارة "حَسِّ" اسم فعل مضارع بمعنى: "أتضجّر".

وهذان الحديثان إنما هما ترجمة لما ورد في القرآن عن "الإنسان" في مثل قوله تعالى عن المعنى الأول: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۞ وَإِنَّهُ عَلَى

ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ۞ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾(العاديات:٦-٨).[٤٢]

التوصيف بالعبدية

ويتفرد النداء الإلهي والتعبير القرآني بوصف الناس بـ"العباد"؛ للدلالة على الرضى والحب والإشفاق وكل المعاني الراجعة إلى صفات الله الرحمن الرحيم الودود الغفور؛ وذلك لما للإنسان بوصفه "عبدا" عند الله من مقام وقرب. وإنما العبد: مَن انقاد قلبه لربّه رغبا ورهبا، وخضعت جوارحه لمولاه طاعة وحبا. وتلك هي الصفة التي جاء الدين لإسباغها على الإنسان؛ فيرقيه إلى أعلى منازل العبودية. وذلك أساس مقتضى شهادة "لا إله إلا الله". فكأن الدين -كل الدين- إنما هو إعطاء صفة "عبد" لهذا المخلوق "الإنسان"، أو كما قال الشاطبي رحمه الله عن وظيفة الدين المقاصدية، إنما هي "إخراج المكلف عن داعية هواه؛ حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا"[٤٣].

ثم إن وصف "عبد" أو "عباد"، ولو ورد مجردا عن الإضافة، لا معنى له إلا بتقدير الإضافة. وهي النسبة إلى الله سبحانه؛ أي "عبد الله" و "عباد الله". وقد تأتي العبارة صريحة النسبة والإضافة إلى الله، وهذا فرق جوهري هام جدا، في إطلاق ألفاظ: "الإنسان"، و"ابن آدم"، و"عبد الله"؛ إذ ينسب في الأول إلى أصله الخِلقي الجبلي، وينسب في الثاني إلى أبيه، وما تحمله هذه النسبة من دلالة على طبيعة "آدم"، بينما يتفرد التعبير الأخير بنسبته إلى "الله"، وكفى بذلك شرفا ورفعة وجمالا.

---

[٤٢] وانظر: الفجر:١٥-١٦؛ المعارج:١٩-٢١.

[٤٣] الموافقات للشاطبي، ١٦٨/٢.

ولذلك كان وصف "العبودية" في القرآن لا يرد إلا في سياق البشارة والمحبة والرضى الإلهي الكريم. وما لم يكن ظاهره من الآيات كذلك فهو ملحق بهذا الأصل في المعنى؛ لأن الكلية الاستقرائية إذا استقرت "كلية" رجع إليها كل جزئي، ولو بدا أنه شاذ عنها، كما هو مقرر في الأصول.[٤٤] وأوضح مثال لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٦).

إن هذه الآية الكريمة هي عنوان محبة الرب لعباده في القرآن الكريم.. إنها شلال الواردات الخفي، الهامي بالرحمة والمغفرة على قلوب عباده التائبين، الطارقين باب الله، فقراء محتاجين! ولقد التقط الأستاذ سيد قطب رحمه الله منها لطائف من رَوْح الله فقال: "إضافة العباد إليه، والرد المباشر عليهم منه.. لم يقل: "فقل لهم إني قريب".. إنما تولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال: ﴿قَرِيبٌ﴾!(...) إنها آية عجيبة.. آية تسكب في قلب المؤمن النداوة الحلوة والود المؤنس، والرضى المطمئن، والثقة واليقين.. ويعيش منها المؤمن في جناب رضي، وقربى ندية، وملاذ أمين وقرار مكين"[٤٥].

ذلك أن الطريقة الغالبة في السؤال والجواب في القرآن -كما قرره علماء القرآن- أن يجيب الله ﷻ على أسئلة الناس بقوله تعالى لنبيّه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾؛ إمعانا في ترسيخ نبوته، ورسالته إلى الناس، معلّما ومربّيا ورسولا. وتلك خلاصة "عقيدة الاتباع" في شهادة "أن محمدا رسول

(٤٤) الموافقات للشاطبي، ٥٣/٢.

(٤٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٧٣/١.

الله"، وهو أغلب أسلوب القرآن في هذا الشأن. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾(البقرة:١٨٩)، وقوله ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾(البقرة:٢٢٢) ونحو ذلك كثير جدا.[٤٦]

وإنما المهم عندنا هنا أن خلو هذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ من لفظ "قُلْ"، يدل على خصوص السؤال الآتي من "العباد"؛ ذلك أنهم هنا يسألون عن "معبودهم" لا عن "كيف يعملون في أمور الدين"! إذ إن قضايا الشريعة والأحكام هي شأنُ الرسول الْمُعَلِّم الذي بُعِثَ ليعلّم الناس كيف يعبدون الله. أما هؤلاء فإنهم الآن يسألون عن الله ذاته سبحانه، لا عن كيف يعبدونه! يسألون عن باب معرفته ورضاه! إنه سؤال محبة وشوق ووجدان؛ فهو مثل ذلك الذي قال الله تعالى فيه، في الحديث القدسي: «ذلك بيني وبين عبدي.. ولعبدي ما سأل!»(رواه مسلم).

إذن فالقضية "عبادة"، والعبادة وجدان، لا تصح إلا إذا خلَتْ من كل شريك، ولو كان نبيّا! والدين إنما هو إخلاص القلب لله وحده. وهؤلاء إنما سألوا عن مثل هذا، فلا موضع لـ "قُلْ" هذه، في هذا السياق! فاعبد ربك تجده أمامك بلا واسطة، ولا حجاب يحجبه عن قلبك المحب المشوق! ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.. إنه يجيبك أيها العبدُ الداعي ربَّكَ تضرعا وخفية، وإنما «الدعاء هو العبادة»[٤٧] كما قال النبي ﷺ.. هكذا على سبيل الاستغراق والشمول. ولا عبادة حقة إلا خالصة لله..

---

[٤٦] وانظر: البقرة:٢١٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠؛ الأنفال:١؛ الإسراء:٨٥؛ الأحزاب:٦٣.

[٤٧] رواه الإمام أحمد في المسند، وابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد.

العبدية تشريف وتحبيب

فغالب الخطاب إذن للعباد -بوصفهم عبادا- تبشير وتحبيب مشوق للقلوب إلى ديار الحبيب. قال ﷻ في سياق التبشير: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾(الزمر:١٧) وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ﴾(الشورى:٢٣). وإنما يتوب الله ﷻ على "العباد"، إذ هم الأحبة الذين يتجاوز الرب الكريم عن سيّئاتهم مهما كثرت؛ ما داموا هم "العباد" رضي الله عن الذين ذلوا لله وخضعوا له. قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(الشورى:٢٥).

وتوبة "العبد" لحظة فرح عند الله سبحانه، فرح يليق بجمال وجهه، وجلال سلطانه تعالى. وقد بيَّنه الحديث القدسي بيانا جميلا، فيه من معاني الشوق والقرب والتقرّب، والتقريب المتبادل بين العبد وربه، ما يملأ القلب ببهجة السرور والاحتفال. إنه جمال الرب الذي يبادل "عبده" -وإنما هو عبده- بحبه حُبًّا أكرم وأعظم، وبتقربه تقريبا أشرف وأحلم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال الله ﷻ: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني. واللهِ لَلّهُ أَفْرَحُ بتوبة عبده مِن أحدكم يجد ضالَّته في الفلاة!» (رواه مسلم).

ومن أروع التعابير القرآنية في هذا السياق، آية تتدفق كلماتها بل حروفها بكَوثر المحبة الإلهي الفياض جمالاً يغمر قلوب كل من سمّاهم الرحمن ﴿عِبَادِي﴾؛ ولو كانوا حديثي عهد بالضلال البعيد، والتّيه الرهيب، وشرّدوا بعيدا في ظلمات الآثام والذنوب! ثم جاؤوا فُقراء يطرقون الباب، وما بأيديهم من حسنات إلا هذه التوبة النصوح.. قال ﷻ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(الزمر:٥٣). فعلامَ ييأس "العبد" أو يقنط؟! وها الله تعالى يغفر الذنوب جميعا.. نعم جميعا! أأنت الذي جئت تطرق باب الله تائبا؟ إذن، أنت آمن إن شاء الله؛ لا تُخفْك أهوال الذنوب التي تجرها وراءك، ما دمتَ قد جئت في الوقت المناسب.. ودخلت إلى حضرة الرحمة الإلهية من باب الانتساب إلى الله "عبدا".

نعم، إن "العباد" -وهم عباد السلام- ينعمون عند الله بالأمن والطمأنينة والسلام، سكينة تملأ الوجدان شوقا إلى لقاء الله. قال ﷻ: ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(الزخرف:٦٨). إنهم الآمنون المحميّون بجواره الحصين في الدنيا والآخرة ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(الزمر:٣٦).. بلى! وإنّ من كفاه الله حماية وحفظا لهو الآمن حقا؛ فما له وللخوف أو القلق والضياع؟ ولذلك فقد توعد إبليس اللعين أن يُضِلَّ الناسَ، ويتّخذ منهم نصيبا مفروضا، فقال له الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾(الإسراء:٦٥).

فلك الحمد إلهي!.. لك الحمد، إذ أكرمت "عبادك" بالحفظ الجليل، والستر الجميل...

وإن للستر جمال القرب، والتناجي الودود مع الرب الكريم. أخبر النبي المصطفى ﷺ في الحديث القدسي، محدثا عن تجلي الرحمن لعبده يوم القيامة، تجليا يليق بكماله.. كان ذلك في حديث النجوى، وما أدراك ما النجوى! فعن صفوان بن مُحرز قال: "قال رجلٌ لابن عمر: كيف سمعتَ رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «يُدْنَى المؤمنُ

يوم القيامة من ربه ﷻ؛ حتى يضع عليه كَنَفَهُ[٤٨] فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أَيْ رب أعرف. قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، فَيُعْطَى صحيفةَ حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادَى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم!» (متفق عليه).

وَيْ..! وما أفضل من أن يكون المرء مشمولا بوصف "عباد الله" و"عباد الرحمن"؟! ألا إنها أوصاف المحبين في الدنيا وفي الجنة معا؟! فهم هنا يسلكون إلى الله بمسالك عباد الرحمن، خُشَّعًا لله، حلماء، كرماء.. يَسْرُونَ بالليل ويسربون بالنهار، مع قافلة العبّاد، على طريق الخضرة والنور، على أثر الأنبياء الأصفياء، بعيدا عن مستنقعات الجهل بالله، والخوض في دخان الحرائق المشتعلة بأسواق الفساد: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾(الفرقان:٦٣-٦٤).. إلى آخر السورة. وللآيات بعدها انسياب الماء المشع برضاء الله، وعطائه الغيداق من كمالات الصفات. كمالات تغري القلب بمواجيد ذات أشواق، وكؤوس ذات أذواق. لا يغنيك بذوقها حق الذوق كأسا كأسا غير المصحف الكريم.

قال الحبيب المصطفى ﷺ ناثرا من كلام الله العلي سنى قدسيا: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل.. فإذا قال العبد: ﴿اَلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمِدني عبدي!. وإذا قال: ﴿اَلرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي!. وإذا قال:

---

[٤٨] قال ابن حجر: "كَنَفَهُ: (بفتح الكاف والنون، بعدها فاء) أي جانبه، والكَنَفُ أيضا: السِّتْرُ، وهو المراد هنا. والأول مجاز في حق الله تعالى، كما يقال: فلان في كنف فلان؛ أي في حمايته وكلاءته". (فتح الباري لابن حجر، ٤٨٨/١٠).

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ قال الله تعالى: مجّدني عبدي. فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»(رواه مسلم).

فأيّ كرم هذا، وأي نعماء؟ وأي فيض هذا وأي عطاء؟ فمن يأنف أن يكون "عبدا" لله إذن؛ إلا عديم الذوق متخشب الإحساس؟! «هذا بيني وبين عبدي.. ولعبدي ما سأل» أتسمع؟ إنه يخاطبك: "عبدي!" فأنتما هناك يصل "بينكما" ودّ التناجي: «بيني وبين عبدي»! إنه وُدّ خفي، إنه بينكما.. تذُوقه أنت وحدك، هناك في محراب التعبد السَّني، الموصول بواردات السماء؛ حيث التجلي الجليل يفيض عليك بالنجوى، جمالا وسلاما... فهنيئا لك يا عبد!

وما سمى الله أنبياءه الأصفياء -وهم خير العباد- إلا "عِبادا".. فذلك كمال رضاه تعالى عليهم: شرف نسبتهم إليه سبحانه. وما كان منه ذلك إلا في سياق الرضى الواسع البديع. قال تعالى في شأن محمد ﷺ سيد العابدين: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾(الإسراء:١)، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾(الكهف:١)، وكذا قوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾(النجم:١٠).

وقد مدح الله الأنبياء السابقين فوصفهم بصفة العبودية له. قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[٤٩].

بل إن العبودية كانت -قبل ذلك وبعده- من أرقى مقامات الملائكة؛

[٤٩] وانظر: سورة ص:٤٥، ٣٠، ١٧، ٤١، ٤٤؛ الإسراء:٣.

قال تعالى يُجَهِّلُ الكفارَ الْمُفْتَئِتِينَ على الله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾(الزخرف:١٩).

الأمن والسلام لعباد الله

"العباد" إذن؛ هم الآمنون السالمون بإذن الله.. هم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وما ذكر الخوف في شأنهم إلا لنكتة خاصة، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾(الزمر:١٦). فمثل هذا إنما هو تخويف محبة لا تخويف بغض وغضب.. والله ﷻ أرحم بعباده من الأم؛ إذ تحنو بثديها الثر على رضيعها. إن الله ﷻ قد قرر مبدأ ثابتا قبل ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾(البقرة:٢٠٧).

ويا لروعة التعبير القرآني! إذ يفصل هذا المعنى الذي هو واقع منه تعالى بقصد "التخويف" التربوي، إذْ يكشف الله تعالى فيه عن جمال من سر الحب الإلهي عجيب.. جمالٍ يضرب بأنواره الباهرة في أعماق الوجدان؛ فيبهر القلوب، ويخطف العواطف! قال سبحانه ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(يس:٣٠). يا سلام! نعم، صحيح أن الله تعالى -كما تنقل تفاسير السلف- لا يتحسّر! وإنما يصور سبحانه بأسلوب جذّاب أخّاذ ما يقع بقلب العبد المؤمن من أسى وحسرة؛ إذ يشاهد مآل الكفار ومصيرهم البئيس التعيس، وما فرّطوا فيه من النعيم المقيم والخير العميم، مما لا يملك معه الإنسان إلا الحسرة والأسى.[٥٠]

---

[٥٠] وقيل أيضا: هو بيان لما يقع بقلوب الناس من حسرة وندامة؛ مما فرطوا في جنب الله؛ فكفروا وكذبوا! رواه الطبري عن مجاهد وقتادة، ونحوه عن ابن عباس (جامع البيان:

بَيْدَ أن العبارة دالّة أيضا على منتهى الرحمة في خطاب الله لعباده ولو كانوا كافرين. وأي قلب لا يتحسر إذ يدرك هذه الحقيقة الرهيبة؟! هؤلاء الناس الذين يتسابقون سراعا نحو هاوية الجحيم، يلقون بأنفسهم في غياباتها تباعا: ﴿يَا حَسْرَةً﴾.. والتعبير بـ"الحسرة" لا يكون إلا في سياق الأسى على فوت محبوب، أو ضياع مرغوب. ولذلك فهو دال على المحبة. والله ﷻ -تنزّه عن التحسر- إذ ذكر ذلك مصورا عاطفة إيمانية بشرية، سمّى أولئك الكفار "عبادا"؛ لأن السياق سياق محبة وإشفاق. والأصل في الأمر الكوني أن الله تعالى يحب الناس، كل الناس. وما كان يرضى لهم ما وقعوا فيه من كفر وضلال، فهو الذي قال: ﴿وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾(الزمر:٧).. ولكن هم ظلَموا أنفسهم إذْ أغضبوا الله ﷻ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾(آل عمران:١٨٢).. أفلا يستوجب الأمر إذن أن تصرخ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾؟!..

كلمات في قمّة البلاغة ودقّة التعبير.. كلمات ذات إيحاء لطيف لا يُكشف عن سره إلا ذوقا..

٢/٢٣-٣). وهذا المعنى وذاك كلاهما وارد عند الطبري والقرطبي وابن كثير في تفسير الآية من سورة يس.

القرآن العظيم وقضية الأمة [٥١]

إن السلام العالمي لن يكون إلا وليد النور الإلهي، النور الذي يشرق في قلوب المؤمنين بالخير والجمال؛ بما يسكبه القرآن في وجدانهم، من معاني الحق والعدل والحرية! ودون ذلك معركة يخوضها القرآن بكلماته ضد كلمات الشيطان، وإلا بقيت البشرية اليوم تغص حلاقيمها بفاكهة آدم إلى يوم الدين. والقرآن وحده يكشف شجرة النار ويتلف فاكهتها الملعونة.

إن هذا القرآن كلام غير عاد تماما، إنه كلام خارق قطعا، ليس من إنتاج هذه الأرض ولا من إنتاج أهلها، وإن كان عليهم تنزّل ومن أجلهم تلي في الأرض. إنه كلام الله رب العالمين الذي قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الزمر:٦٧). إنه الكلام الذي لم يملك قَبِيلُ الجن إذ سمعوه إلا أن: ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۞ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الأحقاف:٢٩-٣٠). وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢).

---

[٥١] مجلة حراء، العدد: ١٥ (أبريل-يونيو ٢٠٠٩م).

قوة غيبية أقوى مما يتصوره أي إنسان

إن كلمات هذا القرآن -لو تعلمون- قد تنزلتْ من السماء محملة بقوة غيبية أقوى مما يتصوره أي إنسان؛ لأنها جاءت من عند رب الكون، تحمل الكثير من أسرار الملك والملكوت، وهي جميعها مفاتيح لتلك الأسرار؛ بما فيها من خوارق وبوارق لقوى الروح القادمة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(الفرقان:٤-٦).

إن الذي يظن أنه عندما يقرأ القرآن يقرأ كلاما وكفى، تمضي كلماته مع الهواء كما تمضي الأصوات مع الريح؛ فإنه لا يقرأ القرآن حقا ولا هو يعرفه بتاتا، وإنما الذي يقرؤه ويتلوه حق تلاوته إنما هو الذي يرتفع به، ويعرج عبر معارجه العليا إلى آفاق الكون، فيشاهد من جلال الملكوت ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر، وهنالك يتكون ومن هنالك يتزود. فآهٍ ثم آهٍ لو كان هؤلاء المسلمون يعلمون! وصدق الله جل وعلا إذ قال: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(يس:٣٠). نعم، يا حسرة على العباد!

أَوَليستْ كلمات الله هي التي امتدت من هذه العبارات التي نتلوها إلى أعمقَ مما يمكن أن يتصوره الخيال، وأبعد من أن يحيط به تصور بشري من مجاهيل الوجود؟ ألا تقرأ في كتاب الله ذلك صريحا رهيبا؟ فاقرأ إذن: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(لقمان:٢٧). ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ

مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(الكهف:١٠٩).

من اليقين إلى التمكين

فأين ينتهي هذا القرآن إذن؟ إنه لا ينتهي أبدا. ويحك يا صاح! أليس تعلم أن كلام المتكلم صفة من صفاته؟ ومتى كانت صفات الله لها نهاية؟ وهو -جل جلاله، وعزّ سلطانه- رب العالمين، المحيط بكل شيء. فكيف إذن بمن تَخَلَّقَ بهذا القرآن وتحقق به في نفسه ووجدانه، وصار جزءا حقيقيا من حركة القرآن في الفعل الوجودي، وهذا القرآن تلك صفته وحقيقته؟ أوَليس حقا قد صار جزءا من القَدَرِ الإلهي الذي لا يتخلف موعده أبدا؟ أوَليس قد صار جنديا بالفعل من جنود الله، ممدودا بسرِّ ملكوت الله في السماء وفي الأرض؟ يحمل وسام النصر المبين من اليقين إلى التمكين. وهذا عربونه بين يديه الآن: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(الصافات: ١٧١-١٧٣).

وتَدبرْ كيف أن "كلمته" تعالى هي فعله القَدَريّ النافذ حتما، الواقع أبدا. ذلك أن كلام الله فوق كل كلام، إن كلامه تعالى خَلقٌ وتكوينٌ وإنشاء. إنه صُنعٌ فِعْليٌّ للموجودات والكائنات جميعا.. من المفاهيم إلى الذوات، ومن الذراتِ إلى المجرات. وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(يس:٨٢-٨٣).

إنه -جل وعلا- يأمر العدم فيكون وجودا، فيكفي أن تتعلق إرادته

بوجود الشيء ليوجد بالفعل. وإنما كل فعله تعالى في الخلق والصنع والتكوين مجرد "كلمة"، إنها فعل الأمر: ﴿كُنْ﴾ الآمر بالتكوُّن والتكوين، والتجلي من العدم إلى الوجود.

إن كلماته تعالى لا تذهب سدى في الكون، إنها بمجرد ما تصدر عنه -جل شأنه- تنشأ عنها ذوات وحركات في تدبير شؤون الْمُلك والملكوت. إن كلامه تعالى إذَنْ خَلقٌ وتقدير، وأمرٌ وتدبير.(٥٢)

ومن هنا كان وصف الله لعيسى عليه السلام -كما سبق بيانه- بأنه "كلمة الله": ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾(النساء:١٧١). وإنما جاء ذلك في سياق الرد على الذين زعموا أنه عليه السلام ابن الله -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا- فقوله: ﴿كَلِمَتُهُ﴾ دال على أنه تجلي إرادة الله من الخلق والتكوين! وهو ما بيّنه تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(آل عمران:٥٩). ومن هنا كانت البشرى لمريم "كلمةً" كلمة غيرت مجرى التاريخ، وبَنَتْ صرحا شامخا في تاريخ النبوة! قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(آل عمران:٤٥). فكان المسيح عليه السلام هو الكلمة! القضية إذن هي في: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ إنها "كلمة الله".(٥٣)

فكلام الله تعالى هو التعبير عن إرادة الخلق والتكوين، والتعبير عن قضائه الرباني وقَدَرِه الوجودي، وإن هذا القرآن العظيم لهو ترجمانه الأزلي، ودستوره الأبدي!

(٥٢) فانظر كم كان خطأ المعتزلة شنيعا لما زعموا أن القرآن -وهو كلام الله- مخلوق!

(٥٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠٣/٤.

المتخلق بالقرآن من جنود الله

وعليه، فإنك إذ تتخلق بالقرآن وتتحقق بمعانيه، تنبعث أنت نفسك جنديا من جند الله، بل أنت آنئذ جزء من قَدَر الله! وتدبّرْ كيف جعل الله من أتباع موسى ﷺ أداة قدرية شق بها البحر! تأمل هذا جيدا: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾(البقرة:٥٠). فالله ﷻ فرق البحر ببني إسرائيل لما كانوا مؤمنين، ولم تكن عصا موسى إلا أداة للفرق، أما العامل الفاعل -بإذن الله- فإنما هو عزائم الإيمان التي استبطنها كثير من أتباع موسى فكانوا جزءا من الخارقة نفسها ولم يكونوا غيرها! فتأمل: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ هكذا: ﴿بِكُمْ﴾ وليس "لكم"! وإن كان معنى هذه متضمَّنا في الأولى، ولكنَّ القصد بيانُ أن العبد إذا صار وليا لله كان أداة بين يدي الله -سبحانه- في تنفيذ قدَره في التاريخ! واقرأ إن شئت ما ورد في الحديث القدسي: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب" إلى قوله عنه: "فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(رواه البخاري).

ألا يا حسرة على العباد حقا! وعلى هؤلاء المسلمين بشكل خاص!

وإذن؛ فإن هذا القرآن لو صرَّفه أهلُه حركةً في الأرض لكان أقوى من أن تثبت أمامه كلمات الشيطان وسحر الإعلام، بل هو الحق الذي قال فيه الحقُّ ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(الأنبياء:١٨). لا طاقة لكهّان السياسة ببرهانه! ولا قِبَلَ لدجاجلة الإعلام بسلطانه! ولا ثبات لطاغوت الأرض أمام رجاله! ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ

وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١). وكيف لا؟ وهو قد جاء بفهرست الوجود كله! كيف وقد تنَزَّلَ بديوان الكون كله! وإن ذلك لَقولُ الحق جل علاه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٣٨). قال: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ وإنما جاءت الآية في سياق الخَلْق والتكوين لا في سياق التشريع كما توهم بعضهم! فهو شمول أوسع من مجرد الأحكام والحدود بكثير، شمول يسع العمران البشري كله، بل يسع عالم الملك والملكوت بما امتد إليه من غيب مجهول!

الدلالات الرمزية لقصة موسى عليه السلام

إن القرآن عندما يأخذه الذين ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾(البقرة:١٢١) يكون بين أيديهم نورا يبدد ظلمات الضلال، وزلزالا يخسف بحصون الإفك والدجل أنّى كانت، ومهما كانت! واقرأ قصة موسى مع سحرة فرعون فإن فيها دلالة رمزية عظيمة على ما نحن فيه، في خصوص زماننا هذا! ذلك أن "كلمة الباطل" كانت تمثلها آنئذ زمزمات السحرة، فتجردوا لحرب كلمة الحق التي جاء بها موسى، وخاضوا المعركة على المنهج نفسه الذي يستعمله الباطل اليوم، إنه منهج التكتلات والأحلاف! تماما كما تراه اليوم في التكتلات الدولية التي تقودها دول الاستكبار العالمي ضد المسلمين في كل مكان!

اقرأ هذه الكلمات مما حكاه الله عن سحرة فرعون لما قالوا: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾(طه:٦٤).. إنه إجماع على الكيد، كهذا المسمى في السِّحر الإعلامي المعاصر: بـ"الإجماع الدولي" و"الشرعية الدولية" والمواجهة لا تكون إلا بعد جمع كلمة الأحلاف

وصنع الائتلاف، لمحاصرة الحق من كل الجوانب ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ ثم يكون توريط المشاركين وتورطهم في الغزو بصورة جماعية، ولو بصورة رمزية! وذلك للتعبير عن "الصف" في اقتراف الجريمة، فيتفرق دم المسلمين في القبائل! قالوا: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ وتلك واللهِ غاية دول الاستكبار العولمي الجديد، التي يصرح بها تصريحا: السيطرة على العالم بالقوة! والتحكم في مصادر الخيرات والثروات!

ولكن أين أنت أيها الفتى القرآني؟

أنت هنا!.. اقرأ تتمة القصة وتأمل: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ۞ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ۞ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ۞ قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى ۞ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾(طه:٦٥-٦٩). إن القرآن الذي بين يديك أشد قوة من عصا موسى قطعا! فلا تبتئس بما يلقون اليوم من أحابيل ثقافية وإعلامية وسياسية حَذَارِ حَذَارِ! وإنما قل لهم: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾.. وَتَلَقَّ عن الله كلماته بقوة، أعني قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ وبادرْ إلى إلقائها بقوة، كما تلقَّيتَها بقوة: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾..

إنَّ كلمات القرآن عندما تُتَلَقَّى بحقّها تصنع المعجزات! فإذا أُلْقِيَتْ بقوة أزالت الجبال الرواسي، من حصون الباطل وقلاع الاستكبار! ولذلك قال الله لرسوله محمد بن عبد الله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾(النمل:٦). وأمَره بعد ذلك أن يجاهد الكفار بالقرآن جهادا كبيرا، وهو

قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفرقان:٥٢). والمقصود بمجاهدة الكفار بالقرآن: مواجهة الغزو الثقافي والتضليل الإعلامي بمفاهيم القرآن وحقائق القرآن.

إن تلك الثقافة وذلك التضليل هما اللذان يجعلان الشعوب تقبل أن تكون حقولا لتجريب أحدث أسلحة الدمار والخراب! إن العبد لا يكون عبدا تحت أقدام الجلّاد، إلا إذا آمن هو أنه عبد! ووطن نفسَه للعبودية! مستجيبا بصورة لاشعورية لإرادة الأقوياء. وذلك هو "السحر المبين". والقرآن هو وحده البرهان الكاشف لذلك الهذيان، متى تلقته النفس خرجت بقوة من الظلمات إلى النور. فيا له من سلطان لو قام له رجال!

إن المشكلة أن الآخرين فعلا يلقون ما بأيمانهم، فقد ألقوا اليوم "عولمتهم"، لكننا نحن الذين لا نلقي ما في أيماننا، ويقف المشهد -مع الأسف- عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ۞ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾(طه:٦٦-٦٧)، ثم لا يكتمل السياق، وتلك مصيبتنا في هذا العصر.

كلمات القرآن تصنع الرجال

نعم، إن كلمات القرآن -عندما تؤخذ بحقّها- تصنع رجالا لا كأي رجال، إنها تصنع رجالا ليسوا من طينة الأرض؛ ذلك أنها تصنع الوجدان الفردي والجماعي والسلطاني للإنسان، على عين الله ووحيه، فيتخرج من ذلك كله قوم جديرون بأن يسمّوا بـ"أهل الله وخاصته"، وبهذا يتحولون إلى قَدَر الله الذي لا يرده شيء في السماء ولا في الأرض، فَيُجْرِي الله ﷻ بهم أمره الكوني في التاريخ. أولئك الذين تحققوا بمعية رسول الله ﷺ تعلُّما

وتزكيةً: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح:٢٩).

إن كلمات القرآن هي السلاح الأوحد لمواجهة تحديات هذا العصر، إنها تتحدى اليوم -بما تزخر به من قوى غيبية- العالَمَ كله، فهل من مُستجيب أو هل من مُبارز؟ ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(الإسراء:٨٨). إنها كلمات تصنع كل ما يدور بخيالك من أسباب القوة والمَنَعة، من الإنسان إلى السلطان. ذلك أنها إذا تفجر نورُها ببصيرة العبد المتخلق بالقرآن، المتدبرِ لآيه العظيم، والمتحققِ بِحِكَمِه؛ جعل منه هو نفسه سلاحا يسحق ظلمات العصر ويكشفها كشفا، وبرهانا يدمغ باطل هذا الوابل الإعلامي الذي يهطل بالمصطحات المغرضة، والمفاهيم المخربة للمخزون الوجداني والثقافي للأمة، بما يبني من الوجدان الفردي للإنسان ما لا طاقة لوسائل التدمير المادية والمعنوية معا -مهما أوتيت من قوة- على تغييره أو تفتيته. ثم هو -في الوقت نفسه- يبني النسيج الاجتماعي للأمة، ويقويه بما لا يدع فرصة لأي خطاب إعلامي مضاد أن ينال منه، ولو جاء بشرّ الخطاب وأشد الخراب، كلمةً وصورةً وحركة!

القرآن سر الكون ومعجزة القضاء والقدر

إنه القرآن، سر الكون ومعجزة القضاء والقدر، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ

قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الزمر:٦٧). هذا الرب العظيم -لو أنت تعرفه- إنه يتكلم الآن، ويقول لك أنت، نعم أنت بالذات؛ لو أنت تستقبل خطابه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥) فافتحْ صناديق الذخيرة الربانية بفتح قلبك للبلاغ القرآني وكن منهم: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾(الأحزاب:٣٩)، إذن تتحول أنت بنفسك إلى خَلْق آخر تمامًا، وتكون من "أهل القرآن" أوَ تدري مَن هم؟ إنهم "أهلُ الوَعْدِ" وما أدراك ما "أهلُ الوَعْد"؟! إنهم بَارِقَةٌ قَدَرِيةٌ مِن: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً﴾(الإسراء:٥).. أولئك «أهل الله وخاصته» (رواه أحمد والنسائي وابن ماجه).وأولئك أصحاب ولايته العظمى، الذين ترجم لهم رسول الله ﷺ بقوله فيما يرويه عن الله ذي العظمة والجلال: «مَن عادى لي وليًّا فقد آذَنتُه بالحرب!» (رواه البخاري).. ذلك، وكفى.

وليس من مصدر لهم إلا كلمات الله.. هي المعمل، وهي الزاد، وهي قوت الحياة، وهي المنهاج، وهي البرنامج، وهي الخطة، وهي الإستراتيجيا. وما نستهلك دونها من الكلام إلا ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾(الأنعام:١١٢). وليس عبثا أن العرب لما سمعتها تتلَى فزعت، فصاحت: ﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(فصلت:٢٦). إنه المنهج نفسه الذي يتعامل به المغرضون اليوم مع القرآن، وهو الأسلوب المخادع عينه الذي تستعمله كل وسائله الإعلامية، بما فيها تلك الأشد فتكا وضراوةً: الفضائيات المباشرة الكبرى! وإنه لخطأ كبير ذلك الذي يمارسه بعض المخلصين للإسلام، من بعض دعاته؛ عندما يفتون بتحريم صحون

الاستقبال الفضائي، أو بطرد جهاز التلفزيون من البيت أو تكسيره! وما كانت محاربة الوسائل حلا ناجعا لدفع البلايا قط في التاريخ، وإنما كان أَولى بأولئك أن يدعوا إلى إدخال القرآن إلى البيت، وأن يجاهدوا لجعل تلك الصناديق مجالس قرآنية مفتوحة في كل بيت؛ إن البيت الذي يسكنه القرآن لا يدخله الشيطان أبدا!

أعط الشعوب فرصة لاستماع القرآن

وكأنما يبدو -عندما أقرأ لبعضهم أو أستمع له، وهو يحرّم جهاز التلفزيون، أو يحظر وسائل التلقي الأخرى من الفضائيات إلى الأنترنيت- أننا في حاجة إلى تجديد الثقة بالله أولا! عجبا! ومتى كان شيء أمضى من حد القرآن؟ نعم، فيا من تلعن الظلام في الظلام! إنما كان يكفيك أن تشعل زر النور فقط.. أَشْعِلْه من حرارة قلبك ووجدانك، ومن تباريح إيمانك! أَدْخِل القرآنَ إلى البيت بقوة تَرَ بنفسك غطرسة الإعلام -هذا الغول الذي أفزع العالم وثبط عزائمه- تتحطم بين يديك، كما تحطمتْ من قبلُ أوهامُ سحرة فرعون تحت عصا موسى، وتَرَ كيف أن نور القرآن يبتلع حبالهم وعصيهم، وتَرَ بعينك أنهم: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾(طه:٦٩) أدْخِلِ القرآنَ نصّا يُتلى، وآياتٍ تُتَدَارَس، وحركةً حيةً تملأ كيان الأسرة كلها، وتعمر وجدانَها، رجالا ونساءً وأطفالا، اِصْنَعْ ذلك تَرَ عجبا! تَرَ كيف أن الأطفال الصغار -من أسرة القرآن- يرفعون رايةَ القرآن عاليةً، عاليةً في السماء.

وإن ذلك لعمري هو عين التحدي الذي جاء به هذا القرآن، لمن كان يؤمن حقا بالقرآن. وما يزال اليقين الذي يعرض به القرآن خطابه الغلاب

يرفع التحدي منذ عهد رسول الله ﷺ إلى اليوم، بل إلى يوم القيامة. إنه يقول لك: أعطني -فقط- فرصة لأخاطب الناس.. أو بالأحرى: أعط الشعوب فرصة للاستماع لهذا القرآن؛ قال جل وعلا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(التوبة:٦). نعم، "ليسمع" فقط، ألا إن هذا لهو عين التحدي! ذلك أن كلماته كفيلة بإخراج الحياة متدفقة بقوة من ظلمات الموات. ذلك أنه أقوى حقيقةٍ راسخة في هذا الكون كله، ذلك أنه القرآن كلام الله رب العالمين! وتلك حقيقة لها قصة أخرى.

فلا غَلَبَةَ إذن لمن واجهه القرآنُ المبين، لا غلبةَ له البتة، وإنما هو من المهزومين بكلمة الحق القاضية عليه بالخسران إلى يوم القيامة، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(آل عمران:١٢). وقل لفَتَى الإيمان حاملِ رايةِ القرآن: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(آل عمران:١٩٦-١٩٧). فكل أساطيل الظلمة، وما يمارسونه من غطرسة وتقلب في البلاد من أرض إلى أرض تشريدا وتقتيلا.. كله، كله يرتد مذموما مخذولا؛ لو -ويا حسرةً على "لو" هذه!- لو يرفع المسلمون راية القرآن، فيكون مصير النفقات والإعدادات الاقتصادية الضخمة التي يحشدونها، لإبادة الشعوب المسلمة المستضعفة، والتي تعد بملايين المليارات، إلى خسار محتوم. واقرأ هذه الآية الصريحة القاطعة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(الأنفال:٣٦).

لكن الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت! هل أخذنا الكتاب بقوة؟

تَلَقِّيًا وإِلْقَاءً؟! وهل حملنا معًا راية التحرير، تحرير ذواتنا نحن المسلمين من هذه الوثنية الجديدة، أو هذا الدِّين الوضعي الجديد: العولمة! بأصنامها الثلاثة: الأول صنم الإعلام الممجِّد للشيطان. والثاني: صنم التعليم العلماني الذي يربّي الأجيال على التمرد على الله، وينتج ثقافة الجسد، المقدِّسة للغرائز والشهوات البَهَمِيَّة. والثالث: صنم الاقتصاد الاستهلاكي المتوحش، المدمر لكل شيء.

الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت! هل أخذنا العهد معا من القرآن؟ على العمل بمفاهيم القرآن، ومقولات القرآن؟ أم أننا لا نزال مترددين؟ نرزح تحت تأثير السِّحرِ الإعلامي والدجَل السياسي، نؤله الأصنام الوهمية التي صنعتها لنا ثقافة الآخر وبرامجه التعليمية، وننبطح متذللين تحت أقدام إغراءات ثقافة الاستهلاك نلتهم كل ما يطعموننا من نجاسات.

مدرسة القرآن، لتحرير الإنسان

الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت! فهذا القرآن -عهد الله- يفتح أبواب مجالسه للمؤمنين الذاكرين المطمئنين، أهل السِّيمَاءِ النبوية، الرُّكَّعِ السُّجَّد، السالكين إلى الله عَبْرَ مسالك اليقين، متدرجين بالغدو والآصال، ما بين نداءات الصلوات ومجالس القرآن، مُرَتِّلين للآيات، متدارسين ومتعلمين، حتى يأتيهم اليقين. تلك مدرسة القرآن، لتحرير الإنسان، وفكِّ إسَاره العتيد من أغلال الأوثان، ومفاهيم الشيطان.

فيا فتية القرآن! ألم يأنِ لكم أن توحِّدوا القبلة؟.. فإنما كلمة القرآن عهدُ أمانكم، لم يزل نورُها يخرق الظلمات إلى يوم الدين: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأعراف:١٢٨).

ثم ألقى الله -جَلَّ ثناؤه- العهدَ إلى رسوله محمد بن عبد الله ﷺ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(الشورى:٧).. قرآنا يتدفق عمرانه الرباني على الأرض، فيملأ العالَم أمنا وسَلاما، ينطلق متدرجا مثل الفجر، من تلاوة الذاكرين الخشَّع إلى صلاة العابدين الركع.. ينطلق حركةً قرآنية شعارها: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾(العنكبوت:٤٥). فمن ذا قدير على سماع خطاب الله ثم يخلد إلى الأرض، ويرضى أن يكون مع الْخَوَالِفِ، ويقعد مع القاعدين؟.. كيف وذاك عهد الله، عهد الأمان، فمن ذا يجرؤ على خرق أمانه؟

ويحك يا صاح!.. تلك الأيدي تمتد إلى يَدِ رسول الله ﷺ مستجيبة لتوثيق العهد، وهاتيك: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح:١٠).. إنها مجالس الرضوان، تحت شجرة رسول الله ﷺ، تشرق أنوارها الخضراء على زمانك هذا عبر "مجالس القرآن"، مجالس الخير المفتوحة على وجدان كل مَنْ ﴿كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(ق:٣٧).

فاستمع يا صاح!.. ذلك نداء الله يتنزل عليك! وتلك يد رسول الله تمتد إليك! ولكنَّ الزمن يَتَفَلَّت من بين يديك..! فإلى متى أنت لا تمدّ يدك؟!.

معارج الصلاة وإخراج الإنسان الكوني [٥٤]

الدين هو العبادة، والعبادة هي الصلاة. نعم، لعبادة الله أشكال شتى من الفرائض والنوافل والأعمال والحركات. سواء مما شرع للتعبد أصالة كالعبادات المحضة؛ أو مما شرع للتعبد تبعا، ككل أعمال العادات والمعاملات. ولكن ذلك كله مجموع في معنى الصلاة. فلا شيء من ذلك يكون عبادة حتى يرتقي إلى معنى الصلاة، ذوقا ووجدانا. ولذلك كانت الصلاة هي أعظم ما في الدين. كما في قوله ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة» (رواه ابن ماجة والترمذي)، وكان «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح له سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله» (رواه الطبراني). فالصلاة إذن هي الدين من حيث معناه الذي هو الخضوع لله الواحد القهار رغبا ورهبا.

وللصلاة في الإسلام جمال الدخول في موكب الكون العابد، سيرا إلى الله تسبيحا وتمجيدا. فذلك إذن مقام الأنس البهي، حيث يستشعر العبد صحبة الكائنات كلها، تنافسه في حبه الجميل، ووجدانه العليل، وتسابقه في مسراه عبر قافلة العابدين الراجين الخائفين: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾(الرعد:١٣).

---

[٥٤] مجلة حراء، العدد: ١١ (أبريل-يونيو ٢٠٠٨م).

فيا أيها الإنسان! ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(الحج:١٨){س} أيّ تناسق هذا بين الأرض والسماء؟! وأي تناغم هذا بين شتى المدارات؟! وأي شذوذ هذا الذي يمارسه الإنسان في تمزيق وحدة الوجهة نحو الخالق العظيم؟! فَلِمَ لا يسجد داود عليه السلام لربه في هذا الموكب المتسق التغريد والتجويد... ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِين﴾(الأنبياء:٧٩)، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيّ وَالإِشْرَاقِ ۞ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾(ص:١٨-١٩) ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(الإسراء:٤٤)، و﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾(النور:٤١).

الإنسان عبد كوني

إن هذا القرآن يخاطب الإنسان باعتباره كائنا "كونيا" بامتياز. إنه يعيش في الأرض. نعم، ولكنه يمتد بفكره الطموح إلى الآفاق البعيدة بملايين السنوات الضوئية، بل بملاييرها وزيادة. فهو "كوني" بما هو عبد الله رب العالمين، يحمل رسالة الله في رحاب هذا الكون كله، "الكون" بمفهومه القرآني الفسيح، الممتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، لا بمفهومه الفزيائي الضيق -على سعته- الذي يقف علماء العصر عند حدوده حائرين.

فما النجوم والكواكب كلها بفضاءاتها وسُدُمها إلا سقف هذه السماء الدنيا. والكون القرآني يمتد فوقها سبع سماوات. و"السماء" في القرآن

مفهوم غيبي لا علاقة له بالمادة المتجلية في عالم الشهادة. قال جل وعلا: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(الصافآت:٦)، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾(نوح:١٥-١٦).

أيْ عبدَ الله! انظرْ، هذه الأجرام السماوية تسبح الله وتصلي، سابحة في مدارها السائر أبدا إلى الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(الأنبياء:٢١).

أما أنت أيها العبد المؤمن! ففلكك السيار إنما هو مواقيتك الخمسة، تجري بك عبر أبراج المحبة ومنازل الشوق، فالبِدارَ البدارَ يا سالك بأوقات المطالع! فقد جمعت كل الخير في تجليات الجمال، وما بقي بعدها إلا التيه في فيافي الضلال. عجبا! وأي كوكب هذا الذي يرحل في مداره مجذوبا إلى جاذبيته، ثم يتخلف عن مطالعه؟ كيف وها ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾(النساء:١٠٣).

الوقت هو الصلاة

كان الوقت فكانت الصلاة.. وإنما الوقت هو الصلاة.. فتأمل! الإنسان، هذا الجرم الكوني الصغير، كان المفروض فيه أن يدور بفلكه كسائر الأجرام السيارة في الكون طوعا لا كرها. ولكن لو كان يدري... إن هذه الآية العظيمة تضعه في مداره الطبيعي ليسلك سبيله إلى ربه ذلولا: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾. وما الإنسان إن لم يكن هو هذا العمر المحدود ببداية ونهاية، وبينهما يوجد شيء اسمه الإنسان، فتأمل!

وإنما الصلوات الخمس مواقيت لرموز التحولات الزمنية؛ فالفجر بدء وبه تبدأ الحياة، وما بدأ شيء إلا لينتهي. والفجر اسم وقت قبل أن يكون اسم صلاة، لأننا إنما نعبد الله بالوقت. وإنما الوقت هو الصلاة لله رب العالمين الذي أنعم عليك بالبدء، أنعم بالحياة، فاملأ رئتيك -يا سالك- بالنَفَس الأول من صلاة الميلاد، ميلاد الحياة. ويا لخيبة من نام عن شهود النبـع الأول من عين الصفاء، فكرع من بعد الوقت ماء مسنونا! وهل يكرع الكارعون في آخر الماء إلا غسالة الأولين والسابقين؟!

ويدور الكوكب العابد في مداره هونا، حتى إذا توسطت الشمس كبد السماء اشرأبت الأعناق لسماع المؤذن يعلن بدء الزوال وانقلاب الظل إلى الجهة الأخرى. زوال الشمس يا صاحبي بداية العد العكسي في عمر الإنسان، فمذ دشن فجره وهو يعد عدا تصاعديا. حتى إذا زالت الشمس وامتد الظل قليلا إلى الجهة الأخرى بدأ الانحدار. ففرارا إلى الله إذن؛ تشهد منتصف عمرك صلاة ظهر، فما بقي أكثر مما سلخت من أنفاس، ذلك هو التحول الفلكي الثاني: محطة كبرى من محطات الزمن الأرضي، تشهدها عابدا لا شاردا عن باب الله. حتى إذا صار الظل مثل طول كل قامة امتد عنها بدأ العصر ينذر بقرب الأفول! وما العصر إلا إنذار لك يا سالك أنْ لم يبق لك من العمر إلا لحظات وتنتهي الأضواء إلى ظلمة القبر.

ماذا أعددت لذلك البيت الموحش من مؤنسات؟ والعصر محطة فلكية أخرى ينعصر فيها الزمن انعصارا ليشهد تحول الصهد المنخنق إلى أصيل. ذلك آخر الزاد إذن من سبحات النهار، ليس بعدها إلا مسك الختام. ومن هنا النذير الشديد لمن غفل عن هذه الساعة الفاصلة. فلحظة أو لحيظة -لا تدري كيف- ويكون الغروب. هنالك تشهد كيف يموت

الضوء، بل كيف تموت الحياة، وتصلي. وإنما المغرب غروب، تلك هي الحقيقة الأولى التي نطق بها الفجر مذ تفجر عن أنواره لو تعلمون. فيا عبد، ما أخرك عن شهود حقيقتك؟! هذا الكون كله يغرب، ولا عودة للحظة ماتت، لا عودة لها أبدا... محطة فلكية من تحولات الأزمنة، تشهدها صلاة خاتمة للأضواء، وفاتحة للعتمات. ثم ندلج إلى الله بالعشاء صلاة سارية. وإنما العِشاء من العَشاء، وهو في الأصل ضعف البصر حيث العتمة تمنع الإبصار إلا قليلا.

تلك إذن هي الصلوات الخمس، أوقات للتحولات الفلكية الكبرى، نعدها بالصلاة عدا. ألم أقل لكم كان الوقت فكانت الصلاة، وإنما الوقت هو الصلاة؟! ولقد قلت لك يا صاح، فتأمل!

وإنما الأوقات الخمسة رموز لليوم كله؛ فجْر، فظهْر، فعصْر، فمغْرب، فعشاء. فماذا بقي بعد ذلك من الوقت إلا امتدادات لهذه أو تلك؟ فالوقت كله إذن هو الصلاة. أنت تصلي الأوقات الخمسة؛ إذن أنت تصلي العمرَ كله، قلت: كله. وإنما فرض الله الصلاة عمرا، لا حركة ولا سكنة إلا صلاة. ألم يفرضها ﷻ أول ما فرضها خمسين صلاة، ثم خففها إلى خمس، كل وقت منها ينوب عن عشرة أوقات، والحسنة في ديننا بعشرة أمثالها؟

أنْ تعبد الله بالوقت يعني أنك تعبده بمهجتك، وما المهجة إلا العمر، وما العمر إلا زمن، وما الزمن إلا أعوام، وما الأعوام إلا أشهر، وما الشهر إلا أيام، وما الأيام إلا ساعات، وما الساعات إلا دقائق، وما الدقائق إلا ثوان. فما عمرك يا ابن آدم..

دَقّــاتُ قـلـب الـمـرء قـائـلـةٌ له   إن الـحـيـاة دقـائــقٌ وثـــوانِ

هكذا إذن؛ أن تعبد الله بالخمس يعني أنك تعبده بالعمر كله، تنثر مهجتك بين يديه تعالى وقتا وقتا، أو قل نبضا نبضا، ما دام هذا الفلك يعبر العمر إلى ربه هونا.

أما أن يفوتك وقت فيعني أنك قد خرجت عن مدارك. فانظر أي حافة من الفراغ العاصف تنتظرك، وأي قوة بعد ذلك ستعود بك إلى هدوء المدار...

أن يفوتك وقت يعني أنك فقدت جزءا من العمر. ومن ذا قدير على استعادة الزمن الراكض إلى وراء؟ ولقد قال الفقهاء لفعل الصلاة إذا كان في الوقت "أداء"؛ وإذا كان بعد الوقت "قضاء"؛ لأن الذي يقضي لا يؤدي أبدا. هل يمكنك استعادة الوقت؟ هل يمكنك استعادة التاريخ؟ هل يمكنك أن تعيش اللحظة مرتين؟ ولقد صدقوا في الفلسفة القديمة إذ قالوا: "لا يمكنك أن تسبح في النهر مرتين". لو لم تكن الصلاة "وقتا"، لأمكنك أن تفعل ذلك على سبيل التشبيه والتقريب، أما وإنها وقت فإنك لن تفعل، وإنما الذي تفعله أنك "تعوض" تعويضا، وما كان العِوَضُ -بعذر أو بغير عذر- ليكون كالأصل أبدا، لسبب بسيط هو أن المسألة وقت، فانظر لو أنك لم تأكل طعام عشائك حتى كان الصباح، ثم طلبته؛ أتكون حينئذ تتعشى أم تفطر؟ طبعا إنك لن تتعشى عشاءك ذاك بعدُ أبدا، ولو كان الطعام هو عين الطعام. لسبب بسيط هو أن المسألة وقت، ولا صلاة تفوت فتؤدى بعد ذلك أبدا، وإنما فرصتك الوحيدة أنْ تقضي إنْ جاز لك قضاء. وشتان شتان بين أداء وقضاء!

ألم أقل لكم كان الوقت فكانت الصلاة، وإنما الوقت هو الصلاة؟!

الوضوء حلية المؤمن

وأول البدء في الصلاة تجمل بالوضوء، فهؤلاء المؤمنون يتسابقون إلى تزيين وجوههم، وأيديهم إلى المرافق، ورؤوسهم، فأرجلهم إلى الكعبين. و«تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» (رواه مسلم)، ذلك شرط المرور إلى عتبة الصلاة، إذ «لا تُقبل صلاة بغير طُهور» (رواه مسلم).

وتتقاطر أفواج المصلين على الماء؛ ليرِدوا من بعد عطش شديد، مما أصابهم من دخان المال والأعمال. وتمتد الأيدي خاضعة ذاكرة يدفعها الحنين إلى ارتداء أوسمة الإيمان طهورا ينقلهم مباشرة إلى مناجاة الرحمن. وإن «الطهور شطر الإيمان» (رواه مسلم)، كلمة سرٍّ مُودَعة في كتاب الاستئذان من حديثك يا رسول الله.

وتدور الفصول من حر إلى قر، فيبقى الوضوء سرا من أسرار الجمال الذي ينسخ نوره آثار معركة الحياة، من سهام إبليس ورشاقته.

كانت كلمات النبوة بلسما، يوضع على الجروح فتشفى بإذن الله. فها أنا ذا يا حبيبي أرتحل إليك مخترقا حدود الزمان والمكان؛ لعلي أصيب رذاذا مما أصاب الصحابة الكرام، فجنبات المعمور ما زالت تردد أصداء النور النبوي: «ألا أدلّكم على ما يمحو به الله الخطايا، ويرفع به الدرجات؟" قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فذلكم الرباط، فذلكم الرباط» (رواه مسلم).

والمكاره شتى في هذا الزمن الرهيب يا نبي الله... فهذا قر الشتاء

أصبح اليوم خنقا، بتوقيت تعده عليّ ساعات الدرهم والوظيفة، وأشياء أخرى ما سلمت منها عين ولا خد ولا يد ولا رجل. فبأي حمأ آسن امتلأت برك هذا العصر الغريب!

ألا هونا عليك يا صاح! فما في الدنيا وسخ أو دَرَنٌ لا يغسله أريج الطهور. لكنما التحلي مقام ينبئ عن تمام التخلي. فهلم إذن، وَأْتِ من أي الجهات أتيت، وبأي الأدواء ارتديت، فكل حفنة من الماء كفيلة بمسح بعض غبار الطريق.

أوَليس «إذا توضأ العبد المسلم، أو المؤمن، فغسل وجهه؛ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه، مع آخر قطر الماء. فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع آخر قطر الماء. فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيًّا من الذنوب» (رواه مسلم). بلى يا رسول الله!..

مع الغر المحجلين

فما أبطأ بك إذن يا صاحبي؟ هذي جموع المؤمنين سارعت إلى لقاء رسول الله ﷺ بيوم القيامة، يرِدون حوضه الكريم، بأوسمتهم النورانية: كانت الخيل وهي مقبلة فأْل خير، ترفع غُرَرَها البيضاء نحو سماء الانتصار، ولقوائمها المحجّلة -وهي تباري الأسنة راكضة- جمالٌ، لا يضاهيه إلا جمالها وهي تقف هادئة بين يدي رسول الله ﷺ بوجه أغَرَّ وأطراف محجَّلة. وإنما ذلك في المؤمن نور يكتسبه بسبب ما كان يحلي به وجهه وأطرافه من طهارة، في مسرى العبادة، السالك إلى الله.

فلتسبغوا الوضوء على المكاره إذن سادتي الأتقياء، فإنكم «أنتم الغُرُّ

المحجَّلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله» (متفق عليه). تلك سيم الجمال في وجوهكم، وأطرافكم يوم تَرِدون على المصطفى ﷺ، وهي سِيَم «ليست لأحد من الأمم» (متفق عليه)، بها تُعرفون في كثرة الخلائق يوم القيامة، كالدر المتناثر في دلجة الفضاء.

هذه ومضة الإبراق النبوي تبشر برشح الأنوار على أطراف المتوضئين الساجدين، رشحا لا يذبل وميضه أبدا. فإذا النبي الكريم يميز المحبين وسط الزحام واحدا واحدا: «ما من أمّتي من أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة"، قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائق؟ قال: "أرأيت لو دخلت صُبْرة [محجرا] فيها خيل دُهْم، بُهْم، وفيها فرس أغر محجل، أما كنت تعرفه منها؟" قالوا: بلى. قال: فإن أمتي يومئذ غُرٌّ من السجود، مُحَجَّلُون من الوضوء» (رواه أحمد).

هذه قصة الماء الطهور في جداول السلوك إلى الله. وفي الماء سقاء لدالية الشعور بالرضى الرباني، والقبول للمثول أمام جلال الله. ألا ما أعمق الفرق في الغصن الواحد بين زمانين: الأول سنوات عجاف، لا نصرة ولا نعيم، ولا صدى لصهيل إلا قعقعة الحطب في ليالي الريح.. والثاني عام فيه يغاث الناس، فتتسلق الدوالي أغصان البروق، ويحتفل المطر، فإذا الأشجار مورقة ريانة، وإذا صفوف المصلين تتراص عند فاتحة الزمان الجديد، والوجوه مازالت ترشح بماء الطهور.. وتكون الصلاة... «والصلاة نور» (رواه مسلم).

كانت كلمات الإقامة إشعارا ثانيا -بعد الأذان- بضرورة نفض كل ما بقي من علائق التراب قبل الإذن للأجنحة أن تقلع في طريقها إلى مقام المحبة: "قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة!" وترتفع الأيدي المحجلة

تجاه القبلة في تكبيرة الإحرام، لتفريغ البال من جميع الأحوال، إلا حال الفقر المرفوق بالشوق إلى الغني الحميد، ثم تتأدب بالتزام الصدر في وقفة العبد بين يدي الملك العظيم، تأسيا بجمال الامتثال في قيام النبي ﷺ، وقد كان في وقوفه بباب الله «يضع اليمنى على ظهر كفه اليسرى والرسغ والساعد» (رواه أبو داود والنسائي)، و«كان يضعهما على الصدر» (رواه أبو داود)، ثم تشرق التجليات...

القِبلة جامعة الأفئدة

والقِبلة جامعة لشتات القلب والبصر، وإنقاذ للعبد السالك من مقام الحيرة إلى حدائق الطمأنينة، قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾(البقرة:١٤٤).

وكيف لا يحتار هذا الفكر الجزئي البسيط، القابع في مدار كوكب ضئيل، يدب في بحر لُجّيٍّ من الكواكب والمجرات، وتيه من العوالم والمخلوقات، مما يستعصي حتى على مجرد التصور الشامل والاستحضار الكلي... فكيف إذن لا يحتار هذا الفكر المحدود المنحصر، وهو بصدد الاتصال، وعلى أعتاب المناجاة مع رب هذه العوالم المحيط بجميع هذه المخلوقات...

فلتكن القبلة إذن قنديلا آخر في طريق التعبد يجمع المصلين في العالم أجمع حول قلب واحد، ينبض بتوحيد الله ذي الجلال، ويبعث من مكة المكرمة أنوارا تتلقاها أفئدة العابدين في كل مكان أن "هلموا، هذا بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس"، فتحج الأرواح من محاريبها

خمس مرات في اليوم... "الله أكبر!"

كأن سيف النور قد قطع الزمان نصفين؛ الأول إلى خلف، فما زال راكضا في تغيره يذوب فناءً بذوبان الأشكال والألوان المتهاوية تترى، في عالم الأوراق السافرة بين ربيع وخريف، ولا برعوم يورق مرتين: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾(الرحمن:٢٦-٢٧). والثاني إلى أمام، ما يزال متوجها إلى مقام البقاء.. فالنور المتجلي على الغرر البهية مستمد من معين لا ينضب، والعبادة لحظة تستمد خلودها من مناجاة الحي الذي لا يموت، فتفنى الذوات عند آجالها، وتبقى لحظات الصلاة حرما آمنا لا يناله أثر الزمان، ليرسم نعيما سرمديا بقناديل تستمد زيتها الوضاء من مشكاة الله، ويُتَخَطّفُ السعي العابث من حوله، فإذا هو محض سراب.

المناجاة بين الخالق والمخلوق

كان الوارد نورا يهمي من أعلى، فينفتح القلب بكلمات من نور آخر، فإذا اللحظة مناجاة بين الخالق والمخلوقات.

أنت الآن أمام جلال الله، تقدم إيمانك إخباتا بين يديه تعالى، والقلب مفتوح الأبواب، فلا شيء به يبقى مستورا. وقد تنتابك أدخنة الطين رياء ونفاقا، ما بين الذرة وأقل، فتفر إلى ربك مذعورا. وتناجيه حزينا أن "أبرئني يا سيد هذي الأوراد مني"... «أوَ لست تصلي» و«إنَّ أحدكم إذا صلى يناجي ربه» (رواه البخاري).

عجبا! فأي قوة ما زالت تصمد في ساقيك، فتمتثل وقوفا أمام عظمة الواحد القهار، والجبل قد اندكّ وراءك من خشية الله؟ أن تصلي يعني

أنك تقابل ربك غصنا منفوض الأوراق... فأنت كما أنت، لا تخفى منك خفقة قلب واحدة، صَفَتْ أم خالط دمعتها ريحُ الحمأ المسنون... و«إنَّ أحدكم إذا كان في الصلاة، فإن الله قِبل وجهه» (رواه البخاري)، والله قَبل ذلك وبعده ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(غافر:١٩). فكيف يمكن لهذا البصر أن يمتد قيد أنملة نحو السماء، والرب بجلاله قِبَله؟ إذن تندكّ ضلوعه، فيخر القلب صعقا، ولا يبصر شيئا بعدها أبدا.

كان التحذير النبوي حريصا على أمر المحبين بالتزام آداب المحبة حتى لا تستحيل حديقة النور إلى ظلام دامس. قال ﷺ: «لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، أو لا ترجع إليهم» (متفق عليه).

وأما التفات عن يمين أو شمال فهو «اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» (رواه البخاري). وأنّى لعبد في مقام الخضوع أن ينصرف عن مشاهدة الجمال بقلب ملؤه التقوى والورع؟! وأنى لعبد في مقام الخضوع أن ينصرف عن تذوق كؤوس الترتيل الطافحة بشهود الفلاح؟! كيف و﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾(المومنون:١-٢).

يا لآيات البهاء تنطلق كلماتها من ألسنة رطبة بذكر الله، مصطفة مثلما تَصُفُّ الملائكة عند ربها... وكيف تَصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأُوَلَ، ويتراصون في الصف» (رواه مسلم).

ألا صلى الله عليك يا رسول الله! أصَفٌّ في الأرض، وصف في السماء؟ والصلاة جامعة؟ هكذا إذن تخف الأجنحة المثقلة بأحزانها، وتنطلق الأسراب محلقة لمزاحمة الملائكة في مدارات النور عند أعتاب ملك الكون الظاهر والباطن.

ألا ما أشقى ذلك الجمل الشارد في صحراء الظلمات... لا يفتأ يلهث

راكضا خلف سراب مال متسخ، حتى يتسخ وبره وتنتن رائحته، فيرين على قلبه ما يحجب رؤيته لجدول الصلاة الرقراق، وراء رمال العصيان، ثم يموت يلهث عطشا دون ظل المورد العذب. وما بين استحالة الموت ميلادا إلا أن يركع لمالك خزائن القطر، فإذا القفر حواليه حدائق ذات بهجة، ترشح غصونها بأنداء الطهور، نورا يصفيه من جميع الأدران.

كان البهاء يحيط الحبيب المصطفى ﷺ، وهو في هالة صافية من أصحابه إذ قال: «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات؛ هل يبقى من دَرَنِه شيء؟" قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: "فكذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا"» (متفق عليه).

ويوقد الحبيب ﷺ قنديلا آخر فيقول: «ما أدري أحدثكم بشيء أم أسكت؟" فقلنا: يا رسول الله إن كان خيرا فحدثنا، وإن كان غير ذلك، فالله ورسوله أعلم. قال: "ما من مسلم يتطهر، فيتم الطهور الذي كتب الله عليه، فيصلي هذه الصلوات الخمس إلا كانت كفارات لما بينها» (متفق عليه)، وفي ومضة قنديل آخر: «وذلك الدهر كله» (رواه مسلم).

هذا المسرى الربيعي إلى الله، رَغَبا في ينابيع الرحمة والمغفرة، تتعانق الصلوات فيه أقواسا من الدوالي المورقة، حيث تتشكل العناقيد قناديل خضراء، ترسم خطوات النور الهادي إلى الرحمن، فتختزل العدد والزمان، إذ بكل خطوة عشر خطوات في طريق الله، فقد فرض الله على نبيه ﷺ -في السماء السابعة، وبغير واسطة الملاك جبريل عليه السلام- خمسين صلاة في كل يوم وليلة، ثم خفّفها سبحانه، اختزالا في خمس، ثم قال في الحديث القدسي: «يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة» (رواه مسلم).

أي فريضة هذه التي هي فضل كلها، ورحمة كلها، ونور كلها، وجمال كلها؟! وإن عبادة فرضت في السماء من غير واسطة الملاك؛ لحرية بالارتقاء صعدا بعشاقها إلى مقامات السماء.

فاصطبري يا أبدان على إدامة التطهر بنهر النور، فإن غصنا ينبت في جوار الغدير لا يجف أبدا، إن لم ينل من فيضه نال من نداه. والأمل يسري نضرة وجمالا في قده المياد ركوعا وسجودا.

سر الدعاء وخفاء الأسماء [٥٥]

الدين غذاء كلي شامل، غذاء للروح وللعقل وللبدن جميعا؛ فكل الصلوات، وكل الزكوات، وسائر الأعمال من الأركان والسنن والفضائل أطباق شهية من غذاء الدين. بيد أن كثيرا من الناس في هذا العصر غلب عليهم الاهتمام -من الدين- بما يغذي العقل فقط، أو ما يغذي عزيمة جهاد العدو فقط، أو ما يشحذ الذهن لخوض غمار الصراع السياسي فقط. وكل ذلك زاد ضروري للمؤمن، لكنه جزء من الدين وليس كل الدين.

ومن ثَمَّ كان لا بد من تغذية أخرى، تغذية ترجع على كل ما سبق بالتخلية والتحلية؛ حتى يكون معبّرا بصدق وإخلاص عن حقيقة الدين.. تغذية ذات طبيعة أخرى ومذاق آخر، تنال فيها من لذات الروح ما لا تجده في شيء آخر.. إنها "خلوة الروح للمناجاة والابتهال"، خلوةٌ لا يعكّر صِلتَك بالله فيها شيءٌ على الإطلاق.

وإنما هي أوقات تختارها بنفسك لتناجي فيها ربَّك بالثناء والدعاء، أوقات يصفو فيها قلبُك لله ويخلص له، بليلٍ أو نهارٍ، فتعرج إليه أشواقُك في خلوات الروح رَغَبًا ورَهَبًا، عبر كلمات الذكر والثناء عليه تعالى،

---

[٥٥] مجلة حراء، العدد: ١٢ (يوليو–سبتمبر ٢٠٠٨م).

بما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، مما عَلَّمَنَا سبحانه من أسمائه الحسنى وصفاته العلى.. فتدعوه بما دعاه الأنبياءُ والصِّدِّيقون والأولياءُ المخلَصون.

وإنَّ لِذِكْرِ الله ﷻ بالدعاء والثناء عليه -مَقْرُونَيْنِ- لأثرًا عجيبا على النفس، وإن ذلك لمِن أحبّ العبادات إلى الله، وأقربها طريقا إليه تعالى. والثناءُ على الله ﷻ يكون أساسًا بما أثبت لنفسه تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ ذلك أن الثناء عليه تعالى بأسمائه وصفاته، وجميل صنعه وفعاله، وحكمة تقديره وتدبيره، مرتبط أشد الارتباط بأدب الدعاء، في كل الصيغ الواردة عن الأنبياء والصالحين، كما هو منصوص عليه في القرآن الكريم والسنّة النبوية بشكل مستفيض؛ حتى إنك لا تكاد تجد دعاءً قرآنيا أو سُنِّيا إلا وتجده مقرونا بالثناء على الله بجمال أسمائه وصفاته تعالى. وهو منهج بقدر ما يكون أدعى للإجابة والقبول، يزيد العبد معرفة بالله وعلما به جَلَّ عُلاَه. وإن ذلك لَهُوَ من أعظم المقاصد التعبّدية في الدين، ومن أجمل الطرق الموصلة إلى رب العالمين.

وإنَّ أوقاتًا تصفو فيها النفس لمثل هذا لهي "الأوقات" حَقًّا! وقد كان الربّانيون من قبلُ إذا عَلِمُوا أحدَهم له مثل ذلك قالوا في ترجمته: "فلان له أوقات"، أو "كان صاحب أوقات" وكأنما "الوقت" -بهذا المعنى- إنما هو ما تمضيه في مناجاة الله.. وما سواه ليس لك بوقت، بل قد ضاع منك ومضى هدرًا..! وأما الآخر فقد بقيتْ لكَ بركاتُه إلى يوم القيامة؛ لحظاتِ خُلْدٍ تؤتي أكلَها كلَّ حين بإذن ربها، فَأَكْرِمْ بِهِ من "وَقْتٍ" وأَنْعِمْ!

ذلك أن المناجاة لله والابتهال -بالدعاء والثناء عليه تعالى- تورث القلب إشراقا نورانيا خاصا، يجعل العبد شفافَ الروح، صافي الوجدان،

يرى بنور الله.. فإذا به يتدرج -ما داوم على ذلك- عبر مدارج الإيمان نحو منزلة الولاية حتى يكون ممن أوتي البركةَ والحكمة، من الصّدّيقين والرّبّانيينَ.

سر الإخلاص

فأنْ تُناجيَ الله بالدعاء -كما وصفنا- يعني أنك تعبده بصدق، لأن الدعاء إنما يكون عند "الشعور بالافتقار" وذلك سر الإخلاص، وحقيقة التوحيد.. ومن هنا لا يمكن للمضطر إلا أن يكون مخلصا إذا دعا الله جل وعلا على الحقيقة.. نعم، حتى لو كان مشركا. وإنما يكون إخلاصه للحظة عابرة، هي لحظة "الشعور الاضطراري بالافتقار إلى الله"، ثم يعود إلى شركه. وسَبَبُ ذلك واضحٌ على مستوى النفس الإنسانية وطبيعتها، فاقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا﴾(الإسراء:٦٧)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾(يونس:٢٢-٢٣)، ومثله قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(العنكبوت:٦٥).

والسر في إخلاص المشرك عند الدعاء -ساعةَ الخوف والاضطرار- إنما هو شعوره الصادق بالحاجة إلى الله اضطرارًا، فهنالك يَضِلُّ عنه كلُّ ما كان يشرك به من قبل، ولا يبقى عنده من أمل حقيقي يتعلق به إلا الله.

حقيقة الدعاء

وإنما القصد من هذا كله بيان أن الدعاء هو التعبير الصادق عن الاحتياج والافتقار إلى الله؛ فكان بذلك هو أصفى لحظات العبادة لله وأخلصها لوجهه الكريم، والمؤمن الصادق المخلص هو أولى به وأجدر. فسير العبد إلى الله كلُّه دعاءٌ بهذا المعنى.. سواء في ذلك صلاتُه وصيامه وزكاته وذكره وشكره وخوفه ورجاؤه وسائرُ عمله. كل ذلك إنما حقيقته طلب رضى الله، وابتغاء وجهه جل علاه. وما معنى الدعاء غير هذا؟! فلم يبق شيء من الدين إذن لم يدخل في معناه. فلَكَ أن تقول إن الذي لا يدعو ربه -على كل حال- لا يعبده بصدق؛ بما هو لا يمارس العبادة على وجهها الحقيقي، أي تحقيق معنى الافتقار إلى الله في كل شيء، سواء على مستوى الوجدان أو التعبير.

ولذلك كان الدعاء هو جوهر العبادة وروحها. وكان ذلك البيان النبوي البليغ -من جوامع كَلِمه ﷺ- مما رواه الصحابي الجليل النعمان بن بشير ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إن الدّعَاء هو العبَادة» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(غافر:٦٠)» (أخرجه الأربعة)، ومن هنا تضافرت الآيات، وتواترت الأحاديث في الأمر بالدعاء، فكان قول الله تعال مما قرأه النبي ﷺ في الحديث المذكور دالا على وجوب الدعاء على الإجمال، إذ المخالفة مآلها ترهيب كما هو واضح من سياق الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، وعلى هذا يفهم قوله ﷺ: «من لا يدْعُ الله يغضَبْ عليه» (أخرجه الحاكم)، أي بما هو قد استغنى عن الله، فكأنما الحديث تفسير للآية. ولذلك قالت

عائشة رضي الله عنها: "سلوا الله كلَّ شيء حتى الشِّسْعَ، فإن الله ﷻ إن لم ييسّره لم يتيسّر"(٥٦). وهو تعبير بليغ عن حقيقة التوحيد وإخلاص الدين لله عقيدةً وعملا.

وليس عبثا أن يقص علينا القرآن الكريم أحوال الأنبياء والمرسلين في تحقيق هذا المعنى العظيم، وينقل إلينا عباراتهم الرقيقة، ومواجيدهم الجميلة، في مناجاة الله، والابتهال إليه رَغَبًا ورَهَبًا. وإنما كانت تربية سيدنا محمد ﷺ لأصحابه بتعليمهم اللجوء إلى الله في اليسر والعسر تحقيقا لهذا المعنى من الإخلاص والتعرف إلى الله بصدق.

ثم إن العبد إذ يغفل عن ربه تثقل نفسه ويضيق صدره بما يقع له من غرق في أوحال النفس وأدخنة الشيطان، فيحتاج إلى لحظات للتصفية، يجأر فيها إلى الله بالدعاء مستغيثا ومستعينا، حتى إذا انخرط في سلك المواجيد السائرة إلى الله بصدق تدفق عليه شلال الرحمة شفاءً وعافيةً فتنهض روحُه يَقِظَةً قويةً.. تستعيد عافيتها، وتسترد صفاءها بإذن الله. فمن ذا يستغني عن دعاء الله إلا جاهل بالله!؟

الأسماء الحسنى بين التجلي والخفاء

اهتم العلماء كثيرا -سلفُهم وخلفُهم- بقضية الأسماء الحسنى في سياق التعبد بها دعاءً وابتهالا إلى الله جل علاه نظرا لجلال أسرارها وجمال أنوارها، ولِمَا ورد في ذلك من الأمر في كتاب الله، من مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ

(٥٦) قال الألباني: "أخرجه ابن السني رقم: ٣٤٩، بسند حسن". والشِّسْع: أحد سُيُور النعل، مما يعقد به.

سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأعراف:١٨٠)، وقوله سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(الإسراء:١١٠)، وما صح في السنة النبوية الشريفة من قوله عليه الصلاة والسلام: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا -أعطى مائة إلا واحدا- من أحصاها دخل الجنة، إنه وِتْرٌ يحب الوِتْرَ»(متفق عليه)، وفي رواية: «من حفظها دخل الجنة" ورُوِيَ أيضا بصيغة: "إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما -مائة غير واحد- لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحبّ الوتر»(متفق عليه). وما ذلك كله إلا لأنها مدخل عظيم للتعرف إلى الله تعالى، والعروج إليه سبحانه عبر مقامات معرفته ومنازل محبته للفوز بكرم ولايته.

المراد بحفظ الأسماء وإحصائها

غير أنه تنتصب بين أيدينا ههنا قضيتان: الأولى تتعلق بمفهوم الحفظ أو الإحصاء الوارد في الحديث؛ والثانية تتعلق بمسألة عد هذه الأسماء وتعيينها. فأما القضية الأولى -وهي الراجعة إلى المقصود بمعنى الحفظ والإحصاء- فقد سبق لنا كلام عنها في غير هذا الموطن نلخصه كما يلي: وذلك أنه "قد ذهب أغلب العلماء -ما سترى بحول الله- إلى أن "الحفظ" هنا هو بمعنى حفظ المقتضيات من الأفعال والتصرفات، لا حفظ العبارات فقط، كما في قول النبي ﷺ: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده اتجاهك»(رواه أحمد والترمذي). والمقصود بحفظ المقتضيات توقيع كل أعمالك وتصرفاتك بما تقتضيه دلالاتها من حدود والتزامات.

فمثلا إذا انطلق العبد في طلب رزقه واكتساب قوته فإنما يفعل ذلك باسمه تعالى "الرزاق"، ومعناه أن يعتقد أن لا رزْق يصل إليه إلا ما كتب

الله له، ثم أن لا مانـع له منه وقد كتبه الله له، ويكون لهذا -إن صح اعتقاده فيه- أثره الإيماني، يجتهد كل يوم في تحصيله، فلا يساوم في دينه مقابل مال، عطاءً أو حرمانا، إذ وجد في معرفته باسم "الرزاق" أنه لا مانـعَ لما أعطى ولا معطي لما مَنَـع. وهو قصد من مقاصد حفظ "الاسم" من أسمائه الحسنى؛ الثبات على ذلك أمام الفتن، لا تزحزحه المضايقات ولا المناوشات ولا التهديدات، ولا تذهب به الوساوس كل مذهب، بل يسكن إلى عقيدته مطمئنًّا آمنا من كل مكروه، إلا ما كان من قدر الله، موقنا أن الله لا يريد به إلا خيرا. فذلك أمر المؤمن الذي ليس إلا لمؤمن، والمؤمن أمره كله له خير كما في الحديث الصحيح حيث قال عليه الصلاة والسلام: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إنْ أصابتْه سرّاء شكر وكان خيرا له، وإن أصابتْه ضرّاء صبر فكان خيرا له» (رواه مسلم).

إنها عقيدة السلام والأنس الجميل بالله. وبقدر ما تسكن النفس إلى اسمه تعالى "الرزاق" يذوق العبد من معنى "الحفظ" جمالا حميدا، وأنسا جديدا، فتعْلو القدم بذلك في مراتب العبودية، وتوحيد الألوهية مقامات أخرى. والربانيون في "حفظ" كل اسم من أسمائه الحسنى -بهذا المعنى- مراتب ومنازل. وبذلك يمتلئ القلب حبًّا لجمال أنواره وجلال إفضاله تعالى، فيزداد شوقا إلى السير في طريق المعرفة الربّانية التي كلما ذاق منها العبد جديدا ازداد أنسا وشوقا، فلا تكون العبادة -بالنسبة إليه حينئذ- إلا أنسا، وراحة، ولذة في طريق الله، إذ تنشط الجوارح للتقرب إليه تعالى بالأوقات والصلوات والصيام والصدقات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات، والدخول في سائر أعمال البر الصالحات. ولك في أسماء الله

الحسنى -من كل ذلك- مسالك تقربك إلى الله سبحانه وتوصلك إليه.

هذا هو الفهم الأليق بحديث الأسماء الحسنى، وهو ما ذهب إليه أغلب شراح الحديث عند تعرضهم لذلك؛ ومن هنا قال ابن حجر رحمه الله في الفتح: "وقال الأصيلي: ليس المراد بالإحصاء عدها فقط لأنه قد يعدّها الفاجر، وإنما المراد العمل بها. وقال أبو نعيم الأصبهاني: الإحصاء المذكور في الحديث ليس هو التعداد، وإنما هو العمل، والتعقّل بمعاني الأسماء والإيمان بها"[٥٧]. وقال أيضا: "وهو أن يعلم معنى كلٍّ في الصيغة، ويستدل عليه بأثره الساري في الوجود، فلا تمر على موجود إلا ويظهر لك فيه معنى من معاني الأسماء، وتعرف خواص بعضها (...) قال: وهذا أرفع مراتب الإحصاء. قال: وتمام ذلك أن يتوجه إلى الله تعالى من العمل الظاهر والباطن؛ بما يقتضيه كل اسم من الأسماء"[٥٨].

ذلك هو الشأن بالنسبة لسائر أسمائه الحسنى: الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن... إلخ. فكلها "حسنى" بصيغة التفضيل المطلقة هذه، أي لا شيء أحسن منها، فهي تبث النور والسلام والجمال، في طريق السالكين إليه تعالى بحفظها، وتملأ قلوبهم إيمانا وإحسانا"[٥٩].

---

[٥٧] فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب)، دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ، ٢٢٦/١١.

[٥٨] فتح الباري، ٢٢٦/١١- ٢٢٧.

[٥٩] بلاغ الرسالة القرآنية، فريد الأنصاري، ص:٥٣-٥٥.

عَدُّ الأسماء وتعيينها

وأما القضية الثانية وهي الراجعة إلى إشكال عَدّ هذه الأسماء وتعيينها صيغةً وعبارةً، الواحدة تلو الأخرى إلى تمام التسعة والتسعين؛ فإنها محط خلاف بين كثير من العلماء، خاصة وأنه لم يرِد في ذلك حديث صحيح يسردها جميعا ويعينها بذاتها، وقد ضعف العلماء ما أخرجه الترمذي وغيره من الحديث الوارد في سردها وإحصائها. إلا أنه لا يكون عبثا أن يكلف الله ورسوله -ندبا أو إيجابا- بأمر مُقَدَّرٍ على وجه التحديد، ويبقى مع ذلك مجملا غير قابل للتطبيق والتحقيق، هذا خُلْفٌ، بل هو ممتنعٌ وجودُه في الشريعة، وهو يتخرج على القاعدة الأصولية القاضية بأنه: "لا يجوز أن يتأخر البيان عن وقت الحاجة".

وأما قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما -أعطى مائة إلا واحدا- من أحصاها دخل الجنة» فهو نص في عدد هذه الأسماء، بما يعني أنها أسماء محصورة محددة من بين عدة أسماء أخرى غير مقصودة بالعد ولا الإحصاء في خصوص هذا التكليف. والسياق ههنا قاض بأن العدد "تسعة وتسعين" لا يخرج عن ظاهره بل هو عدد حقيقي مقصود، فقد قال: "أعطى مائة إلا واحدا" لتأكيد ظاهر العدد مما يجعله نصا على معناه بلا منازع. وإذن لم يبق إلا شيء واحد، وهو أن هذه الأسماء موجودة فعلا، يمكن الاشتغال بها دعاءً وتعبدًا، وليست من قبيل المجهول غير المبيَّن، وأن الندب مُتَوَجِّهٌ إليها حقيقةً لِمَا عُلم من أن الإتيان بها إحصاءً وعدّا وحفظا ممكنٌ شرعا وعقلا.

فأين هي إذن؟

الجواب بسيط: إنها جميعها في كتاب الله، فمن قرأ القرآن كله أدركها

قطعا. نعم، المشهور أن ما ورد منها في الكتاب -مما هو متفق عليه- إنما هو نحو الثمانين اسما، على اختلاف في العد.[٦٠] وهذا راجع إلى قضية معنى "الاسم"، وما المقصود منه؛ هل لا بد في عد الأسماء الحسنى وإحصائها من عبارة مفردة على جهة التسمية العَلَمِيَّةِ؛ أم يمكن في أسماء الله الحسنى بصفة خاصة الوصول إليها عَدًّا وإحصاءً وحفظًا من خلال مفاهيمها ومعانيها دون عباراتها المفردة؟

ذلك ما نرجحه، وهو أن بركة الاسم قد تحصل للعبد من خلال الوصول إلى مفهومه دون عبارته المفردة، لكن على أساس ألا يزعم المرء أن الاسم من الأسماء الحسنى هو هذه العبارة بالذات أو تلك، ولكن له فقط أن يقول: إنه ههنا في هذه الآيات، أي أن مفهومه متضمن فيها، على غرار ما ورد في معنى "اسم الله الأعظم" من النصوص، كما سترى بعد قليل بحول الله. إذ قد تكون حقيقة الاسم من أسماء الله الحسنى مضمنة في عدة آيات أو عدة جمل، وليس بالضرورة في لفظة واحدة مفردة، ويكون ذلك الاسم مما أعطى الله لعباده، أي ضمن التسعة والتسعين.

ولنا في أحاديث رسول الله ﷺ خير دليل، فقد صح في أحاديث الاسم الأعظم أنه قد يكون عبارة عن عدة أسماء، أو عدة صفات، أو عدة كلمات، أو عدة جمل، في عبارات مختلفة، قد تتداخل معانيها وتتقاطع، وقد تختلف اختلاف تكامل؛ بما يوحي أن للاسم الأعظم عدة تجليات.

---

[٦٠] عدها الشيخ العثيمين رحمه الله في كتابه "القواعد المثلى" "واحدا وثمانين اسما" بإضافة اسم "الحفي" أخذا من قوله تعالى حكايةً لقول إبراهيم لأبيه: ﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾(مريم:٤٧). وواضح أن سياق الآية لا يسعف في الدلالة العَلَميّة على هذا اللفظ لعدم إطلاقيته. وقد تردد فيه ابن حجر من قبلُ رغم عده إياه.

فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب في ثلاث سور من القرآن: في البقرة، وآل عمران، وطه»(رواه ابن ماجه والطبراني).

وقال ﷺ بشيء من التفصيل: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة:١٦٣)، وفاتحة آل عمران: ﴿الم ۞ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(آل عمران:١-٢)» (رواه أحمد وأبو داود). وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، فقال: «لقد سألتَ الله بالاسم الأعظم، الذي إذا سُئِلَ به أعطَى، وإذا دُعِيَ به أجاب» (رواه أبو داود والترمذي).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: مَرَّ النبي ﷺ بأبي عياش زيد بن الصامت الزرقي وهو يصلي وهو يقول: اللهم إني أسألك بأنْ لكَ الحمدُ، لا إله إلا أنت، يا حَنَّانُ يا منَّانُ، يا بديعَ السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام. فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتَ الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى» (رواه أحمد وابن ماجه). فهذا كله دال على أن الاسم الأعظم ليس بالضرورة عبارة واحدة، بل قد يكون كذلك، وقد يكون في عدة عبارات من عدة أسماء أو عدة صفات، كما رأيت في النصوص الصحيحة الواردة قبل.

ومن هنا نرجح أن بعض الأسماء الحسنى هي أيضا قد تكون لها تجليات شتى في كتاب الله تعالى. وهي غالبا ما تكون واردة في الآيات والسور التي يصف الله فيها نفسه، مما يتعلق بشؤون ربوبيته، وكمال

ألوهيته، وعظيم قدرته تعالى، من الخلق والأمر والقيومية والهداية، وما يحق له بعد ذلك على خلقه من إفراده تعالى بالخضوع له والعبودية رَغَبًا ورَهَبًا، مما ورد في سياق الأمر بعبادته توحيدا وتفريدا.

كل ذلك وما في معناه مما هو وارد في القرآن الكريم متضمن لأسمائه الحسنى وصفاته العلى. ونحن نرجح أنه ما من اسم من الأسماء المقصودة بالعد والإحصاء والحفظ على ما ورد في الحديث المتفق عليه إلا وهو منصوص عليه في القرآن الكريم، بهذا المعنى الذي ذكرنا للأسماء إن شاء الله. وقد حرص غير واحد من علماء السلف والخلف على استخراجها من القرآن على ترجيح أن سياق الأية: ﴿وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾(الأعراف:١٨٠) يفيد أنها كذلك. وإلى هذا ذهب غير واحد من أهل العلم، فقد قال القرطبي في كتابه "الأسنى في شرح الأسماء الحسنى": "العجب من ابن حزم، ذكر من الأسماء الحسنى نيفا وثمانين فقط، والله يقول: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٣٨)"[٦١].

علماء تتبعوا الأسماء من القرآن

وقال ابن حجر في فتح الباري: "وإذا تقرر رجحان أن سرد الأسماء ليس مرفوعا، فقد اعتنى جماعة بتتبعها من القرآن من غير تقييد بعدد. فروينا في كتاب المائتين لأبي عثمان الصابوني بسنده إلى محمد بن يحيى الذهلي أنه استخرج الأسماء من القرآن. وكذا أخرج أبو نعيم عن (...) محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: "سألت أبا جعفر بن

[٦١] نقلا عن تلخيص الخبير في أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر العسقلاني، (تحقيق عبد الله هاشم اليمني المدني)، المدينة المنورة ١٩٦٤/١٣٨٤، ٤/١٧٣.

محمد الصادق عن الأسماء الحسنى فقال: هي في القرآن". وروينا (...) عن حبان بن نافع، عن سفيان بن عيينة الحديث، يعني حديث: «إن لله تسعة وتسعين، أعطى..»، قال: فوعدنا سفيان أن يخرجها لنا من القرآن فأبطأ، فأتينا أبا زيد فأخرجها لنا، فعرضناها على سفيان، فنظر فيها أربع مرات، وقال: نعم هي هذه"[٦٢].

وقال ابن حجر في تلخيص الحبير: "وقد عاودت تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حررتها منه تسعة وتسعين اسما. ولا أعلم من سبقني إلى تحرير ذلك. فإن الذي ذكره ابن حزم لم يقتصر فيه على ما في القرآن، بل ذكر ما اتفق له العثور عليه منه، وهو سبعة وستون اسما متوالية، كما نقلته عنه، آخرها "الملك"، وما بعد ذلك التقطه من الأحاديث. وقد رتبتها على هذا الوجه لِيُدْعَى بها:

"الإله، الرب، الواحد، الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الحي، القيوم، العلي، العظيم، التواب، الحليم، الواسع، الحكيم، الشاكر، العليم، الغني، الكريم، العفو، القدير، اللطيف، الخبير، السميع، البصير، المَولى، النصير، القريب، المجيب، الرقيب، الحسيب، القوي، الشهيد، الحميد، المجيد، المحيط، الحفيظ، الحق، المبين، الغفار، القهار، الخلاق، الفتاح، الودود، الغفور، الرؤوف، الشكور، الكبير، المتعال، المقيت، المستعان، الوهاب، الْحَفِيُّ، الوارث، الولي، القائم، القادر، الغالب، القاهر، البر، الحافظ، الأحد، الصمد،

---

[٦٢] فتح الباري، لابن حجر، ٢١٧/١١.

المليك، المقتدر، الوكيل، الهادي، الكفيل، الكافي، الأكرم، الأعلى، الرزاق، ذو القوة، المتين، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب، ذو الطول، رفيع الدرجات، سريع الحساب، فاطر السماوات والأرض، بديع السماوات والأرض، نور السماوات والأرض، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام".

[ثم قال:] تنبيه: في قوله "من أحصاها" أربعة أقوال، أحدها: "من حفظها"، فسره به البخاري في صحيحه (...) ثانيها: من عرف معانيها وآمن بها. ثالثها: من أطاقها بحسن الرعاية لها وتخلق بما يمكنه من العمل بمعانيها. رابعها: أن يقرأ القرآن حتى يختمه؛ فإنه يستوفي هذه الأسماء في أضعاف التلاوة. وذهب إلى هذا أبو عبد الله الزبيري. وقال النووي: الأول هو المعتمد. قلتُ:[٦٣] ويحتمل أن يراد من تتبعها من القرآن، ولعله مراد الزبيري"[٦٤].

صحيح أن السنة النبوية ورد فيها من الأسماء الحسنى والصفات العلى الشيء الكثير، مما يربو -إذا أضيف إلى الأسماء المفردة المنصوصة في القرآن- على عدد التسعة والتسعين بكثير. ولذلك فقد وقع الخلاف في أيها المقصود بالإحصاء -في الحديث المذكور- مما لم يقصد، بيد أن منهج القرآن قائم على أن عظائم الأمور من أمهات الفضائل وأمهات الرذائل؛ يكون عادة مما نص عليه الله -جل علاه- في القرآن. وإنما يرد في السنة تفصيل طريقة العمل به، أو بيان فضله. وبما أن القرآن هو أعظم كتاب في التعريف بالله ربا وإلها -وتلك من أهم مقاصده العظمى- فلا

[٦٣] القول لابن حجر.

[٦٤] تلخيص الحبير، ٤/١٧٣-١٧٤.

يعقل أن يخلو من أمهات الأسماء الحسنى، لاسيما وأن الله ﷻ نَصَّ في غير ما موطن من كتابه على أهميتها، وعلى طلب الدعاء بها كما مر في قوله تعالى: ﴿وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأعراف:١٨٠).

فإذا قيل أين هي؟ قلنا إنها فيما نص الله تعالى عليه من الأسماء المفردة في القرآن، من مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۞ هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاواتِ وَالأَرضِ وهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(الحشر:٢٢-٢٤)، ثم إنها أيضا حاضرة في كل آية وصف الله تعالى بها نفسه، إذْ كل ذلك أيضا متضمّن لمعنى الاسم، كما في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(آل عمران:٢٦-٢٧).

فهذه الآيات العظيمة متضمنة لعدد من مفاهيم الأسماء الحسنى، وهي وإن لم ترد بصيغٍ عَلَميّة أو عبارات مفردة إلا أنها عميقة الدلالة جدا على عرض جانب من عظمة الله تعالى وكمال قدرته على كل شيء بما يحيل على مفاهيم لأسماء حسنى واردة على سبيل العَلَمِيَّةِ الصريحة في مواطن أخرى من الكتاب والسنة كأسمائه تعالى: "المالك، والملِك، والحي، والقيوم، والقدير، والقادر، والخالق، والرزاق" ونحو ذلك كثير...

فمن سأل الله بمثل هذه المواطن من القرآن مُضَمِّنًا في دعائه نصوصَ الآيات -كما مر في بعض أحاديث الاسم الأعظم الثابتة- أدرك الأسماء الحسنى المقصودة جميعا إن شاء الله. ومن أضاف إلى ذلك ما صح من السنة النبوية من الأسماء كان -بإذن الله- أعمَّ وأشمل وأحوط لمن قصد إحصاءها إحصاءً وإن لم يكلف نفسه عناء العد الحرفي والاستقراء اللفظي. فإذا بنى ذلك كله على ما ذكره الشراح من معنى الحفظ -بما هو التحقق والتخلق بمقتضياتها- رَجَا أن ينال وعد رسول الله ﷺ من الفوز بالجنة، وإنما الموفق من وفّقه الله.

كلمات الله في معركة السلام [٦٥]

لا تحرير للأمة اليوم في معركة هذا العصر إلا بالقرآن، لأن طبيعة المعركة الجديدة قائمة على "الكلمة"، والقرآن العظيم هو الكلام القاهر فوق كل كلام. ولكن بعد أن نفهم السؤال الإشكالي: ما حقيقة "الكلمة"، وما دورها في معركة العصر الجديدة؟

إن "الكلام" ليس "قولا" وحسب؛ إذ "القول" دال على كل ملفوظ، سواء أفاد معنى أم لم يفده، كما هو معلوم من تعريفات النحاة، بينما "الكلام" لا يكون إلا لفظا مفيدا لمقصودٍ مراد للمتكلم، سواء أفاد خيرا أم أفاد شرا، على وزان قول ابن مالك: كلامنا لفظٌ مفيدٌ كاستقمْ.

ومن هنا ننطلق من هذا التقعيد النحوي المدرسي البسيط لنجزم بعد ذلك بأن الكلام -على هذا المعنى المؤصل في قواعد العربية- لا يكون إلا فعلا جاريا في الواقع، وحدثا جالبا لأثرٍ في التاريخ.

إن الكلمة -أيّ كلمة- إنما هي فعل من الأفعال، هذا على المستوى الوجودي. وتأمل كيف أن الخطاب مهما يصدر من منتجه فإنه لا بد يؤثر في الواقع ولو على المستوى النفسي ابتداء، ثم يكون له بعد ذلك أثر فعلي. وأقل الأثر أن يعود على صاحبه بالخير أو بالشر. ولا يتصور في

---

[٦٥] مجلة حراء، العدد: ١٦ (يوليو-سبتمبر ٢٠٠٩م).

الواقع والعادة الجارية في الخلق كلام بلا أثر مطلقا ألبتة. وهذا يبدأ من مستوى الخلق والإنشاء والتكوين، مما ينسب إلى الله ﷻ من الأفعال والأقدار، إلى مستوى الفعل الإنساني والإنجاز البشري في الواقع والتاريخ.

فمثال الأول: قول الله تعالى فيما عَرَّف به حقيقةَ نبيه عيسى عليه السلام، واصفا إياه بأنه ﴿كَلِمَتُهُ﴾ قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾(النساء:١٧١). فكان عيسى ههنا هو "كلمة الله" جل علاه، أي إنه راجع إلى أمره القدري التكويني. إنه إذن خَلْق الله لأن "الكلمة" راجعة إلى فعله تعالى المتعلق بتدبير شؤون الربوبية خلقا وتقديرا وقَيُّومِيَّةً. وهذا المعنى شامل في كل خلق أو تصرف إلهيّ، وفي كل قضاء وقدر. لا شيء من ذلك كله يخرج عن "كلمة الله".

ومما يدل عليه أيضا أن "الكلمة" في القرآن أمرٌ واقعٌ حتما قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾(هود:١١٠)، وقوله سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(هود:١١٩). ومثْلُ هذا في القرآن كثير لمن شاء أن يتتبعه.

فكل ذلك ونحوه مما تضمن ضميمة ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ دال على معاني الخلق والإنشاء والتكوين والتصيير، وبسائر أفعال القضاء والقدر الإلهن. وليست "الكلمة" قولا يقال لمجرد القول وكفى، بل هي إنجاز حتمي لا يتخلف توقيعه أبدا. فمتى قيلت "الكلمة" -بهذا السياق- كان معناه أنها فُعِلَتْ. ومن هنا لم تخرج "كلمة الله" عموما عن معنى فعل الله جل وعلا، وهو سبحانه وتعالى لا يُخْلف القول ولا الميعاد.

أساس الناطقية والاستخلاف

ومثال الثاني قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١). فالأسماء -مهما اختُلف في تفسير معناها- فإنه لا اختلاف في أنها "كلام" بالمعنى الشرعي والوجودي للكلمة، ولا يمكن أبدا أن تتصور "الأسماء" على أنها لغو أو عبث. فهي أساس الناطقية التي فُطِر عليها الإنسان، والتي تُشكل جوهرا أساسيا من ماهيته الوجودية ووظيفته الكونية، والتي كانت -بعد ذلك- أساس الاستخلاف له في الأرض. ومثلها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(الرحمن:٣-٤). ومن هنا كانت مسؤوليته عما يتكلم به كبيرة جدا، وهي مسؤولية لا تخرج عن عموم الأمانة التي أنيطت بالإنسان في قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾(الأحزاب:٧٢). فالكلام البشري كله محصيّ عليه كلمةً كلمةً، يستوي في ذلك إنشاؤه وخبره، لأنه كله يوزن بميزان التحقيق بين الصدق والكذب.

وعليه؛ فتعريف البلاغيين "الخبر" في الدرس البلاغي بأنه "ما احتمل الصدق والكذب" -بزعمهم- تعريف غير مانع أبدا، بالمعنى الوجودي لكلمة "خبر"، لا بالمعنى اللغوي العادي. فتعاريف البلاغيين راجعة إلى موازين المنطق الأرسطي الصوري، وقد عُلِمَ ما فيه من خلل منهجي في تحديد المفاهيم والتصورات، إذ هو قائم على تحديد الماهيات بحدود عقليات خاضعة لمنطق العقل المجرد عن معطيات الوحي، ولا يمكن لمثل تلك الموازين إلا أن تكون "صورية" فعلا كما عبروا هم أنفسهم. فإلى أي حد تطابق الصورة الحقيقة؟ تلك هي المشكلة.

ومن هنا فحد "الخبر" عندهم هو وإن جَمع المقصودَ فإنه لا يمنع دخول غيره فيه، أي معنى "الإنشاء"؛ أرأيت لو أن شخصا نادى غيره، أو أَمَرَهُ، أو نهاه، وهو لا يقصد ذلك ألا يكون كاذبا؟ بلى والله! فإنما الكذب مخالفة العبارة لمقتضى الواقع، وهذا منه؛ لأن المنادِي، أو الداعي، أو النادب، أو المستغيث، أو الآمر، أو الناهي.. إلى آخر ما صنفوه في معنى الإنشاء؛ كل ذلك إذا لم يصادِف إرادةً في نفس المتكلم وقصدًا فهو كذبٌ محض. فالإنشاء إذن -بهذا المعنى الوجودي- يحتمل الصدق والكذب أيضا. وهل يتوجع المتوجع لغير وَجَع؟ وهل يستغيث المستغيث لغير فَزَع؟ فإن قصد به معنى آخر من مجاز وغيره، كان ذلك المعنى الجديد المعدول إليه هو أساس الصدق والكذب بعد ذلك، وإنما العبرة بالخطاب قصدُ المتكلم وإرادتُه. فلا شيء من الإنشاء إلا وهو يحتمل الصدق والكذب أيضا.

حظ اللسان في الأحكام

وأزعم أنه لا شيء من الكلام الطبيعي للإنسان إلا وهو يحتملهما، ومن هنا قول الله تعالى الجامع لكل ذلك: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٨)[٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(الكهف:٤٩).

[٦٦] قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٨) هو من العام الذي أريد به الخصوص، إذ عُلِمَ في الدين أن القول غير المبني على قصد لا يدخل في دائرة المحصي على ابن آدم، ولذلك فالقول المقصود هنا هو الكلام المفيد قصدًا ومعنًى.

ويدخل في ذلك قطعا كل ما تلفظوا به من قول.

ولذلك فقد نال اللسان الحظ الأوفر في الاعتبار في أحكام الشريعة؛ فكانت العقود كلها سواء كانت عقود الإيمان والإسلام، من بيعة شرعية، أو تعهد ومعاهدة، أو نكاح أو طلاق، أو كانت من المصارفات المالية من بيوع وإجارات وأكرية وغير ذلك مما يمكن أن يتصوره الذهن كلها إنما هي عند التحقيق "كلام" وليست مجرد لعب أو لهو من الأقوال، لأنها قائمة على معنى "مفيد"، أي مقصود مراد للمتخاطبين؛ بما فيها من إيجاب وقبول وما جرى مجراهما من معاني التراضي والإقرار.

ومن هنا قول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(المائدة:١)، وقوله سبحانه في سياق بيان أن الإنسان محاسَب على كل ما يصدر منه من الأقوال، مما أوردناه قبل قليل: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٨). وفي الحديث: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم»(رواه البخاري). ومن ثَمَّ لم يكن جِدُّ رسول الله ولا مزاحه ﷺ إلا حقا وصدقا، ولم يكن فيه كذب قط، حاشاه عليه الصلاة والسلام.

إن الكلام مؤثر جدا في إنتاج الفعل الإنساني بل هو عين الفعل الإنساني، ولا شيء من فعله إلا وهو حاصل بالكلام مباشرةً أو نتيجةً أو توجيها أو تفاعلا، وإنما بدء التكليف الإلهي للإنسان كَلِمَةٌ، وآخرُه كَلِمَة، منذ قال له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾(آل عمران:٥٩)، إلى أن علَّمَهُ ﴿الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ إلى أن أنزل عليه "كلامه" القرآن الكريم.

وأول الوزن وزن الكلام

فالذي لا يعير للكلام -أي كلام- الخطورةَ التي يستحقها فهو جاهل بحقائق الدين وحقائق الوجود معا. وكثير من العقوبات في الإسلام والحدود والتعازير والآثام ...إلخ، إنما ترتبت شرعا عن مجرد "كلام" يتكلم به الإنسان باطلا، بدءا بكلمة الكفر إلى كلمة القذف، إلى ما شابه ذلك من كلمات الغيبة والنميمة وعبارات السخرية والتنابز بالألقاب وهلمّ جرا.

كما أن بدء الخير كله "كلمة" انطلاقا من كلمة الإخلاص: "لا إله إلا الله"، وما يتمّمها من شهادة "أن محمدا رسول الله"، إلى أبسط كلمات الإيمان والإحسان، كإفشاء السلام، وتشميت العاطس، وإرشاد السائل... وما بين هذا وذاك من كليات الكلام وجزئياته، فإنه جميعا يَؤُول -في النهاية- إلى بناء عمران الحياة الإنسانية، القائمة على العدل والسلام؛ لأن ذلك كله هو الذي ينتج فعل الخير بمعناه المطلق، ويحقق غاية الوجود البشري في الأرض. ومن هنا كانت أول نعمة امتنّ الله بها على الإنسان بعد نعمة الخلق أنه علّمه البيان. ولذلك كان القرآن بين يديه -وهو كلام الله- الأداة الكلامية الفاعلة لإقامة الحياة في الأرض بالقسط والميزان. فتَدبَّرْ قولَه تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۞ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۞ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۞ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:١-٩). وأول الوزن وزن الكلام، الذي هو حقيقة "البيان"، فإذا خسر خسرتْ كلّ الموازين بعده بدءا بموازين السياسة -بمعناها العام- وما تتضمّنه من موازين الإدارة والاقتصاد، إلى موازين التجارة وسائر المصارفات المالية والاجتماعية الجزئية والكلية... إلى كل

طبائـع العمران وتجليات الحضارة البشرية، إلى كل ما يمتد إليه ذلك من فقدان توازن الحياة الإنسانية والبيئية والكونية.

اللغة وصناعة الحياة

إن اللغة تصنـع الحياة أو تُدمّرها. ومن هنا كانت مسؤولية الكلمة في الإسلام جسيمة جدا، والإعلام اليوم هذا الذي يسمّونه "السلطة الرابعة" ليس في واقـع الأمر إلا السلطة الأولى، لأن المتسلط على الخلق، الحاكم أمرهم بالحق أو بالباطل، إنما وصل إلى مبتغاه من التسلط والتحكم بالكلمة. فحتى عندما يكون الأسلوب المتّبع في التسلط قهريا فإنما صنـع الطاغية أدوات قهره وتجبره في البداية بالكلمة، ولا شيء يبدأ قبل الكلمة، فَبَدْءُ الوجود والخَلْقِ والتكوين في القرآن الكريم إنما هو كلمة، إنها كلمتُهُ ﷻ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ قال جل شأنه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(يس:٨١ -٨٣).

إن الكلمة هي التي تصنـع الصورة وتنتجها، بل هي جوهرها وحقيقتها؛ فلا يغرنك أن الإعلام اليوم صار يرتكز أساسا على الصورة، فإنما هذه -رغم خطورتها- بنت تلك في نهاية المطاف. ولولا الكلمات لما كانت الصور في الوجود أصلا. أضف إلى ذلك أن الصورة تُعْرَضُ حينما تُعْرَضُ في العادة الغالبة مسبوقةً بالكلمة أو مقرونة بها أو ملحقة بها أو كل ذلك جميعا. فلا تأتي إذن إلا من خلالها.

وحينما نتوهم أننا نتلقى صورا بغير كلمات، فإنما هي لعبة الكلمة

المتخفية خلف الصورة. إنك لا تسمعها؛ نعم، ولكنها تتدفق إلى خواطرك في صمت، وتسكن اعتقادك بقوة. ومن ذا الذي قال إن الكلمة هي الصوت فقط؟ إنما الكلمة "مفهوم" يتواصل به الإنسان عبر اللغة الطبيعية، الصوتية أو الإشارية أو الصورية أو السيميائية، إلى غير ذلك مما في الوجود من رموز وأشكال نُصِبَتْ للدلالة على معنى... كل ذلك كلام.

الكلمة هي الوجود

إن الكلمة هي الوجود وما سواها صُوَر. ومن هنا ترى عمق الآية الكريمة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١)؛ فانظر -في ضوء ذلك- إلى هذا الكلام الإلهي العظيم، كم هو فعلا يضرب في عمق الحقيقة، وإلى أي حد هو يوغل في مجاهيل الوجود...

إن الإعلام اليوم كما كان من قبل في التاريخ -رغم اختلاف الأشكال والتجليات- ليعتبر أخطر وسائل التحكم، وأرهب أدوات الصراع الحضاري، وأقوى آليات التدافع العمراني في الأرض.

إن الذين قهروا الناس في الأرض عبر التاريخ لم يكونوا بشرا فوق البشر في أبدانهم ولا في عقولهم، ولا كانوا "آلهة" في واقع الأمر، وإنما هم "متكلمون" فقط. أسّسوا أسطورة من الكلام في أذهان الناس وسحروهم بها، أو ورثوا رصيدا كلاميا عن آبائهم وأجدادهم واستمروا في إنتاجه وتجديده حتى تعيش الأسطورة في شعوبهم إلى الأبد؛ فكان منهم "ابن الشمس" و"حفيد الرب"، و"وكيل الآلهة"، وغير ذلك من سائر أنواع الكلام مما يدخل في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾(الأعراف:١١٦).

وما كان طغيان فرعون في الأرض واستذلال أهلها إلا من بعد أن أوهمهم بأنه هو ربهم الأعلى، فلم يكن يريهم إلا ما يرى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ۞ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(النازعات:٢٣-٢٤). ومن هنا لما خالفه قائل الحق من رجاله نطق بقوة فقال، كما حكى الله تعالى عنه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غافر:٢٩). فكان بذلك مثالا لكل طغيان وتألّه وتجبر: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي ٱلأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص:٤).

إنه قهْر القوة والسلطان الباطل الذي يصنعه -فقط- سحر الكلام. وانظر إن شئت إلى هذا البيان السحري الرهيب الذي ألقاه فرعون على قومه من بعد ما زلزلت عرشَه آياتُ موسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ ٱلأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ۞ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۞ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(الزخرف:٥١-٥٤). وتأمل جدا ما أعقب الله به خطاب فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فهو إنما استخف في الواقع عقولهم.

ولقد قرأتُ قصة طريفة مترجمة عن الكتابة الفرعونية القديمة رواها أحد أطباء فرعون. وذلك أنه تسلط ذات يوم على أحد الأغنياء فأراد أن ينتزع منه ضيعته، فلما أبى أن يتنازل عنها نكل به فرعون تنكيلا، فقطع أيديه وأرجله من خلاف، وألقاه على حافة الطريق، فصادف أن كان الطبيب مارا بعربته فوجده يئن في الظلام، فلما عرفه رَقَّ لحاله وحمله

إلى بيته، ثم عالجه من آثار جروح البتر. ثم انقطعت صلته به بعد ذلك إلى أن مات فرعون. ولما كان يوم مراسم التحنيط والدفن على -عادة قدماء المصريين- والكاهن يلقي كلماته في رثاء فرعون، بما يصبغه عليه من رداء الربوبية المزيفة والألوهية المدعاة والعظمة المكذوبة، ويذكر من شيمه ما لا قِبَلَ للبشر به، إذا بالطبيب يجد من بين الحاضرين الرجل الغني الذي نكل به فرعون من قبل، وقطع أيديه وأرجله من خلاف، وجده يبكي بحرارة ويقول: "ما كنتُ أعلم أن فرعون كان إلها مقدَّسا إلى هذا الحد".. وكأنما يبكي ندما على ما فرَّطَ في جنب فرعون، ولم يكن له من الطائعين ومن عباده الصاغرين.

إن الإنسان لمّا يتوهم أنه مغلوب على أمره، أو أنه لا يستحق أن يكون حرا يخضع بصورة تلقائية لمن غلبه بهذه الأكذوبة.

من هنا كانت معجزة هذا العصر هي القرآن، القرآن بما يملكه من قوة خارقة في تحرير الإنسان من عبودية الشهوات التي تثقله إلى التراب، وتملي عليه تقديس الحياة الفانية، وتخضعه لمن يهدده بالقتل والتشريد فيها. القرآن بما يملكه من سلطان ربّاني على النفوس يجعلها تبصر حقيقة أنه لا إله إلا الله الواحد القهار حركة حية أبدية في الكون وفي التاريخ، وأن كل استكبار من دونها هو محض افتراء وهراء.

القرآن بما له من خاصية التحويل الوجداني العميق لمسار الإنسان، من جِرْمٍ جزئي ضئيل يدور في فَلَكٍ قصير من متاع الدنيا الشهواني؛ إلى كائن كوني كبير يدور في فَلَكِ الملكوت الرباني الفسيح، في سيره العظيم إلى الله.. حيث يرى بعين القرآن واستعلاء الإيمان كيف أن كيد الشيطان كان ضعيفا حقَّ ضعيف، وكيف أن المعركةَ كونيةٌ، يقودها الله رب العالمين.

من أنت أيها الإنسان..؟! [٦٧]

من أنت..؟ أنا، وأنت!.. ذلك هو السؤال الذي قلّما ننتبه إليه.. والعادة أن الإنسان يحب أن يعرف كل شيء مما يدور حوله في هذه الحياة، فيسأل عن هذه وتلك، إلا سؤالا واحدا لا يخطر بباله إلا نادرا، هو "من أنا؟". نعم، فهل سألتَ يوما نفسك عن نفسك: "من أنت؟".

ولعل أهم الأسباب في إبعاد ذلك وإهماله يرجع في الغالب إلى معطى وهمي، إذ نظن أننا نعرف أنفسنا فلا حاجة إلى السؤال، تغرنا إجابات الانتماء إلى الأنساب والألقاب، وتنحرف بنا عن طلب معرفة النفس الكامنة بين أضلعنا، التي هي حقيقة "من أنا؟" و"من أنت؟" ويتم إجهاض السؤال في عالم الخواطر؛ وبذلك يبقى الإنسان أجهل الخلق بنفسه، فليس دون الأرواح إلا الأشباح!

ولو أنك سألت نفسك بعقلك المجرد: من أنتِ؟ سؤالا عن حقيقتها الوجودية الكاملة، لَما ظفرت بجواب يشفي الغليل! وإذن تدخل في بحر من الحيرة الوجودية!

أنا وأنتَ، تلك قصة الإنسان منذ بدء الخلق إلى يوم الناس هذا.. إلى آخر مشهد من فصول الحياة في رحلة هذه الأرض، وهي قصة مثيرة ومريرة!

---

[٦٧] مجلة حراء، العدد: ١٤ (يناير-مارس ٢٠٠٩م).

القرآن يعرّف الأنسان بنفسه

ولذلك أساسا كانت رسالةُ القرآن هي رسالة الله إلى الإنسان؛ لتعريفه بنفسه عسى أن يبدأ السير في طريق المعرفة بالله؛ إذْ معرفة النفس هي أول مدارج التعرف إلى الله. وليس صدفة أن يكون أول ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(العلق:١-٢). ثم تواتر التعريف بالإنسان -بَعْدُ- في القرآن، في غير ما آية وسورة، من مثل قوله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ۞ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۞ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(الإنسان:١-٣) وكذلك آيات السيماء الوجودية للإنسان، الضاربة في عمق الغيب، من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۞ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۞ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَٱلأَبْصَارَ وَٱلأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾(السجدة:٦-٩).

ومن هنا أساسا كانت قضية الشيطان -بما هو عدو للإنسان- هي إضلاله عن معالم الطريق، في سيره إلى ربه، بدءا بإتلاف العلامات والخصائص المعرِّفة بنفسه، والكاشفة له عن حقيقة هويته، وطبيعة وجوده، حتى إذا انقطعت السبل بينه وبين ربه، أَلَّهَ نفسَه، وتمرد على خالقه.

الإنسان بين صراع الحق والباطل

ولم يزل الإنسان في قصة الحياة يضطرب بين تمرد وخضوع في صراع أبدي بين الحق والباطل إلى الآن. فكانت لقصته تلك عبر التاريخ

مشاهدُ وفصول! وكانت له مع الشيطان ومعسكره معاركُ ضارية، فيها كَرٌّ وفَرٌّ، وإقبالٌ وإدبار! قال ﷻ حكايةً عن إبليس: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۞ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَولاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾(الإسراء:٦٢-٦٥). من أجل ذلك كان للإنسان في كل زمان قصة مع القرآن، وقصة مع الشيطان.

فيا حسرة عليك أيها الإنسان! هذا عمرك الفاني يتناثر كل يوم، لحظةً فلحظة، كأوراق الخريف المتهاوية على الثرى تَتْرَى! ارْقُبْ غروبَ الشمس كل يوم لتدرك كيف أن الأرض تجري بك بسرعة هائلة لتلقيك عن كاهلها بقوة عند محطتك الأخيرة! فإذا بك بعد حياة صاخبة جزءٌ حقير من ترابها وقمامتها، وتمضي الأرض في ركضها لا تبالي.. تمضي جادةً غير لاهية -كما أُمِرَتْ- إلى موعدها الأخير..

فكيف تحلّ لغز الحياة والموت؟ وكيف تفسّر طلسم الوجود الذي أنت جزء منه ولكنك تجهله؟ كيف وها قد ضاعت الكتب كلها ولم يبق بين يديك سوى هذا "الكتاب"!؟

فأين تجد الهداية إذن يا ابن آدم، وأنى تجدها إن لم تجدها في القرآن؟ وأين تدرك السكينة إن لم تدركها في آياته المنصوبة -لكل نفس في نفسها- علامات ومبشرات في الطريق إلى الله؟ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۞ وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(الإسراء:٩-١٠).

نَعَم، بقي القرآن العظيم إعجازا أبديا، يحيي الموتى، ويبرئ المرضى، ويقصم قلوب الجبابرة، ويرفع هامات المستضعفين في العالمين، ويحوّل مجرى التاريخ. وكل ذلك كان -عندما كان- بالقرآن، وبالقرآن فقط. وهو به يكون الآن، وبه يكون كلما حَلَّ الإبَّانُ من موعد التاريخ، ودورة الزمان على يد أي كان من الناس، بشرط أن يأخذه برسالته، ويتلوه حق تلاوته، وتلك هي القضية.

ماذا حدث لهؤلاء المسلمين؟ أين عقولهم؟ أين قلوبهم؟ أليس ذلك هو القرآن؟ أليس ذلك هو كلام الله؟ أليس الله رب العالمين؟ أليس الخلق -كل الخلق- عبيده طوعا أو كرها؟ ففيم التردد والاضطراب إذن؟ لماذا لا ينطلق المسلم المعاصر يشق الظلمات بنور الوحي الساطع، الخارق للأنفس والآفاق؟!

حبل الله الممدود من السماء

ألم يقل الله في القرآن عن القرآن بالنص الواضح القاطع: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١). فهل هذه خاصية ماتت بموت محمد رسول الله ﷺ؟ أم إن معجزة القرآن باقية بكل خصائصها إلى يوم القيامة؟!

ورغم أن الجواب هو من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة لكل مسلم، فإن رسول الله ﷺ يلقي البشرى إلى هذه الأمة نورا من الأمل الساطع الممتد إلى الأبد. فقد دخل عليه الصلاة والسلام المسجدَ يوما على أصحابه ثم قال: «أبشروا.. أبشروا..! أليس تشهدون ألا إله إلا الله وأني رسول الله؟" قالو: بلى، قال: "إن هذا القرآن سَبَبٌ، طرفُه بيد الله،

وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدًا» (رواه ابن حبان والبيهقي). ومثله أيضا قوله ﷺ بصيغة أخرى: «كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض» (رواه الطبري). تلك حقيقة القرآن الخالدة، ولكن أين من يمد يده؟

ألم يأن للمسلمين -وأهل الشأنِ الدَّعَوِي منهم خاصة- أن يلتفتوا إلى هذا القرآن؟ عجبا! ما الذي أصم هذا الإنسان عن سماع كلمات الرحمن؟ وما الذي أعماه عن مشاهدة جماله المتجلي عبر هذه الآيات والعلامات؟ أليس الله جل ثناؤه هو خالق هذا الكون الممتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة؟ أليس هو جل وعلا رب كل شيء ومليكه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟ أوَليس الله هو مالك الملك والملكوت، ذو العزة والجبروت، لا شيء يكون إلا بأمره، ولا شيء يكون إلا بعلمه وإذنه!؟ أوَليس الخلق كلهم أجمعون مقهورين تحت إرادته وسلطانه؟

فمن ذا قدير على إيقاف دوران الأرض؟ ومن ذا قدير على تغيير نُظُم الأفلاك في السماء من بعد ما سوَّاها الله على قدر موزون؟ ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت:١١).. ومن ذا مِنَ الشيوخ المعمَّرين قديرٌ على دفع الهرم إذا دب إلى جسده، أو منع الوَهَنِ أن ينخر عظمه، ويجعد جلده؟ ويحاول الإنسان أن يصارع الهرم والموت، ولكن هيهات هيهات!

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيُوهِنَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

الموت والفناء هو اليقينية الكونية المشتركة بين جميع الخلق، كافرهم ومؤمنهم.

البعث القرآني

يولد الإنسان يوما ما، وبمجرد التقاط نفَسِه الأول من هواء الدنيا يبدأ عمره في عَدٍّ عَكْسِي نحو موعد الرحيل، فكان البدءُ هو آية الختام. هكذا يولد الإنسان وبعد ومضة من زمن الأرض تكون وفاته: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾(الرحمن:٢٦-٢٧).

ذلك هو الله رب العالمين، يرسل رسالته إلى هذا الإنسان العبد، فيكلمه وحيا بهذا القرآن، ويأبى أكثرُ الناس إلا تمردا وكفورا. فوا أسفاه على هذا الإنسان، ويا عجبا من أمر هؤلاء المسلمين، كأن الكتاب لا يعنيهم، وكأن الرسول لم يكن فيهم، ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(يس:٣٠).

إن هذا القرآن هو الروح الذي نفخه الله في عرب الجاهلية، فأخرج منهم خير أمة أخرجت للناس، وانبعثوا بروح القرآن من رماد الموت الحضاري طيورا حية تحلّق في الآفاق، وخرجوا من ظلمات الجهل ومتاهات العمى أدِلاَّءَ على الله، يُبْصِرون بنور الله ويُبَصِّرون العالم الضال حقائق الحياة! ذلك هو سر القرآن، الروح الرباني العظيم، لا يزال هو هو، روحا ينفخ الحياة في الموتى من النفوس والمجتمعات، فتحيا من جديد. وتلك حقيقة من أضخم حقائق القرآن المجيد، قال جل ثناؤه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾(الشورى:٥٢-٥٣).

مسؤولية الإنسان الوجودية

من أنت؟ تلك قصة النبأ العظيم، نبأ الوجود الضخم الرهيب، من البدء إلى المصير، النبأ الذي جاءت به النُّذُرُ من الآيات: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(الأنبياء:٩٧). وقريبا جدا -واحسرتاه!- تنفجر به الأرض والسماوات: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾(الأنبياء:١٠٤).

ذلكم هو النذير القرآني الرهيب! ولقد أعذر من أنذر! وما بقي لمن بلغه النبأ العظيم من محيص، إلا أن يتحمل مسؤوليته الوجودية، ويتخذ القرار، قرارا واحدا من بين احتمالين اثنين، لا ثالث لهما: النور أو العَمَى.. وما أنزل الله القرآن إذْ أنزله إلا لهذا، ولقد صَرَّفَه على مدى ثلاث وعشرين سنة، آيةً آيةً، كل آية في ذاتها هي بصيرة للمستبصرين الذين شَاقَهُم نورُ الحق فبحثوا عنه رَغَبًا ورَهَبًا عسى أن يكونوا من المهتدين. وبقي القرآن بهذا التحدي الاستبصاري يخاطب العُمْيَ من كل جيل بشري، قال الحقُّ جل وعلا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾(الأنعام:١٠٤).

من أجل ذلك؛ نرجع آئبين إلى رسالة الله، نقرؤها من جديد، نستغفره تعالى على ما فرّطنا وقصّرنا، قدوتنا في هذه السبيل رسول الله ﷺ بسنته الزكية التي لم تكن في كل تجلياتها النبوية -قولا وفعلا وتقريرا- إلا تفسيرا للقرآن العظيم. وكفى بكلمة عائشة أم المؤمنين في وصفه عليه الصلاة والسلام لما سُئلت عن خُلُقِه ﷺ فقالت بعبارتها الجامعة المانعة: «كان خُلُقُه القرآن»(رواه مسلم). ولقد ضل وخاب من عزل السنة عن الكتاب.

التّمسيك بالكتاب وإقامُ الصلاة

نرجع إذن إلى القرآن، نحمل رسالته إن شاء الله -كما أمر الله- نخوض بها تحديات العصر، يحدونا اليقين التام بأنْ لا إصلاح إلا بالصلاح، وأن لا ربّانية إلا بالجمع بينهما، وأن لا إمكان لكل ذلك -صلاحًا وإصلاحًا وربانيةً- إلا بالقرآن المجيد. وهو قول الحق -جل ثناؤه- في آية عجيبة، آية ذات علامات -لمن يقرأ العلامات- ولكل علامة هدايات. قال تعالى ذِكْرُه: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾(الأعراف:١٧٠).. التَّمْسِيكُ بالكتاب، وإقامُ الصلاة أمران كفيلان برفع المسلم إلى منزلة المصلحين، هكذا: ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾. وإن تلك لآية، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾(آل عمران:٧٩). وقد قُرِئَتْ: ﴿تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ و﴿تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ للجمع بين وظيفتي التَّعَلُّم والتعليم، والصلاح والإصلاح، إذْ بذلك يكون التدارس لآيات القرآن العظيم، بما هي علامات دالة على الله، وراسمة لطريق التعرف إليه جل وعلا، في الأنفس والآفاق.

وتلك هي السبيل الأساس للربانية، كما هو واضح من دلالة الحصر المستفادة من الاستدراك في الآية: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾.

مفهوم القرآن

ولنسأل الآن ما القرآن؟ ما هذا الكتاب الذي هز العالم كله، بل الكون كله.؟!

أجمع العلماء في تعريفهم للقرآن على أنه "كلام الله"، واختلفوا بعد

ذلك في خصائص التعريف ولوازمه، ولا نقول في ذلك إلا بما قال به أهل الحق من السلف الصالح. وإنما المهم عندنا الآن ههنا بيان هذا الأصل المجمع عليه بين المسلمين: "القرآن كلام الله". هذه حقيقة عظمى، ولكن لو تدبرت قليلا..

الله ﷻ خالق الكون كله.. هل تستطيع أن تستوعب بخيالك امتداد هذا الكون في الآفاق؟ طبعا لا أحد له القدرة على ذلك إلا خالق الكون ﷻ. فالامتداد الذي ينتشر عبر الكون مجهول الحدود، مستحيل الحصر على العقل البشري المحدود. هذه الأرض وأسرارها، وتلك الفضاءات وطبقاتها، وتلك النجوم والكواكب وأفلاكها، وتلك السماء وأبراجها، ثم تلك السماوات السبع وأطباقها... إنه لضرب في غيب رهيب لا تحصره ولا ملايين السنوات الضوئية.

أين أنت الآن؟ اسأل نفسك.. أنت هنا في ذرة صغيرة جدا، تائهة في فضاء السماء الدنيا، الأرض. وربك الذي خلقك وخلق كل شيء، هو محيط بكل شيء قدرة وعلما.. هذا الرب الجليل العظيم، قدَّر برحمته أن يكلّمك أنت، أيها الإنسان، فكلمك بالقرآن.. كلام الله رب العالمين. أوَ تدري ما تسمع؟ الله ذو الجلال رب الكون يكلمك: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾(طه:١٣). أيّ وجدان وأيّ قلب يتدبر هذه الحقيقة العظمى فلا يخر ساجدا لله الواحد القهار رغبا ورهبا؟! اللهم إلا إذا كان صخرا أو حجرا. كيف، وها الصخر والحجر من أخشع الخلق لله؟ ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١)، وهي أمثال حقيقة لا مجاز، ألم تقرأ قول الله تعالى في حق داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ

وَالإِشْرَاقِ ۞ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾(ص:١٨-١٩)، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأعراف:١٤٣).

كلام الله هو كلام رب الكون، وإذا تكلم سبحانه تكلم من عل، أي من فوق، لأنه العلي العظيم ﷻ، فوق كل شيء، محيط بكل شيء علما وقدرة. إنه رب الكون.. فتدبر: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾(فصلت:٥٤).

ومن هنا جاء القرآن محيطا بالكون كله، متحدثا عن كثير من عجائبه. قال تعالى في سياق الكلام عن عظمة القرآن: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ۞ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ۞ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(الواقعة:٧٥-٨٢).

سبحانك ربنا ولا بأي من آياتك نكذب.

تالي القرآن متصل ببحر الغيب

ذلك هو القرآن.. كلام من أحاط بمواقع النجوم خلقا، وأمرا، وعلما، وقدرة، وإبداعا. فجاء كتابه بثقل ذلك كله، أنزله على محمد ﷺ، من بعدما هيأه لذلك، وصنعه على عينه سبحانه جل وعلا، فقال له: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥). ومن هنا لما كذب الكفار بالقرآن، نعى الله عليهم ضآلة تفكيرهم، وقصور إدراكهم، وضعف بصرهم عن أن يستوعبوا بعده الكوني الضارب في بحار الغيب، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي

يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(الفرقان:٥-٦). وإنه لرد عميق جدا. ومن هنا جاء متحدثا عن كثير من السر في السماوات والأرض. قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾(الكهف:٥٤). وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾(فصلت:٥٣-٥٤).

فليس عجبا أن يكون تالي القرآن متصلا ببحر الغيب، ومأجورا بميزان الغيب، بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها، والحرف إنما هو وحدة صوتية لا معنى لها في اللغة، نعم في اللغة، أما في القرآن فالحرف له معنى، ليس بالمعنى الباطني المنحرف، ولكن بالمعنى الرباني المستقيم. أوَ ليس هذا الحرف القرآني قد تكلم به الله؟ إذن يكفيه ذلك دلالة وأيّ دلالة، ويكفيه ذلك عظمة وأيّ عظمة. فعن ابن مسعود ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول "ألم" حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(رواه الترمذي).

ولذلك كان لقارئ القرآن ما وعده الله إياه من رفيع المنازل في الجنان العالية، وما أسبغ عليه من حلل الجمال. قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وَارْقَ، ورَتِّلْ كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها»(رواه أحمد والترمذي)، وقال أيضا: «يجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يا رب، حَلِّه، فيُلْبَسُ تاجَ الكرامة، ثم يقول: يا رب زِدْهُ، فيُلْبَسُ حُلَّةَ الكرامة، ثم يقول: يا رب اِرْضَ عنه، فيرضى عنه،

فيقول: اِقرأ، وَارْقَ، ويُزَادُ بكل آية حسنة»(رواه الترمذي)، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(الجمعة:٤).

إنه تعالى تكلم، وهو ﷻ متكلم، سميع، بصير، عليم، خبير، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، نثبتها كما أثبتها السلف، بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه. لقد تكلم ﷻ، وكان القرآن من كلامه الذي خص به هذه الأمة المشرفة، أمة محمد عليه الصلاة والسلام. فكان صلة بين العباد وربهم، صلة متينة، مثل الحبل الممدود من السماء إلى الأرض، طرفه الأعلى بيَد الله، وطرفه الأدنى بيَد من أخذ به من الصالحين. قال ﷺ في خصوص هذا المعنى من حديث سبق: «كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض». وقال في مثل ذلك أيضا: «أبشروا.. فإن هذا القرآن طرفه بيد الله و طرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا، و لن تضلوا بعده أبدا»(رواه الطبراني). وروي بصيغة أخرى صحيحة أيضا فيها زيادة ألطف، قال ﷺ: «أبشروا.. أبشروا.. أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟" قالوا: بلى، قال: "فإن هذا القرآن سبب، طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدا"».

أهل القرآن هم أهل الله

هي الرسالة وصلت من رب العالمين إليك أيها الإنسان، فاحذر أن تظنك غير معني بها في خاصة نفسك، أو أنك واحد من ملايير البشر، لا يُدْرَى لك موقع من بينهم.. كلا، كلا! إنه خطاب رب الكون، فيه كل خصائص الكلام الرباني، من كمال وجلال، أعني أن الله يخاطب به الكل والجزء في وقت واحد، ويحصي شعور الفرد والجماعة في

وقت واحد، ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران:٢٩)، سبحانه ﷻ، لا يشغله هذا عن ذاك، وإلا فما معنى الربوبية وكمالها؟ تماما كما أنه قدير على إجابة كل داع، وكل مستغيث، من جميع أصناف الخلق، فوق الأرض وتحت الأرض، وفي لجج البحر، وتحت طبقاته، وفي مدارات السماء ...إلخ. كل ذلك في وقت واحد -وهو تعالى فوق الزمان والمكان- لا يشغله شيء عن شيء، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.. فبذلك المنطق نفسه أنت إذ تقرأ القرآن تجد أنه يخاطبك أنت بالذات، وكأنه لا يخاطب أحدا سواك.

احذر أن تخطئ هذا المعنى.. تذكر أنه كلام الله، وتدبر.. ثم أبصر! قال ﷻ: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد:٢٤). فتدبر..! ذلك هو القرآن، الكتاب الكوني العظيم، اقرأه وتدبر، فوراء كل كلمة منه حكمة بالغة، وسر من أسرار السماوات والأرض، وحقيقة من حقائق الحياة والمصير، ومفتاح من مفاتيح نفسك السائرة كرها نحو نهايتها. فتدبر.. إن فيه كل ما تريد. ألست تريد أن تكون من أهل الله؟ إذن عليك بالقرآن، اجعله صاحبك ورفيقك طول حياتك تكن من "أهل الله" كما في التعبير النبوي الصحيح. قال عليه الصلاة والسلام: «إن لله تعالى أهلين من الناس، أهل القرآن هم أهل الله، وخاصته»(رواه أحمد والنسائي وابن ماجه).

فلسفة العمر [٦٨]

من أهم مصادر الجمال في الإسلام عقيدةُ اليوم الآخر، لكننا لن نذوق جماليتها إلا بعد معرفة ما "العمر"؟ هذا الامتداد الزماني الحاد المحدود، الذي يحد فترة حياة الإنسان، من الولادة إلى الممات.

العمر هبة إلهية كبرى.. إنه تجلٍّ من تجليات الحياة، بيد أن حقيقته نسبية ككل حقائق الحياة الدنيا. فليس فيه -إذا تفكرت- طويل وقصير، وإنما هو قصير كله. فمن حيث منطق الأشياء وطبائعها: كل ما ابتدأ لينتهي لا يكون إلا قصيرا. أليس كل الناس يموتون بعد سنوات من تاريخ ميلادهم؟! نعم، سنوات، وإن هي إلا سنوات، لا مئات السنين، ولا آلافها.

ثم إن المقارنة النسبية بين أعمار الخلائق المختلفة تبيّن لك نسبيّة الطول والقصر باعتبار آخر. فمن الخلائق التي تعيش مئات السنين أو آلاف، من غير البشر، كالأشجار، والجبال ونحوها، وكالشياطين -وقد قال إبليس اللعين: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۞ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾(الحجر: ٣٦-٣٨)- إلى الكائنات التي تعمر الشهر والأسبوع واليوم، كبعض الحشرات، من مثل النحل،

---

[٦٨] مجلة حراء، العدد: ٩ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٧م).

والذباب، والفراش. فلو نظرت إلى ما يشعر به المعمَّر مئات السنين أو آلافَها وهو ينظر إلى عمر الإنسان لوجدته يتأسف على شدة قصره، ويأسى على الإنسان الذي لم يمد له في عمره إلا قليلا، وهو لا يدري أن عمره هو أيضا بالنسبة إلى من هو أطول عمرا قصير جدا.

قصر الأعمار

ولو نظرت أنت -باعتبارك الإنساني- إلى أعمار الحشرات التي تعيش شهرا أو أسبوعا أو يوما، لأشفقتَ عليها من شدة قِصَرِ ما تعيشه من لحظات. ومما أرويه عن علماء الأحياء، أن ضربا من الفراش يعيش دورته البيولوجية الكاملة، في مدة لا تتجاوز أربعا وعشرين ساعة. يكون بيضة، ثم يخرج منها، فيدبّ دودة، ثم يلتف حول نفسه في غشائه، ليطير بعد ذلك فراشة، ثم يبيض ما شاء الله له ليخلّف ذريته بأمان، ثم يموت. كل ذلك في أربع وعشرين ساعة!

وعندما كنتُ أقرأ أن بعض الحشرات يعيش ثمانية أيام على الأكثر، كان يتبادر إلى ذهني أن تلك الحشرة إذا طال عمرها إلى اليوم الثامن، تنشد كما أنشد الشاعر العربي القديم:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ ومَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلاً -لاَ أَبَا لَك- يَسْأَمِ

واليوم الواحد بالنسبة إلى وجدان الحشرة كعشر سنوات كوامل، لا فرق. ولو نظرت إلى ما أخبر به الله عن الزمان الكوني في القرآن، لأدركت أن الأعمار كلها بالفعل قصيرة.

الزمان الكوني وتجلياته

والزمان الكوني صور وأقسام شتّى، يتجلى بعضها في بُعْدِه "المِعْرَاجِيّ"، وهو نوعان: الزمان الأمري، والزمان الملائكي. فـ"الزمان الأمري" هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(السجدة:٥)، و"الزمان الملائكي" هو المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(المعارج:٤). كما يتجلى في صورة "الزمان العِنْدِيّ" وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(الحج:٤٧). وهو زمان "الملائكة العندية" المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾(الأعراف:٢٠٦){س}. ثم "الزمان الأخروي" وهو الزمان الخالد السرمدي الذي لا ينتهي أبدا.

وفي ذهنك، أنت أيها المعمَّر مائة عام أنك عشت عمرا مديدا. نعم تماما كما عُمِّرَت الحشرةُ ثمانيةَ أيام، أو أربعا وعشرين ساعة.

ولك أن تتفكر في نسبية الزمن عند تقلّب أحوال النفس الإنسانية، بين شتّى ضروب الانتظار مثلا.. عندما تنتظر حلول لحظة سعيدة لم يبق بينك وبينها إلا لحظات يسيرة من دقائق معدودات.. تَشعُر أنها تمر ببطء شديد، وتقلق من "طول" الانتظار؛ فكأنّ وقع الدقائق تلك في نفسك عدة أعوام. وعندما تحلّ اللحظة السعيدة، تشعر -رغم طول مدتها بالنسبة إلى لحظات الانتظار- أنها قصيرة جدا، فكأن وقتها يتصرم منك تصرما.

الزمن نسبي.. وتلك هي حقيقة الأعمار.

الطول والعرض في الأعمار

والعمر -عند التفكر في الخلق الإلهي- هو حقيقة الإنسان. إذ ليس المرء إلا بداية ونهاية! ساعة ولادة فساعة وفاة. ولكن.. شتان شتان بين عمر وعمر! ليس ذلك باعتبار الطول والقصر؛ إذ الأعمار كلّها قصيرة كما أسلفنا، ولكن باعتبار العرض والضيق، إذ قد يكون العمر طويلا -حسب العد البشري النسبي- ولكن يكون ضيقا من غير سعة. كما قد يكون قصيرا بالاعتبار نفسه، ولكنه عريض جدا، حتى لكأنه لا يكاد ينتهي أبدا.

وبيان ذلك بالمثال التالي: هَبْ أن العمر عبارة عن طريق يقطعها الإنسان، لها امتداد طولي وآخر عرضي. والعادة أن الإنسان إنما ينتبه إلى الطول؛ لأن ذلك هو المتعلق بمفهوم الزمن (الماضي والحاضر والمستقبل)، ولكنه قلّما ينتبه إلى العرض؛ لأن هذا إنما يتعلق بالأعمال والمنجزات خلال كل فترة من فترات الزمن.

فالإنسان في سيره خلال عمره نوعان: نوع يخطو دون أن ينتبه إلى عرض الوقت، فيلتهم من طوله ما هو مقدّر له، فلا يشعر ببركة العمر مهما طال، حسب العد البشري النسبي. ونوع ينتبه إلى العرض؛ ولذلك فهو إذ يخطو الخطوة الواحدة من عمره، لا ينتقل إلى الثانية حتى يخطو مثلها على عرض الطريق لا على طولها ليعيش باقي اللحظات التي هي من الخطوة الطولية الأولى نفسها التي خطاها.

وهكذا يبقى يخطو على عرض الطريق حتى يستوعب كل عرضها. وحينئذ فقط، ينتقل إلى أمام ليخطو خطوة أخرى على طولها، ثم يستأنف بعد ذلك خطوات العرض. فهو إذن يسير طولا وعرضا.

إن مفهوم العرض رمز إلى استغلال الوقت استغلالا كاملا. لأن

الناس -في الغالب- يعيشون اللحظة الواحدة، بما لا يكفي لعمارتها من الأشغال والأعمال. وربما أمضوها بالفراغ، وذلك هو ما يسمى بقتل الوقت. والعرض هو استنفاد كل الحيز الزمني للحياة بالمنجزات الإيجابية، والأعمال الحية التي تملأ رصيد العبد بالحياة الحافلة بالخير. وتلك هي "بركة العمر" المرجوة في الأدعية المأثورة. وإني إذ أذكر هذا المعنى أذكر وصف الله للجنة بقوله سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾(الحديد:٢١)، ذلك أن الجنة زمن خالد، فأنت تعيش اللحظة الواحدة مرات عديدة، لا تنقضي أبدا. كما أن نعمها الوفيرة لا تستنفد أبدا. فذلك هو العرض ذو المعاني الجميلة.

أما الطول فهو يوحي بالنهاية والزوال، ومن هنا لم تكن للأعمار قيمة من حيث طولها أو قصرها، وإنما البليد من الناس من يتشبث بالطول الدنيوي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾(البقرة:٩٤-٩٦).

ذلك أن جشع الكفار وجهلهم بحقيقة الحياة، يجعلهم ينظرون للدنيا من خلال بُعْدٍ واحد، هو البعد الطولي. وهو بعد خداع، لأن الألف سنة فيه كاليوم لا فرق، ما دام الطول ينتهي إلى حد. والعدد في الوحدات الزمنية الدنيوية -كما رأيت- نسبي، ورُبّ حشرة عاشت بضع لحظات أو بضعة أيام، أزكى عمرا ممن عمّر ألف سنة. ومتى كان الإنسان هو المقياس الحقيقي لوحدات الزمن؟!

العمر الطولي والعرضي

ومن هنا ذمّ الله الحياة الدنيا، من حيث هي طول يُتلهف فيه على المتع الزائلة، والمكاسب الفانية: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(الحديد:٢٠)، وقال ﷺ: «مَا لي وللدُّنْيا..؟ ما أنا في الدنيا إلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تحت شَجَرَةٍ ثم رَاحَ وتَرَكَها!»(رواه الإمام أحمد والترمذي).

والأحاديث في ذمّ الدنيا والركون إليها كثيرة جدا، تملأ أبوابَ الرِّقَاقِ من كتب الحديث النبوي الصحيح. وهي لا تخرج في معناها عن التنبيه إلى خطورة النظر القاصر إلى الزمن، والتكالب على استنفاد لحظات العمر في عَدِّ طولٍ لا يمنع من الموت شيئا.

والجميل في الأمر أن العرض لا ينقضي بوفاة الإنسان، بل يمتدّ حتى بعد وفاته؛ فلا تجده يشعر ذلك الشعور اليائس الذي يزلزل نفسية الكفار، إذ يشعرون عند ذكر الموت بهول "الفناء".

وقد رأينا كثيرا من علماء الأمة الإسلامية ممن لم يعمَّر من حيث الطول إلا ثلاثا وخمسين سنة، كالإمام الشافعي رحمه الله، ولكن ها أنت تراه -بعد وفاته بأكثر من ثلاثة عشر قرنا- يملأ الدنيا بالحياة. فهذا مذهبه الفقهي يملأ عرض الدنيا وطولها، وهذه كتبه العلمية تملأ كل أعمار الناس. فهل عاش الشافعي بضعا وخمسين سنة فقط؟! إنه نظر قاصر لمفهوم الزمن إذن.

وكذلك الشأن بالنسبة للإمام النووي رحمه الله، الذي لم تزل مصنّفاته هي مادة التربية الإيمانية لملاِيين المسلمين، ككتاب "رياض الصالحين"، وكتاب "الأذكار"، و"الأربعين النووية"، و"شرح صحيح مسلم". فهذا الرجل العظيم قد عاش عمرا مباركا عريضا جدا، في خمس وأربعين سنة فقط.

ومن المعاصرين الإمام حسن البنّا رحمه الله الذي استشهد عن عمر لا يتجاوز الثلاث والأربعين سنة، ولكنه لم يزل يمتد في حياة الأجيال امتدادا قويا، لا تحدّه مقاييس الأعمار الفانية.. إنك تراه هنا وهناك حيا، يحرك الأحداث المعاصرة، ويهز الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية هزا في كل مكان. أولئك قوم عرفوا كيف يعيشون عرض العمر، ولم يأبهوا لطوله الكاذب.

وقد وجدنا النصوص القرآنية والحديثية تنبّه المسلمين إلى هذا المعنى العظيم، حيث يملك المرء معه أن يعيش حتى التخمة، حياة حافلة بالحياة. يقول الله ﷻ في العبد يستثمر وقته في العمل الصالح: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٦١)، وهو ما فسره النبي ﷺ بقوله: «إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة»(متفق عليه).

ويموت الإنسان لكن يمتد عرض عمره بعده. قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(رواه مسلم) وقال أيضا: «مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً فله أجرُها وأجرُ مَنْ عَمِلَ بها بعده، من غير أن يُنْقَصَ مِنْ أُجورِهِمْ شَيْءٌ»(رواه مسلم). وذلك كل فعل الخير الذي لا ينقطع أثره بالموت.

الحياة الآخرة

ثم إن الإيمان بالحياة الآخرة يشعر المسلم بأن الموت إنما هو مَعبر إليها، فلا يحس في وجدانه العميق بأنه ينتهي بالموت؛ فيعيش الحياة بذوق آخر، ملْؤه العمل والأمل في أن تكون أخراه أفضل من دنياه..

فيا لبؤس عمر يعيشه الإنسان وهو يشعر بأن الموت هو آخر المطاف! انظر إلى هذه الإشارة الإلهية في وصف نفسية الملاحدة المنكرين للبعث، إذ يقتلهم اليأس، ويدمرهم القنوط.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام:١٢٥)، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(الحج:٣١).

فانظر إلى هذا الزلزال النفسي، والشعور بالدمار والخراب في الحياة، الذي يملأ صدور الكفار، واليأس القاتل الذي يجثم على أحلامهم، لما يعيشونه من فقر شديد في العلم بالله. بينما يملأ هذا حياة المسلم سعة ورحمة، بسبب ما يتيحه له من آفاق أرحب، للنظر في الحياة والكون والمصير. وفقدانه يعني فقدان التوازن النفسي حتما في التعامل مع العمر.

هذا الرصيد الوحيد لدى الإنسان، الذي عليه أن يوظفه ليسعد أو ليشقى. ودون هذا الفضاء الواسع الرحب لا يوجد إلا اليأس القاتل، والخراب المدمر، وهو حال كل منكر للبعث من الكفار والملاحدة أجمعين. وما ذلك إلا لأنهم -كما وصفهم الله تعالى- ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾(الممتحنة:١٣).

ومن هنا فأنت ترى أن الباب الفسيح الذي يمد عمر المسلم بالاتساع، إنما هو مفهوم "الغيب". هذا المفهوم الذي تقوم عليه العقيدة الإسلامية بأكملها. فهو الذي يملأ حياة العبد العامل أملا، ويغمر وجدانه حياة متدفقة أبدا، لا يحدها أجل، ولا تقطعها وفاة!

كتب الأستاذ فتح الله كولن المترجمة إلى اللغة العربية

١. ونحن نقيم صرح الروح
٢. ونحن نبني حضارتنا
٣. التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-١
٤. ترانيم روح وأشجان قلب
٥. روح الجهاد وحقيقته في الإسلام
٦. القدر في ضوء الكتاب والسنة
٧. الموازين أو أضواء على الطريق
٨. حقيقة الخلق ونظرية التطور
٩. أسئلة العصر المحيّرة
١٠. أضواء قرآنية في سماء الوجدان
١١. طرق الإرشاد في الفكر والحياة
١٢. ألوان وظلال في مرايا الوجدان
١٣. النور الخالد: محمد... مفخرة الإنسانية
١٤. القلوب الضارعة / إشراف: محمد فتح الله كولن

كتب ودراسات حول فكر الأستاذ فتح الله كولن

١. عودة الفرسان.. سيرة محمد فتح الله كولن.. رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب، أ.د. فريد الأنصاري.

٢. البردايم كولن.. فتح الله كولن ومشروع الخدمة، د.محمد باباعمي.

٣. أرباب المستوى.. حضور معرفي في فكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي.

٤. ذي قربتي.. مقالات وخواطر وقصص من واقع الخدمة، د. محمد باباعمي.

٥. الزمن والوقت.. نصوص ومفاهيم مؤسسة على الرؤية الكونية لفكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي.

٦. الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراتي.

٧. هندسة الحضارة.. تجليات العمران في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراتي.

٨. عبقرية فتح الله كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، أ.د. فؤاد البنّا.

٩. الضاربون في الأرض، أديب إبراهيم الدبّاغ.

١٠. نداء الروح.. رحلة في عالم الفرسان، د. مريم آيت.

١١. فتح الله كولن.. رائد النهضة في تركيا المعاصرة، أ.د. عبد الحليم عويس.

١٢. مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي.. خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، مؤتمر.

١٣. محاورات حضارية، حوارات نصّية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني، أ.د. جيل كارول.

١٤. فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه.

١٥. فتح الله كولن.. قصة حياة ومسيرة فكر / أرطغرول حِكمة.


قراءات في رسائل النور
مفاتيح النور
في مفاهيم رسائل النور
فريد الأنصاري
دار النيل

عودة الفرسان

سيرة محمد فتح الله كولن

رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب

الرواية الأخيرة لفقيد الأمة فريد الأنصاري



- رواية شاعرية النَّفَس،
- واقعية المضمون،
- وَهَّاجة النور،
- شاجية القلب،
- وجيعة الوجدان...
- تغنِّي للأمل، وتهتف للمستقبل؛
- تكفكف الدمع، وتمسح الألم...

رجال
ولا كأيّ رجال

مكتبة حراء

لولا أني رأيتُهم لقلت إنه مجرد وهمٍ أو هُراء أو خيال.. ظلال نورية لجيل الصحابة الكرام أو نُسخ أخرى لستُ أدري.. ولقد رأيتهم وما كذبت عيني؛ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلا.. فلله درّهم.. أيّ رجال هم!؟

من بلاد الأناضول تشرق شمسهم، ثم تتدفق أشعّتها نحو كل العالم خيوطا بلورية وهّاجة، تصل الأرحام القديمة وتذكي الحنين الجريح.. مجانين.. يعشقون الخدمة اغترابا، من قَرِّ "سبريا" إلى حَرِّ جنوب إفريقيا.. ولا تركوا جزيرة أو مغارة أو سهلا أو جبلا من كل قارّات العالم إلا دخلوه، ووزّعوا فيه شُعاعات الصبح القريب!..

رجال.. لو تحدث عنهم كتاب قديم، لقلنا إنها مبالغة من مبالغات كتب القصص والطبقات والمناقب.. لكنهم يعيشون "الآن" في الحاضر والمستقبل، فها هم أولاء أمامك نماذج حية من الشوق الملتهِب والفاعلية العظيمة. نظرة واحدة فيهم تغنيك عن قراءة كتب الفلسفة والأخلاق وخيالات المدينة الفاضلة. فهؤلاء لا يتكلمون عن الأخلاق، بل هم الأخلاق نفسها تمشي على الأرض، في زمن صار الخلق الكريم فيه قطعة مهملة في متحف التاريخ. سادتي!.. أنتم المجاهدون حقّا، فعليكم من الله السلام.

ISBN: 978-975-315-613-4
9 789753 156134
www.daralnile.com
Er Oğlu Erler
دار النيل